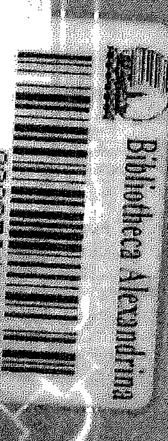
التشريع الإسلامي

مناهجه ومقاصده

الجزء الأول

آية الله السيد محمد تقي المدرسي



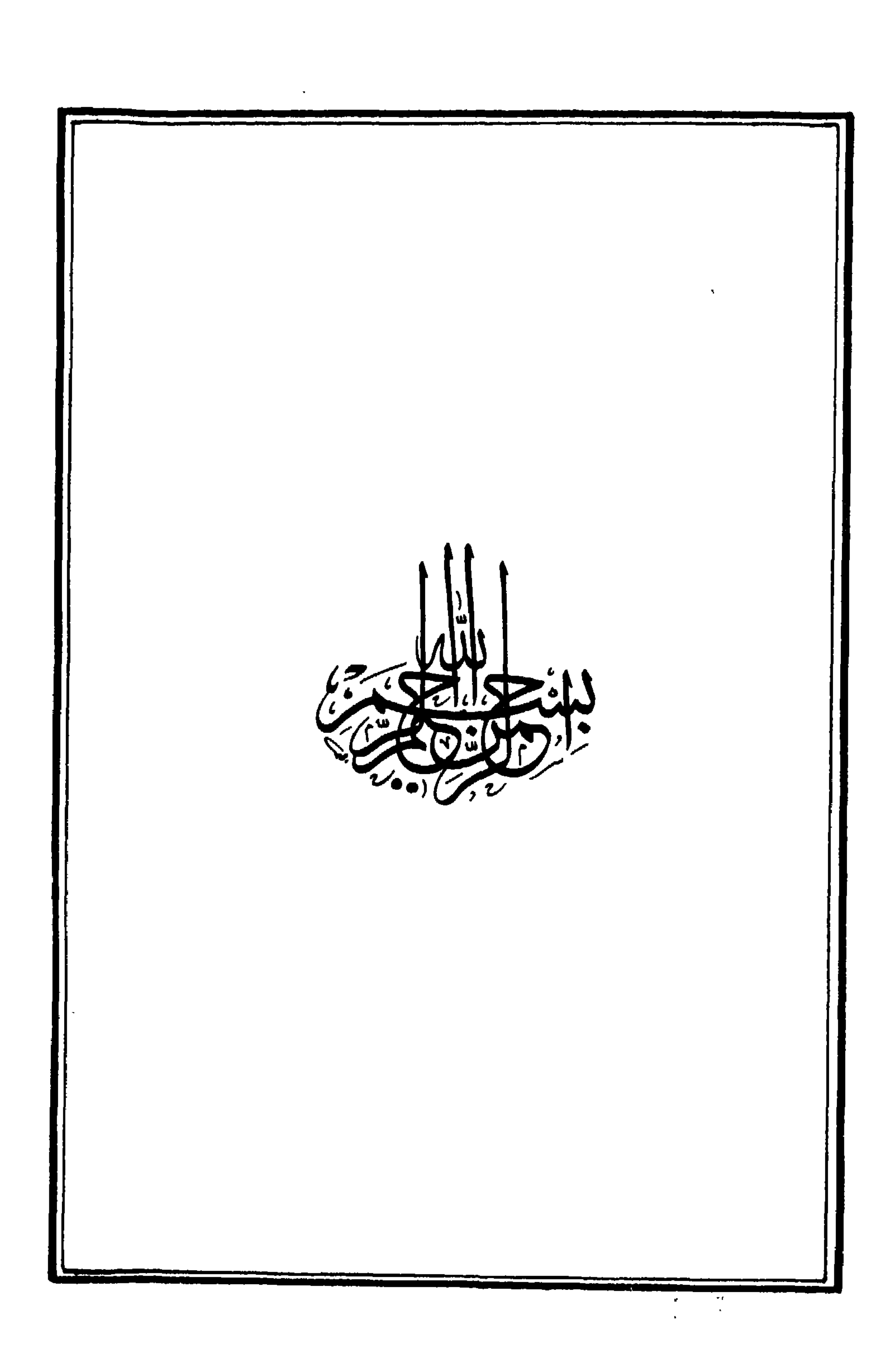


التشريع الإسلامي

مناهجه ومقاصده

الجزء الأول

اسم الكتاب : التشريع الاسلامي (الجزء الاول)
المؤلف : آية الله السيد محمد تقي المدرسي
الناشر: انتشارات المدرسي
الطبعة : [illegible] شوال ١٤١٣
عدد النسخ : ٣٠٠٠ نسخة
الثمن : ٢٨٠٠ ريال


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العَالمين

المقدّمة

الصلاة والسلام على أشرف الأنبياء المصطفى الأمين محمد وعلى آله الميامين .

مبادىء الدستور هي القيم والأصول العامة التي يستلهم منها المشرع أفكار الدستور ، وهي روح القوانين التي تتفرّع من الدستور .

وعندما يقوم المشرع بوضع قوانين جديدة ، فلا بدَّ أن يعتمد على تلك الأصول لأنها تنفع القضاة عند اختلافهم في تفسير نص قانوني .

وكذلك التشريع الاسلامي ينبعث من روح عامة وقيم سامية تسري في أحكامه وأنظمته .

وكنت منذ عهد بعيد أمنّي نفسي بالبحث عن تلك الروح العامة وحينما توجهت شطر كتاب الله ، وبدأت أستلهم من آياته الكريمة الرؤى والبصائر وأسجلها في تفسير سميته (من هدى القرآن) كان من جملة أهدافي معرفة روح التشريع الإسلامي . ولذلك آليت على نفسي ألاّ أتفرَّغ للفقه إلا بعد الانتهاء من التفسير.ومن هنا عدت أتساءل من جديد : ما هي القيم السامية التي بيَّنها القرآن الكريم للتشريع ، وكيف نستفيد منها في فقه الشريعة ؟ .

وبعد البحث عرفت أن تلك القيم هي روح الدين ومقاصد الشريعة والأهداف التي تسعى لتحقيقها أحكام الإسلام .

وقد توكّلت على الله وعقدت العزم على دراسة الموضوع من جوانبه ، ولعل الله يوفقني لذلك بفضله .

بيد أني لاحظت أن هناك بحوثاً تمهيديّة لا بُد منها قبل الغوص في غمار الموضوع . فألفت الكتاب الذي بين يديك وهو عبارة عن بيان مناهج التشريع الإسلامي ، ليكون مفيداً لمن يسعى لتفقّه الدين . وهو بمثابة علم الأصول حسب الأطروحة الجديدة التي أحاول بحثها في هذه الدراسة .

واليوم حين أُقدّم هذا الكتاب للقراء الكرام،أسأل الله أن يوفّقني لإتمام بحوثي القادمة في مقاصد التشريع الإسلامي . وقد سميت كلا الموضوعين بـ (التشريع الاسلامي مناهجه ومقاصده) .

ورجائي من الله أن يمهِّد بهذا الكتاب ـ بقسميه ـ السبيل الأقرب الى استنباط الأحكام الإسلامية من دون تعقيد أو تطويل ، وبالذات فيما يتصل بِفقْهِ المتغيِّرات والحوادث المستجدَّة .

وفي الختام أسال الله أن يوفّق علماءَنا الكرام لدراسة مقاصد الشريعة دراسة وافية ليسهِّلوا طريق تطبيق الإسلام في العصر الراهن ، إنه ولي التوفيق .

طهران
٢٧ / ربيع الأول / ١٤١١ هـ
محمّد تقي المدرسي

الباب الأول :

العلاقة بين العقل والشرع



الفصل الاول :

ما هو العقل ؟



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيد

ماذا يهديك الى النور؟ أليس النور ذاته ؟ كذلك عقلك يهديك الى ذاته ، وهل يبصر أحدنا عينه بغير عينه ؟ فيجب ـ إذاً ـ لا نبحث في الظلمات عن النور ، لأنّنا لن نجده هنالك ، بل سوف نزداد عنه ضلالاً .

كذلك ضلّ أكثر الناس عن العقول ، فلم ينتفعوا بهذه الموهبة الإلهية إلّا قليلاً .

وترى بعضهم ينكر عقله أساساً ، ويحتجُّ على إنكاره ببعض الحجج ، ولا يدري أنّ احتجاجه ذاته دليله الى عقله . وكيف يتسنّى لمن لا عقل له أنْ يكون منطقيّاً ويحتجّ على شيء بشيء ؟ .

العقل يكشف ذاته بذاته ، ولا يحتاج أحدنا إلّا الى التذكرة به ، واستثارته كالمصباح الذي رانت عليه الأوساخ يكفيك أنْ تنظّفه لتراه ثم ترى الأشياء به ! .

والمناهج العلمية المختلفة ، سبل العقل الى الحقائق ، والعقل هو الذي عرفها ، واستفاد منها ، ولكنه لا يتقيّد بها . وانّى له التقيُّد بها ، وهو الذي كشفها لنا ، وحدّد معالمها وأمرنا باتّباعها للوصول الى الحقائق . وهكذا تجد العقل البشري لم يتقيّد بمنهج أرسطو في المنطق ، بل ابتدع عشرات المناهج الأخرى ، كالمناهج الرياضية المتطورة ، والمناهج التجريبية المختلفة .[1] .

كما أنّ الأذكياء من الناس قد يتجاوزون كل المناهج ، ويتركون المجال لعقولهم أنْ

---

(١) قد أوضحنا في كتاب : (المنطق الإسلامي : أصوله ومناهجه) العديد من المناهج القديمة والحديثة في المنطق .

تنطلق في رحاب الحقيقة ، حتى يظنّ البعض أنّهم ملهمون - وليسوا بملهمين - ولكنهم يجوبون آفاق الحقائق بلا قيود .

ولهذا فإنّ تحديد العقل بأنه يدرك الكليات ، ولا شأن له بالأمور الجزئية ، أو أنه لا يدرك شيئاً إلّا من خلال مناهج خاصة ، هو نوع من خسارةٍ لموهبة العقل . .

إنّك تبصر بعينك الجبل الأشم ، كما تبصر سمّ الخياط ، وتضيء أشعة الشمس صحراء واسعة ، كما تضيء كوخاً صغيراً ! وتفقه بعقلك قبح الظلم ، وحسن الإحسان ، كما تفقه كيفية فتح باب مغلق .

العقل موهبة عظيمة ، وغفلة الإنسان عنها هي المسؤولة عن ضلاله وجهله ، كما لو سدّ الإنسان نافذته عن الشمس ، أو سد عينه ، أفيرى شيئا ؟!

وهكذا تكون الثقة بالعقل مفتاح المعارف ، لأنّ مَنْ يشكّ في عقله يغفل عنه ، ويهمل الانتفاع به .

والثقة بالعقل ، تعني اكتشاف الإنسان لذاته ، لأنّ عقل الإنسان أعظم ما فيه . وهو يرفد كل كمال وجمال ! .

والمنهج السليم لاعادة الثقة بالعقل بعد التذكرة به ، التعرُّف على الحقائق التي لا تحصى التي تعرَّفنا عليها بالعقل ، وقياس أنفسنا بمن لا عقل له ، وقياس ذوي العقول بغيرهم أليس من يعيش في صحراء مضاءة بنور الشمس لا ظل فيها ولا ظلام ، قد يغفل عن مصدر النور ، ويظن أن النور حالة طبيعية في ذرات التراب ، فإذا غابت الشمس هنالك يعرف قيمة الشمس ..

وحين نتدبَّر في القرآن والسنَّة نجد أنّ هذا هو المنهج الذي اتّبع فيهما ، سواءً في التذكرة بالعقل أو بتنمية ثقة الإنسان به .

والعقل هو ذلك النور الذي نُميِّز به الخير عن الشر ، والحسن عن القبيح ، وحينما ينحسر عنا عند الغضب والشهوة العارمَيْن ، نرتكب القبائح ثم نلوم أنفسنا عندما يعود ، وهو الذي نفقده عند الصغار والمجانين والحمقى فنرى فيهم نقصاً كبيراً ، وهو الذي يحاسب الناس بعضهم بعضاً على أساسه ويحمِّلونهم به مسؤولية أفعالهم ، وهكذا يصف الإسلام العقل بصفاته التي تتجلّى في العقلاء .

والوحي إثارة للعقل وتذكرة به ، وقد خلقه الله من نورٍ مخزونٍ مكنونٍ عنده فأكرمه

وحمّله المسؤولية حين قال له : بك أُثيب وبك أُعاقب .

وقد فصّل قادة الإسلام القول في العقل ، كما فعل الإمام الكاظم في وصيته الحكيمة ، حيث بيّن فيها دوره في تلقّي الحقائق من الوحي ، وبيّن كيف أنّه يكتمل بالعلم وبالخُلُق الفاضل ، وأنه حجة الله ورسوله في الباطن ، وأنّه لا يختلف عن الوحي شيئاً .

وقد أخطأ بعض الفلاسفة حين زعموا أنّ العقل مجموعة تصورات أو أحكام قاطعة وبديهية عند الانسان ، ذلك لأنّ تلك الأحكام ما هي إلّا مكشوفات لنور العقل ، وإنّ نور العقل ، كما يكشفها ، يكشف غيرها .

ويختلف العقل والعلم عن القطع ، حيث إنّ الثاني ليس سوى دفع الاحتمالات حتى لا يبقى إلّا واحد منها ، بينما العلم كشف الحقيقة للنفس حتى تطمئن إليها ! .

وحجية العلم ذاتية ، بينما حجية القطع ليست ذاتية ، فإذا كان عن طريق عقلائي لم يردع عنه الشرع ، أخذنا به ، وإلّا فلا .

والعقل قد يغطُّ في سبات ، وعلاجه إيقاظه بإثارته ، وقد ينكسف شعاعه بسُحُب الهوى ، فلا بدّ من ردع النفس عن اتباع الهوى وشحذ عزيمتها لمواجهة الأهواء ..

وقد تختلط وساوس الشيطان ، وهواجس النفس وتسوّلاتها ، بالعقل وأحكامه ، فلا بدّ من تجلية العقل بالتذكرة بها ، وببيان شواهده ، وجنوده ، وصفات الذين يتحلّون به ، وكذلك ببيان الجهل ، وشواهده ، وجنوده ، وصفات المبتلين به .

وسوف نناقش طويلاً الآراء التي ذكرت في موضوع علاقة الوحي بالشرع ، وهل أنّ العقل يستقلّ بفَهْم الأحكام الشرعية ؟ .

وصفوة القول ، تتلخّص في امور : .

١ ـ إنّ القطع الذي اعتبره البعض حجّة ذاتيةً ليس كذلك ، إنّما هو قد يكون طريقاً عقلائياً ، وأنه ردعت عن بعض مفرداته الشريعة الغراء ، كقطع القطاع ، والقطع الذي مصدره القياسات الباطلة أو الجفر والرمل وسائر المصادر غير المعترف بها عند العقلاء . وهذا رأي كبار فقهائنا (قدّس الله أرواحهم) .

٢ ـ وإنّ العقل يستقلُّ بمعرفة الحسن والقبح ، ولكنه بحاجة الى الوحي ، لتزكية النفس ، وتنمية الإرادة فيها ، وتجلية العقل وإثارة دفائنه .

٣ ـ إنَّ الوحي قد بينَّ لنا كلّ ما نحتاجه من الأحكام في صيغة أصول الأحكام العقلية التي يجمع العقلاء على قواعدها العامة .

٤ ـ وظيفة العقل التعرُّف على الوحي ، وفهمه ، ومعرفة حَمَلَته ، ومعرفة تطبيقه على الحقائق الفرعية . وبكلمة : العقل والوحي شعاعان لمصباحٍ واحد ، تكاملهما ، لا يتكامل البشر ، لذلك لا يجوز القياس في الدين، ولا الاستغ النصوص .

العقل في بصائر الوحي

إذا عرضنا هذا السؤال على اللغة لبادرنا القاموس بالقول : نور روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية .

وإذا عرضناه على العرف لكانت إجابته أكثر بساطة حيث يصفونه بشواهده ، يقولون مثلاً : هو الذي يعلّمنا كيف نعيش ، وما ينبغي لنا أنْ نفعله ، وما لا ينبغي .

هو الذي يعلّمنا كيف نعيش ، وما ينبغي لنا أنْ نفعله ، وما لا ينبغي .

وإذا سألتهم عن العقلاء لسردوا لك مجموعةً من صفات الكمال .

ولكن ذلك لا يجدينا نفعاً إذا لم يكتشف كل واحد منا بنفسه نور العقل وهنا اذاً نتساءل : بالتأكيد لم نكن نعرف الخير من الشر والحسن من القبيح عند الطفولة ، ولكنّا اليوم نعرف ذلك جيداً ، فما هو هذا النور الذي عرفنا ذلك به ؟

عند الغضب والشهوة الجامحين نرتكب أفعالاً ثم نلوم أنفسنا عليها ، فما الذي كنا نفقده عندئذٍ ثم وجدناه فقيّمنا به ؟ .

وعندما نحاسب الآخرين نستطيع أنْ نميّز بسهولةٍ بالغةٍ بين الحسن والقبيح من أفعالهم ، وبين المحسن والمسيء منهم ، وأنّى ذهبنا في هذا العالم الرحيب نجد أصول الصفات الحميدة واحدة ، فالكل يتغنّى بالعدل والإحسان ، والإنفاق والإيثار ، والكل يستنكر الظلم والعدوان والبغي والاستئثار . .

فمن خلال التنبُّه الذاتي ومراجعة أنفسنا كيف عرفنا الحقائق الأولية، وكيف نوقن بها ونستريح إليها بلا أيّ ريبٍ أو تردد؛ من خلال ذلك يتجلّى لنا نور العقل من داخل أنفسنا.

وكلمات القرآن والنبي والأئمة في العقل جرت حسب هذا السياق.. فعرّفوا العقل بآياته وبصفات الذين يتحلّون به، فقد روي عن النبي -صلّى الله عليه وآله-:

«العقل عقالٌ من الجهل، والنفس مثل أخبث الدوابّ»[1].

وعنه صلّى الله عليه وآله:

«قسّم العقل على ثلاثة أجزاء، فمَنْ كانت فيه كمل عقله، ومَنْ لم تكن فيه فلا عقل له: حسن المعرفة بالله عز وجل، وحسن الطاعة له، وحسن الصبر على أمره»[2].

وروي عنه أيضاً أنه قال -صلّى الله عليه وآله-:

«صفة العاقل أنْ يحلم عمّن جهل عليه، ويتجاوز عمن ظلمه، ويتواضع لمن هو دونه، ويسابق مَنْ فوقه في طلب البرّ، وإذا أراد أنْ يتكلم تدبّر، فإن كان خيراً تكلّم فغنم، واذا كان شرّاً سكت فسلم، وإذا عرضت له فتنة استعصم بالله، وأمسك يده ولسانه، وإذا رأى فضيلةً انتهز بها، لا يفارقه الحياء، ولا يبدو منه الحرص فتلك عشر خصال يعرف به العاقل».

وأضاف -صلّى الله عليه وآله- في بيان صفة الجاهل ممّا يعاكس العاقل، وقال:

«وصفة الجاهل أنْ يظلم مَنْ خالطه، ويتعدّى على مَنْ هو دونه، و. و.»[3].

---

(1) تحف العقول / ص ١٩.

(2) بحار الأنوار / ج ١ — ص ١٠٦.

(3) المصدر / ص ١٢٩.

وروي عن الإمام علي -عليه السلام- أنّه قال عن العقل:

«التجرّع للغصة، ومداهنة الأعداء، ومداراة الأصدقاء»[١].

وعن النبي -صلّى الله عليه وآله- وقد سُئل: ما العقل؟ فقال: «العمل بطاعة الله، وإن العمّال بطاعة الله هم العقلاء»[٢].

وروي عن الإمام الصادق -عليه السلام-:

«كمالُ العقل في ثلاث: التواضع لله، وحسن اليقين، والصمت إلّا من خير»[٣].

وروي عنه قوله:

«إذا أردتَ أنْ تختبر عقل الرجل في مجلسٍ واحدٍ فحدّثه في خلال حديثك بما لا يكون فإنْ أنكر فهو عاقل، وإنْ صدّقه فهو أحمق»[٤].

وجاء عنه -عليه السلام- أيضاً أنّه قال:

«يستدلّ بكتاب الرجل على عقله، وموضع بصيرته، وبرسوله على فهمه وفطنته»[٥].

وعنه عليه السلام:

«دعامة الإنسان العقل، ومن العقل الفطنة والفهم والحفظ والعلم، فإذا كان تأييد عقله من النور كان عالماً حافظاً زكيّاً فطناً فهماً، وبالعقل يكمل، وهو دليله، ومبصره، ومفتاح أمره»[٦].

ولأنّ الهدف الأسمى لكتاب الله هداية الإنسان، ولأنّ سبب الهداية ووسيلتها القريبة إثارة العقل من داخل أنفسنا، فإن الكتاب كان تذكرة، وقد استفاضت آيات الكتاب بهذه الكلمة الجامعة وبصيغ شتّى، لأنها تعبّر بدقةٍ عن

---

(١) المصدر / ص ١٣٠.
(٢) المصدر / ص ١٣١.
(٣) المصدر / ص ١٣١.
(٤) المصدر / ص ١٣١.
(٥) المصدر / ص ١٣٠.
(٦) المصدر / ص ٩٠.

تلك الحاجة الأساسية للإنسان، ألا وهي استثارة العقل، وإيقاظه.

قال ربُّنا: ﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ، فإنما يسرّناه بلسانك لعلهم يتذكّرون ، نحن أعلم بما يقولون وما أنتَ عليهم بجبّار فذكّر بالقرآن مَنْ يخاف وعيد ، إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السَّمْعَ وهو شهيد ﴾ .

وبما أنّ القرآن إيقاظ للعقل منْ سباته وإثارة وذكر فإنّه يفيض على القلب يقيناً لا ريب فيه ، وهدىً وسكينة ، لانه يوقظ العقل ، ويستثير كوامنه ، ويحفّز قدراته ، فإذا استيقظ العقل لامس الحقائق بلا حجاب ، وإذا استثيرت كوامنه أحاطت بالمعارف بلا ريب أو تردّد ، وإذا انبعثت قدراته الكبيرة جابت آفاق العلم بلا قيود .

قال الله ﴿ ألّمَ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتّقين ﴾ .

﴿ يأأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً ﴾ وقد تواترت كلمات الذكر لتنفض غبار السهو والغفلة عن الأفئدة مثل قوله : ﴿ أفلا تعقلون ، أفلا تذكرون ، افلا تبصرون ، أفلا يتدبرون ، أفلا يعلمون ﴾ .

ونجد في السنة الشريفة تذكرة بالعقل وبدوره ، حيث يقول النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ :

(قوام المرء عقله ، ولا دين لمن لا عقل له)[1].

(استرشدوا العقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا)[2].

(ياعلي لا فقر أشدّ من الجهل ولا مال أعود من العقل)[3].

وقال الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وهو يصف الأنبياء ومناهجهم :

(ويثيروا لهم دفائن العقول)[4].

وقال : (أغنى الغنى العقل)[5].

---

(١) المصدر / ص ٩٤ .

(٢) المصدر / ص ٩٦ .

(٣) تحف العقول / ص ١٣ .

(٤) نهج البلاغة / خطبة ١ ص ٤٣ .

(٥) بحار الأنوار / ج ١ ص ٩٥ .

وقال: (العقول أئمة الأفكار)[1].

وقال الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ:

(إنّما يُداقُّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا)[2].

وعن صفة العقل، وكيف خلقه الله من نور بهيّ يقول النّبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ:

«خلق الله العقل من نورٍ مخزونٍ مكنونٍ في سابق علمه، الذي لم يطلع عليه نبي مرسل، ولا ملك مقرّب، فجعل العلم نفسه، والفهم روحه، والزهد رأسه، والحياء عينه، والحكمة لسانه، والرأفة همه، والرحمة قلبه، ثم حشاه وقوّاه بعشرة: باليقين والإيمان والصدق والسكينة والاخلاص والرفق والعطية والقنوع والتسليم والشكر، ثم قال عز وجل: أدبر، فأدبر، ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال: تكلمْ، فقال: الحمد لله الذي ليس له ضدّ ولا ندّ ولا شبيه ولا كفو ولا عديل ولا مثل، الذي كل شيء لعظمته، خاضع ذليل، فقال الرب تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي ما خلقتُ خلقاً أحسن منك ولا أطوع لي منك ولا أشرف منك ولا أعزّ منكَ، بك أُحّد وبك أعبد وبك أُدعى وبك أُرتجى وبك أُبتغى وبك أُخاف وبك أُحذر وبك الثواب وبك العقاب، فخرّ العقل عند ذلك ساجداً وكان في سجوده ألف عام، فقال الرب تبارك وتعالى: أرفع رأسك، وسلْ تُعط، واشفَعْ تشفع، فرفع العقل رسه فقال: إلهي أسألك أنْ تشفّعني فيمن خلقتني فيه، فقال الله جل جلاله: أُشهدكم أنّي قد شفّعته فيمن خلقته فيه»[3].

---

(١) المصدر / ص ٩٦.

(٢) المصدر / ص ١٠٦.

(٣) المصدر / ص ١٠٧.

الامام الكاظم يصف العقل

في وصيته الرشيدة يفصِّل الإمام موسى بن جعفر ـ عليه السلام ـ لهشام بن الحكم الذي هو من أعظم أصحابه ، وأعرفهم بالحكمة الإلهية وأوسعهم اطّلاعاً على المذاهب المختلفة ، يفصِّل القول في العقل ، ويستشهد بآيات الكتاب في بيان دوره في معرفة الدين بالمنهج التالي : .

بيان دور العقل الأساسي في تلقّي الحقائق ، وأنّ الوحي جاء مكملاً له عبر وسائل شتّى ، كالترغيب في الآخرة والتحذير من الدنيا ومن عذاب الله فيها ، وأنّ العقل يكتمل بالعلم ، وأنّ الله ذمّ الذين لا يعقلون ، وذمّ إتباع الناس بلا هدىً .

ومضى الإمام في وصيته الهادفة الى تكميل العقل ببيان دور التواضع للحق والتفكُّر في تنمية العقل .

ثم بيّن أنّ العقل حجة باطنة ، وذكّر به ـ من خلال التذكرة ـ بصفات العاقل ، من مخالفة الهوى ، وتزكية النفس من الرياء والفخر ومن الثقة بأحكامه « دون النظر الى ما يقوله الناس » .

وبيّن دور العقل في طاعة أحكام الدين ، ومضى الإمام ـ عليه السلام ـ في بيان كيفية تنمية موهبة العقل .

الله تعالى يبشر العقلاء

لكي يستثير الإمام العقل ، يتلو على هشام في اول وصيته الآية القرآنية التي تبشر أهل العقل ، وتصفهم بأنهم عباد الله الذين هداهم ربهم .

وإذا عرفنا أنّ العقل يُعْرَف بنفسه ، لأنه النور الإلهي الذي يكشف للإنسان حقائق العلم فكيف يعرّفه غيره ؟ أوَ يكون شيء أظهر من النور ؟!

إذا عرفنا ذلك فإننا نعرف أهمية التذكرة ، حيث إنّها تقوم بدور تنوير دفائن العقل ، كما تحرّك فارة المسك حتى تتضوعّ .

وحديث الإمام ـ عليه السلام ـ يقوم بهذا الدور.. خصوصاً إذا قرأنا السياق القرآني

قبل الاية حيث ينهى ربّنا عن اتباع الطاغوت ، ويأمر باجتنابه ، والابتعاد عن إطار تأثيره الثقافي . يقول الامام ـ عليه السلام ـ : « إن الله تبارك وتعالى بشّر أهل العقل والفهم في كتابه ، فقال : ﴿ **فبشّر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألبابِ** ﴾[1] .

ويتساءل البعض : من أين عرفنا أنّ الآية تبشر أهل العقل والفهم ؟ يبدو ذلك من أمرين : .

أولاً : أنّ هؤلاء لا يأخذون الكلام على علاته ، ولا يرفضونه تماماً ، وإنّما يختارون الأحسن منه . وهل يختار الإنسان الأحسن إلّا بمعيارٍ عقلي ؟

ثانياً : أن هؤلاء هم أُولو الألباب ، ولبّ الإنسان عقله ، وأصله فهمه . وكلمة أخيرة : إذا كانت من أعظم صفات المؤمنين التي يبشرهم الله بها صفة العقل واختيار الكلام الأفضل ، فإنّ معنى ذلك أنّ ربّنا سبحانه لا يطالب عباده بالاتباع المطلق للنص الذي يستمع اليه ، بل الاتباع الواعي ، وانتخاب ما يناسب كل فرد في زمانه وحسب ظروفه ومستواه .

الوحي يكمل العقل

ويمضي الإمام ـ عليه السلام ـ في بيان علاقة الوحي بالعقل ، وكيف أنّ دور الأول تكميل الثاني ، والاعتماد عليه في أصل الدين وهو توحيد الله . وإنّ ذلك ليدلّ على دور العقل في سائر نواحي الشريعة الفطرية .

يقول الإمام : .

« ياهشام بن الحكم ! إن الله جلّ وعزّ أكمل للناس الحجج بالعقول ، وأفضى إليهم بالبيان ، ودلهم على ربوبيته بالأدلة فقال : ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، إن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابّة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** »[2] .

---

(١) الزمر / ١٩ .

(٢) البقرة / ١٦٤ .

ياهشام ، قد جعل الله جلّ وعزّ دليلاً على معرفته بأنّ لهم مدبراً فقال : ﴿ وسخّر لكم الليل والنهار . والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون ﴾[1] وقال : ﴿ حمٓ ، والكتاب المبين ، إنّا جَعَلْناه قرآنا عربياً لعلّكم تعقلون ﴾[2] وقال : ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فَيُحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[3] .

كيف كمل الوحي عقل الانسان ؟

حسبما أفهمه من سياق وصية الإمام فإن الله سبحانه أكمل ـ بوحيه ـ عقل الإنسان بعدة سبل :

أولاً : لأن عدو العقل الهوى ، ولأن جماح الهوى لا يكبح بشيء مثل الترغيب في الحياة الآخرة ، فإنّ أفضل معين للعقل التذكير بأنّ الدنيا حياة زائلة ، وما هي إلّا لعب ولهو ، وأنّ الآخرة هي الحيوان .

وهذا دأب القرآن الكريم ؛ الوعظ والترغيب في الحياة الأبدية ، لعل عواصف الشهوات ، والعصبيات تتراجع ، فيشرع العقل بتقييم كل شيء بموضوعية وبلا تحيّز أو تطرُّف .

وما تلاه الإمام الكاظم ـ عليه السلام ـ على مسامع هشام من آيات في هذا الحقل أمثلة يفيض القرآن بأمثالها حيث يقول الإمام :

« ياهشام ! ثم وعظ « ربّنا سبحانه » أهل العقل ورغبهم في الآخرة ، فقال : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدّار الآخرة خيرٌ للذين يتّقون أفلا تعقلون ﴾[4] .

وقال ﴿ وما أُوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون ﴾[5] .

ثانياً : ولذات السبب السابق ، أي لكي تصفو النفس من غبار الهوى وقتار الغضب

---

(١) النحل / ١٢ .

(٢) الزخرف / ١ ـ ٢ .

(٣) الروم / ٢٤ .

(٤) الانعام / ٣٢ .

(٥) القصص / ٦٠ .

يخوّف القرآن الذين لا يعقلون بعذاب الدنيا ، ويذكّرهم بمصير الغابرين الذين دمَّر الله عليهم حضاراتهم القائمة على البغي والطغيان .

والقرآن الكريم يفيض بعبر الغابرين ، وبأنّ دمارهم كان بسبب تركهم فطرة عقولهم التي ذكروا بها . وكان في ذلك دعوة لهم بالعودة الى عقولهم من جهة ، وبالخروج من أسر الهوى « عدو العقل » من جهة ثانية .

قال الإمام ـ عليه السلام ـ : ﴿ **ثم دمّرنا الآخرين ، وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون** ﴾[1] .

ثالثاً : والعقل كُتلة نور إذا انبسطت على أرجاء الخليقة وكشفت الحقائق فيها سُمّيت علماً ومعرفةً وتفاعل الإنسان معها أكثر فأكثر . وكذلك كان العلم وزير العقل ، بل كان نفسه وروحه .

والقرآن الحكيم ذكّرنا بدور العلم في تنمية العقل وتكميله في أكثر من آية،ولكنّ الإمام الكاظم ـ عليه السلام ـ يتلو علينا آية واحدة للمثل . « وكفى بها مثلاً » فيقول :

« ياهشام ثمّ بيّن أنّ العقل مع العلم ، فقال : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلّا العالمون** ﴾[2] .

رابعاً : لكي يستخدم الانسان عقله ، ويستنير بنوره في حياته العملية ، فهو بحاجة الى ارادة ، والقرآن ينمّي هذه الإرادة عند الانسان بسبل مختلفة ، منها : ذمّ الذين لا يعقلون ، وبيان أنّهم لا قيمة لهم حتى لو كانوا من آبائنا الأولين ، بل إنهم شرّ الدوابّ عند الله ، لأنّ أيّة دابّةٍ خلقها الله تستخدم كل مواهب الله لها ، بينما الإنسان لا يستخدم عقله وهو أعظم موهبة .

وفي كتاب ربّنا آيات كثيرة في هذا الاتّجاه ، منها ما يسوقه الإمام الكاظم لصاحبه هشام مثلاً فيقول :

ياهشام ! ثم ذمّ الذين لا يعقلون ، فقال : ﴿ **وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أوَلَوْ كان آباءهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون** ﴾[3] .

---

(١) الصافات / ١٣٧ ـ ١٣٩ .

(٢) العنكبوت / ٤٣ .

(٣) البقرة / ١٦٩ .

وقال : ﴿ إن شرّ الدواب عند الله الصُّم البكم الذين لايعقلون ﴾[1] .

وقال : ﴿ ولئن سألتهم مَنْ خَلَقَ السمواتِ والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾[2] .

خامساً : ولأنّ من أعظم المؤثرات على العقل البشري اتباع الناس ، والخشية من مخالفتهم مما يسمى في العلوم الحديثة بحس « التوافق الاجتماعي » فإن الاسلام يحصّن الانسان من هذا المؤثر السلبي بذمّ الكثرة لكي لا تصبح ـ أبداً ـ مقياس الحق عند الانسان .

يتلو الإمام الكاظم آيات مباركات في هذا السياق ويقول :

ثم ذم « ربّنا سبحانه » الكثرة فقال :

﴿ وإنْ تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله ﴾[3]

وقال : ﴿ ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾[4]

ثم مدح القلّة ، فقال :

﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾[5] .

وقال : ﴿ وقليل ما هم ﴾[6] .

وقال : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾[7] .

سادساً : من أجل تشجيع الانسان على التفكر والانتفاع بعقله ، ذكر رب العزة العاقل بأحسن الذكر ، وحلّاه بأحسن الحلية ، وبيّن أنّ جماع صفات الخير وجملة حسنات البشر تتمثل في التعقل . والى ذلك أشار الإمام الكاظم ـ عليه السلام ـ بقوله :

---

(١) الانفال / ٢٢ .

(٢) لقمان / ٢٤ .

(٣) الانعام / ١١٦ .

(٤) الانعام / ٣٧ (وهناك آية تقول : (بل أكثرهم لا يعقلون ـ العنكبوت / ٦٣) وآية اخرى تقول : (واكثرهم لا يعقلون ـ المائدة / ١٠٢ .

(٥) سبأ / ١٢ .

(٦) ص / ٢٣ .

(٧) هود / ٤٠ ..

«ثم ذكّر أُولي الألباب بأحسن الذكر ، وحلاّهم بأحسن الحلية ، فقال : ﴿ يؤتي الحكمة مَنْ يشاء ومَنْ يُؤتَ الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً وما يذكّر إلاّ أُولو الألباب ﴾[1] .

«ياهشام ! إنّ الله يقول ﴿ إنّ في ذلك لَذكرى لمَنْ كان له قلب ﴾[2] .

يعني العقل . وقال :﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾[3] الفهم والعقل» .

سابعاً : ويمضي الإمام قدماً في بيان المنهجية المناسبة لتنمية العقل ، لكي يشعّ نوره على أرجاء الخليقة فيضيء حقائقها ، ومن ذلك التواضع للحقّ ، لأنّ التكبّر عليه لا يدع الإنسان يبحث عنه ليجده ، ولأن هوى الإنسان يمنعه عن فَهْم الحقيقة التي تخالفه ، هكذا يقول الإمام :

« ياهشام ! إنّ لقمان قال لأبنه : تواضع للحق تكن أعقل الناس يابني ! إنّ الدنيا بحر عميق ، قد غرق فيه عالم كثير ، فلتكُنْ سفينتك فيها تقوى الله ، وحشوها الإيمان ، وشراعها التوكّل ، وقيّمها العقل ، ودليلها العلم ، وسكانها الصبر» .

ثامناً : لأنّ العقل نور مركّز فلا بد من بَسْطه بالتفكّر ، لأنّ التفكّر هو إثارة كوامن العقل ، واستخدام ضيائه في إنارة الظلام ، وهكذا كان التفكر دليل العاقل ، قال الإمام ـ عليه السلام ـ :

« ياهشام ! لكل شيء دليل ، ودليل العاقل التفكّر ، ودليل التفكّر الصمت ، ولكل شيء مطية ، ومطية العاقل التواضع . وكفى بك جهلاً أنْ تركب ما نُهيت عنه » .

تاسعاً : التفكّر صعب على البشر مستصعب ، وإذا رأيت المتفكّرين في الناس هم الأقلية فلأن الجهل هو الطبيعة الأولى عند البشر ، ومقاومته ليست سهلة .

ومن أسباب صعوبة التفكر : خشية الانسان من الآخرين ، ونزوعه للتوافق معهم ، مما يزلزل ثقته بنفسه . من هنا حذر الإمام من هذه الحالة ، وقال :

« ياهشام لو كان في يدك جوزة وقال الناس : لؤلؤة ، ما كان ينفعك ، وأنت تعلم أنها جوزة . ولو كان في يدك لؤلؤة وقال الناس : إنها جوزة ، ما كان ضرّك وأنت تعلم

---

(1) البقرة / ٢٦٩

(2) ق / ٣٦

(3) لقمان / ١١

أنها لؤلؤة » .

حجة ظاهرة وحجة باطنة

وعاد الإمام الى بيان العلاقة الوثيقة بين العقل والوحي ببيان أنَّ الهدف الأساس لأنبعاث الرسل تكميل عقول الناس ، وكلما عقل الانسان عن ربّه أكثر كلما علم أمر الله بصورة أحسن . وارفع الناس درجةً عند الله أكملهم عقلاً .

« ياهشام ما بعث الله أنبياءه ورسله الى عباده الا ليعقلوا عن الله ، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة لله ، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً ، وأعقلهم أرفعهم درجةً في الدنيا والآخرة » .

وكما يبدو فإنّ أعدى أعداء العقل الجهل المركّب ، وهو حالة طبيعية في كل أبناء آدم حيث يزعمون أنهم يعرفون كل شيء لجهلهم بحدود أنفسهم الضيقة وبآفاق الحقائق الواسعة . وإن جذر هذه الصفة الاستكبار وعلاجها التواضع . وهكذا عاد الإمام الكاظم يذكّر بأهمية التواضع ويقول :

« ياهشام ! ما من عبدٍ إلا وملكٌ أخذ بناصيته فلا يتواضع ، إلا رفعه الله،ولا يتعاظم إلا وضعه الله » .

وهنا يبين الامام الحقيقة التي طالما أكدت عليها نصوص أهل البيت عليهم السلام من اتّصال نور العقل ونور الوحي . وأنها شعاعان من نور واحد ، وكلاهما حجة الله على الانسان .

ولعل حكمة بيان هذه الحقيقة في هذا الموقع من السياق وليس في بداية الوصية إنما هي لكي يتوضح أولاً معنى العقل ، ولا يتوهّم أحد أنّ كلّ ما يفرزه قلب البشر يُعتبر عقلاً . كلا ، إنما العقل ما يقابل الجهل والهوى .. يقول الإمام ـ عليه السلام ـ:

« ياهشام ! إن لله على الناس حجّتَيْن : حجةً ظاهرةً وحجةً باطنةً ، فأما الظاهرة فالرسول والأنبياء والأئمة ، وأما الباطنة فالعقول » .

صفات العقل

كيف نعرف العقل ونميّزه عن الهوى ، وعن تلك الوساوس الشيطانية التي تتلبس بالعقل وتسمّى في منطق الإسلام بالنكراء ؟

أولاً : قد نعرف العقل من خلال صفات صاحبه ، فمَن انجرف في تيّار شهواته ، ولم يضبط تصرّفاته حسب الحكمة ، ولم يمتلك منهجية علمية رشيدة في مواقفه ، فإنه لا يعتبر عاقلاً .

ومن تلك الصفات صفة الشكر ، النابعة من معرفة الإنسان بنفسه ، وأنّه لم يكن ثم كان ، فكل إضافة إليه نعمة لا بّد أن يشكر ربّه عليها ، ويسعى جاهداً لإبقائها بحفظ العوامل المقتضية لها .

أما الذي اذا حظي بنعمةٍ اغترّ بها ، وزعم أنّما أُوتيها بعلم ، أو أنّها جزء من كيانه ، فهو جاهل ، وسوف يفقد النعمة سريعاً أو يتصرّف فيها بما يضرّه .

والصبر ، صفة أخرى يتّسم بها العاقل ، لأنّه لا ينظر الى لحظته الراهنة فيجزع ، بل ينظر الى المستقبل فيأمل الخير ، وينظر الى الماضي فيستصحب الشكر ، وينظر الى مَنْ دونه فيحمد الله على بقيّة النعم التي تحيط به .

وبين صفتي الشكر والصبر تجد المؤمن يقتصد على الحلال شكراً ، ويكف نفسه عن الحرام صبراً .

« ياهشام إن العاقل الذي لا يشغل الحلالُ شكره ، ولا يغلب الحرامُ صبره » .

ثانياً : بين العقل والهوى يتقلّب فؤاد البشر حتى يغلب أحدهما صاحبه ، ولكل منهما جذور عميقة في فطرة الإنسان وطبيعته .

وطول الأمل جذر بعيد الغور في قلب البشر ، لأنه يحب البقاء ، فيتجاهل ويتناسى النهاية الحتمية التي تنتظره ، حتى قيل : بأن الموت أشبه حق بالباطل ، يعترف به الجميع ولا يصدقون أنّهم ميّتون تصديقاً نفسيّاً وعمليّاً ، وإذا استبد طول الأمل بقلب الإنسان فإنه لا يحسّ بحركة الزمن ، ولا يجهد نفسه في استغلال لحظات عمره فيما ينفعه غداً عند ربّه ، ولا يتحسّس بمسؤولياته ، وهكذا تتشوّش رؤيته في كل شيء ، من هنا يقول الإمام ـ عليه السلام ـ :

« ياهشام ! مَنْ سلّط ثلاثاً على ثلاثٍ فكأنّما أعان هواه على هدم عقله : من أظلم نور فكره بطول أمله » .

إنّ من اعترف بالنهاية القريبة يستثير فكره حتى يعرف كيف ينجو بنفسه من دواهي الموت والقبر والحساب .و.و ، وهكذا لا يني يفكّر في حياته وتطويرها نحو الأحسن ،

بينما الساهي اللاهي الذي يعيش تمنّيات الخلود لا يجد دافعاً نحو التفكّر .

ومثله الذي لا يضبط حديثه وفق مقياس فكره ، فيقول ما لا يعلم أو ما لا ينفع او ما يضرّه السكوت عليه ، فإذا بالصواب يضيع في زحمة الثرثرة ، والحكمة تختفي بين ركام الكلمات التافهة . . وهكذا يعين هواه على هدم عقله . يقول عنه الإمام ـ عليه السلام ـ :

« ومحى طرائف حكمته بفضول كلامه » .

أما الصفة الثالثة التي تهدم العقل فهي النظرة المنبعثة عن الشهوة ، وليس عن العبرة ، وبين الشهوة والعبرة تناقض . واليك بيان ذلك :

إذا استهوتك فتاة بفتنتها وجمالها ، فإنك لا تستطيع أنْ تفكّر في عواقب الزواج معها ، ولا تنظر الى المسألة الا من بُعْدٍ واحد ، وإذا دعتك العصبيّة الى عداوة تجمُّع لا تنظر الى أيّة صفة إيجابية فيهم ، ولا يمكنك أن تقيّم موقفك منهم تقييماً إيجابياً .

إنّ نظرة الإنسان نافذة عقله ، ولكن شريطة أنْ ندعها حرة طليقة ، أمّا النظرة الموجّهة بالرضا والغضب ، بالشهوات والأهواء ، فإنّها لا تعود إليك إلّا بما أرسلتها اليه ، لا بالحقائق الموضوعية ، من هنا يقول الإمام ـ عليه السلام ـ عمن يهدم عقله :

« وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه ، فكأنما أعان هواه على هَدْم عقله ، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه » .

ثالثاً : إنما يتقبّل الله العمل النّقي من شوائب الفخر والرياء وطهارة العمل ونقاؤه رهين أدائه بقلبٍ سليم ، ونيّةٍ خالصة ، وبرعاية حدوده ، وعدم إلحاق ما يبطله به ، كالمّن والأذى والاستطالة على الآخرين ، وكل ذلك لا يكون إلا بتحقيق هدف الأعمال الصالحة المتمثّل في إخلاص العبودية لله . .

وتزكية النفس عن أدران الكبر والجهل لا تكون إلّا بالانتفاع من العقل لمعرفة شروط صحة العمل الظاهرة منها والباطنة .

هكذا يقول الإمام موسى بن جعفر ـ عليه السلام ـ :

« كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت عقلك عن أمر ربك ، وأطعت هواك على غلبة **عقلك ؟** » .

من هنا يتبيّن لنا أن تزكية العمل أهم من العمل ذاته ، وهي لا تتحقق عن أمر ربك ، وأطعت هواك على غلبة عقلك ؟ » .

من هنا يتبيّن لنا أن تزكية العمل أهم من العمل ذاته ، وهي لا تتحقق إلا بالتفكّر والتعقّل والابتعاد عن جوانب الهوى .

ويعود الإمام الى بيان جانبٍ آخر من هذه الحقيقة قريباً ، حيث يوضح كيف أن طاعة الله لا تكون بغير العقل .

رابعاً : تطمئن نفس العاقل بموهبة العقل ، وتثق بأحكامه وترضى بما لديه ، ولا يحسّ بمركّب النقص ، ولا يفتش عما يملأ فراغ نفسه من صخب الأصحاب والمردة ، ومن ثروات الدنيا الزائلة .

بينما ترى الجاهل بالعكس تماماً ، يعيش التردّد ، فيبحث عمّنْ يقلّد ، ويستجيب لكل ناعقٍ ، ويخشى من الانفراد بشيء ، ويستوحش من الوحدة ، ويجمع من أموال الدنيا أكثر من حاجته لعلّه يجبر بها نقص نفسه ، وإحساسه بالضعف والخلاء .

لذلك كانت علامة قوة العقل الصبر على الوحدة ، لأنّ العقل القوي يُغني صاحبه عن الأنصار والأصحاب .

« ياهشام ! الصبر على الوحدة علامة قوّة العقل،فمَنْ عقل عن الله تبارك وتعالى اعتزل أهل الدنيا ، والراغبين فيها ، ورغب فيما عند ربه « وكان الله » آنسه في الوحشة ، وصاحبه في الوحدة ، وغناه في العيلة،ومعزّه في غير عشيرة » .

العقل وسيلة الطاعة

بالعقل نعرف الله ، بالعقل نعرف الرسول والحجة ، وكذلك بالعقل نطيع ربّنا ومَنْ لا ينتفع بعقله في اختيار الوسيلة المناسبة للطاعة لا يبلغ هدفه في ارضاء ربّه . . لماذا ؟

أَوَلَيْست طاعة الله فرعَ معرفة أحكامه ؟ أَوَليس العلمُ هو وسيلة معرفة الأحكام ؟ أَوَليس التعلّم سبيلَ العلم ؟ ولَكِنْ كيف يتعلّم مَنْ ضعف عقله ، ولم تكتمل قوة عقله ؟ والقلب المشحون بعواصف الشهوة والغضب ، كيف تثبت فيه أحكام الربّ . . ؟ والقلب المعتقل في سجن الكبر والأحقاد والحسد والحرص . . كيف ينفتح على رحاب الحقائق ؟ .

ثم العلم الإلهي لا يأتيك إلا عبر عالم ربّاني ، وأنّى لك التعرّف عليه لو لم تكن

عاقلاً ؟ .

« ياهشام ! نُصِب الخلق لطاعة الله ، ولا نجاة إلا بالطاعة ، والطاعة بالعلم ، والعلم بالتعلّم ، والتعلّم بالعقل يعتقد ، ولا علم الا من عالم ربّاني ، ومعرفة العالم بالعقل » .

من هنا يجب على المؤمن السعي نحو تكميل عقله حتى يتسنى له العلم بما يجب عليه ، وليس من المناسب ان يبقى جاهلاً بحقائق دينه ويعتذر لذلك بأنه لم يُؤْتَ عقلاً يستوعبها . لأن كمال العقل بيد الإنسان نفسه عبر تلك الوصايا العديدة التي نجدها في آيات الذكر وتفسيرها من كلمات أهله ثم يقول الإمام ـ عليه السلام ـ وهو يبين فائدة العقل في مجال طاعة الله .

« ياهشام ! قليل العمل من العاقل مقبول مضاعف ، وكثير العمل من أهل الهوى والجهل مردود » ! .

ويبيّن الإمام أهمية العقل ، ومدى اهتمام العاقل بتنمية الحكمة التي هي شعاع من نور العقل يضيء الجوانب العملية من الحياة ، فيقول :

« ياهشام ! إن العاقل رضي بالدون من الدنيا مع الحكمة ، ولم يرضَ بالدون من الحكمة مع الدنيا ، فلذلك ربحت تجارتهم » .

كيف ننمي موهبة العقل ؟

ولأن وصية الإمام لهشام برنامج متكامل في حقل العقل ، فإنه ـ عليه السلام ـ يذكره بالعقل ووسائل تنميته ، وأبرزها الأمور التالية :

أولاً :الزهد في الدنيا، التي هي الحجاب الأكبر أمام عقل الإنسان أوَ تدري لماذا ؟ لأن القلب المنهوم بالدنيا لا يني يبحث عنها ويدخل الصراع تلو الصراع من أجلها ، فيغلب على قلبه حبّها ويغلب على فكره كيفيّة الحصول عليها ، وإذا فَقَدَ شيئاً منها ذابت نفسه حسرةً عليها ، وفي مثل هذه الحالة أنّى له الاهتمام بالحكمة ودرجات الكمال المعنوي .. لنستمع الى مواعظ الإمام في ذلك علّنا نهتدي بها ونتكامل عقلياً ببركتها :

« ياهشام ! كان يغنيك ما يكفيك فأدنى ما في الدنيا يكفيك ، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك فليس شيء من الدنيا يغنيك ..

ياهشام ! ان العقلاء تركوا فضول الدنيا ، فكيف بالذنوب ؟ وترك الدنيا من الفضل ، وترك الذنوب من الفرض» .

لعّل الإمام يقصد بيان هذه الحقيقة أن الذنوب هي التي يجب اجتنابها ولكن العقلاء تركوا أيضاً الزيادة في الدنيا احتياطاً لأنفسهم وحمايةً لها من الوقوع في أشراك الذنوب . . ولأن اهتمامهم بفضل الدنيا كان يمنعهم من التقدّم في مدارج الكمال المعنوي .

وأضاف الإمام ـ عليه السلام ـ :

« إنّ العقلاء زهدوا في الدنيا ، ورغبوا في الآخرة ، لأنهم علموا أنّ الدّنيا طالبة ومطلوبة ، والآخرة طالبة ومطلوبة ، فمنْ طلب الآخرة طلبته الدّنيا حتى يستوفي منها رزقه ، ومنْ طلب الدنيا طلبته الآخرة فيأتيه الموت فيفسد عليه دنياه وآخرته » .

والتضرّع الى الله وسيلة هامة نحو تكميل العقل ، ليس فقط لأنه يروّض النفس على العبودية لله التي تورث ـ بدورها ـ كمال العقل ، بل لأن الله سبحانه يؤيد عقل المؤمن بنور هداه ، فإذا به ينظر بنور الله . .

هكذا ينصح الإمام عليه السلام هشاماً بالتضرّع الى الله ليكمل عقله فيكون غنىً في النفس وراحة في القلب من الحسد ، وسلامة في الدين ، وقال :

« ياهشام ! من أراد الغنى بلا مال ، وراحة القلب من الحسد ، والسلامة في الدين ، فَلْيَتَضَرَّعْ الى الله في مسألته ، بأنْ يكمل عقله ، فمَنْ عقل قنع بما يكفيه ، ومَنْ قنع بما يكفيه استغنى ، ومَنْ لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى ابداً » .

ويبيِّن الإمام حقيقةً هامةً إذ يصف العاقل بمَن يجد حقيقة المعرفة في قلبه ، فتفيض آثارها على جوارحه ، فإذا بأفعاله جميعاً رسل قلبه المطمئن وعقله النّير .

«ياهشام ! أنّ الله عزّ وجلّ حكى عن قوم صالحين أنّهم قالوا : ﴿ ربَّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هَدَيْتنا وَهَبْ لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهّاب ﴾[1] حين علموا أنّ القلوب تزيغ وتعود الى عماها ورداها . إنه لم يَخَفِ الله مَنْ لم يعقل عن الله ، ومَنْ لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه ، ولا يكون أحد كذلك إلاّ

---

(١) آل عمران / ٧ .

مَنْ كان قوله لفعله مصدّقاً ، وسره لعلانيته موافقاً ، لأنّ الله لا يبدّل على الباطن الخفي من العقل إلّا بظاهرٍ منه وناطقٍ عنه » .

هكذا يؤكّد الإمام الحقيقة التي سبق أن بيّنها من أنّ الهدف الأساسيّ للدين : أنْ يعقل الإنسانُ عزّة الله ، فيكون أثر الوحي في قلبه ، وأثر الطاعات ، تكامُل عقله ومعرفته وتزكية نفسه ، وسكينة الأيمان فيها ، وتوافق ظاهره مع واقعه وباطنه .

ولتوضيح هذا الأمر أكثر فأكثر يحكي لنا حديثاً عن جدّه الإمام علي ـ عليه السلام ـ يبين فيه طريقة تكامل العقل :

« ياهشام ! كان أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ يقول : ما من شيء عُبد الله به أفضل من العقل وما تمّ عقل امرىء حتى يكون فيه خصال شتى : الكفر والشر منه مأمونان ، والرشد والخير منه مأمولان ، وفضل ماله مبذول ، وفضل قوله مكفوف ، نصيبه من الدنيا : القوت ، ولا يشبع من العلم دهره ، الذلّ أحبُّ اليه مع الله من العزّ مع غيره ، والتواضع أحبُّ اليه من الشرف ، يستكثر قليل المعروف من غيره ، ويستقلّ كثير المعروف من نفسه ، ويرى الناس كلهم خيراً منه وأنه شرّهم في نفسه ، وهو تمام الأمر » .

هكذا لو أخضع الإنسان نفسه الأمّارة بالسوء ، حتى اتّصف بتلك الصفات الحميدة واستطاع أن يقتلع جذر الفساد من نفسه ـ الذي يتمثّل في الكبر ـ فإذا به يرى أنّ الآخرين هم أفضل منه ، وهناك يكتمل عقله ، وهو تمام الأمر ..

ويسوق الإمام الكاظم طائفة من الخصال الحميدة قبل أن يبينّ العلاقة بين العقل والمروءة ، وبين المروءة والدين فيقول :

« ياهشام ! مَنْ صدق لسانه زكى عمله ومَنْ حسنت نيّته زيد في رزقه ، ومَنْ حَسُنَ بُره بإخوانه وأهله مُدَّ في عمره .

ياهشام ! لا تمنحوا الجهال الحكمة فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم .

ياهشام ! كما تركوا لكم الحكمة فاتركوا لهم الدنيا .

يا هشام ! لا دين لَمنْ لا مروءة له ، ولا مروءة لَمنْ لا عقل له » .

ويتبادر سؤال : ما هي المروءة ، وما هي العلاقة بينها وبين العقل ، والدين ؟

الجواب : إنّ المروءة هي جماع صفات الخير التي يراها الناس تكوّن شخصية الرجل المتكامل . وقد يختلف بعض أبعادها عبر العصور والأمصار، إلا أن إطاراتها العامة واحدة . وبما أن الذين يستحسنونها هم ذوو العقول فإنها تعتبر علامة مميّزة للعقل ، فمن لا مروءة له لا عقل له .

ومن جهة أخرى ، فلأن العقل والدين متطابقان ، فإن المروءة والدين متطابقان أيضاً .

وبعد بيان هذه الحقيقة يعود لبيان علامة أخرى للعقل هي سمّو التطلّع ، وعلّو الهمّة فمَنْ لم يرض لنفسه إلا الآخرة كان عظيماً : « وإن أعظم الناس قدراً الذي لا يرى الدنيا لنفسه خطراً[1] أما إن أبدانكم ليس لها ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها بغيرها » .

ثم يسوق الإمام جملةً أخرى من الصفات الحميدة التي تعتبر علامات لكمال العقل ، كما أن السعي وراء التحلّي بها وسيلة قريبة لزيادة العقل.. ونحن إذ نتلوها معاً بلا شرح فلأنها واضحة ، وعلاقتها بزيادة العقل شبيهة بعلاقة نظائرها مما تحدثنا عنه آنفاً .

« ياهشام ! إنّ أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ كان يقول[2] : « لا يجلس في صدر المجلس إلا رجل فيه ثلاث خصال : يجيب إذا سُئل ، وينطق إذا عجز القوم عن الكلام ، ويشير بالرأي الذي فيه صلاح أهله ، فمَنْ لم يكُنْ فيه شيء منهنّ فجلس فهو أحمق » .

وقال الحسن بن علي ـ عليه السلام ـ : « اذا طلبتم الحوائج فاطلبوها من أهلها » قيل : يابن رسول الله ومَنْ أهلها ؟ قال : « الذين قَصَّ الله في كتابه وذكرهم فقال : ﴿ أنما يتذكّر أُولو الألباب ﴾[3] قال : هم أُولو العقول » .

وقال علي بن الحسين ـ عليه السلام ـ : « مجالسة الصالحين داعية الى الصلاح ،

---

(١) لا يختارها لنفسه ولا يعتبرها مساوية في أهميتها لأهمية نفسه والجملة التالية تبين هذا المعنى .

(٢) في الكافي « ان من علامة العاقل ان يكون فيه ثلاث خصال : يجيب اذا سئل وينطق اذا عجز القوم عن كلام ، ويشير بالرأي الذي يكون في صلاح أهله ، فمن لم يكن فيه من هذه الخصال الثلاث شيء فهو احمق ، إن امير المؤمنين ـ عليه السلام ـ قال : لا يجلس في صدر المجلس الا رجل فيه هذه الخصال الثلاث او واحدة منهن ـ الخ » .

(٣) الزمر / ١٢ .

وأدب العلماء[1] زيادة في العقل ، وطاعة ولاة العدل تمام العزّ ، واستثمار المال[2] تمام المروءة ، وإرشاد المستشير قضاء لحق النعمة ، وكف الأذى من كمال العقل وفيه راحة البدن عاجلاً وآجلاً » .

ياهشام ! إنّ العاقل لا يحدّث مَنْ يخاف تكذيبه ، ولا يسأل مَنْ مَنْعه ، ولا يعد ما لا يقدر عليه ، ولا يرجو ما يعنّف برجائه[3] ولا يتقدم على ما يخاف العجز عنه[4]

وكان أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ يوصي أصحابه فيقول : « أوصيكم بالخشية من الله في السّر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والاكتساب في الفقر والغنى ، وأن تصلوا مَنْ قَطَعَكُمْ ، وتعفُوا عَمَّنْ ظلمكم ، وتعطوا[5] على مَنْ حرمكم ، وليكن نظركم عبراً ، وصمتكم فكراً ، وقولكم ذكراً ، وطبيعتكم السخاء[6] فإنه لا يدخل الجنة بخيل ، ولا يدخل النار سخي » .

ياهشام ارْحَمَ الله مَنِ استحيا منَ الله حقَّ الحياءِ ، فحفظ الرأس وما حَوَى[7] والبطن وما وَعى ، وذكر الموت والبلى ، وعلم أن الجنّة محفوفة بالمكاره[8] ، والنار محفوفة بالشهوات .

ياهشام ! مَنْ كفّ نفسه عن أعراض الناس أقاله الله عثرته يوم القيامة ، ومَنْ كفّ غضبه عن الناس كفّ الله عنه غضبه يوم القيامة .

---

(١) في الكافي « وآداب العلماء » .

(٢) اي استنماؤه بالكسب والتجارة .

(٣) التعنيف : اللوم والتوبيخ والتقريع ، والمراد ان العاقل لا يرجو فوق ما يستحقه وما لم يستعده .

(٤) في الكافي « ولا يقدم على ما يخاف فوته بالعجز عنه » اي لا يبادر الى فعل قبل اوانه خوفاً من ان يفوته بالعجز عنه في وقته .

(٥) في بعض نسخ المصدر « وتعطفوا » .

(٦) في بعض نسخ المصدر « واياكم والبخل وعليكم بالسخاء » .

(٧) « وما حوى » اي ما حواه الرأس من الأوهام والافكار بان يحفظها ولا يبديها ويمكن ان يكون المراد ما حواه الرأس من العين والاذن وسائر المشاعر بان يحفظها عما يحرم عليه . وما وعى اي ما جمعه من الطعام والشراب بان لا يكونا من حرام ، والبلى ـ بالكسر ـ : الاندراس والأضمحلال .

(٨) المحفوفة : المحيطة المكاره : جمع مكرهة ـ بفتح الراء وضمها ـ : ما يكرهه الانسان ويشق عليه ، والمراد ان الجنة محفوفة بما يكره النفس من الاقوال والافعال فتعمل بها ، فمن عمل بها دخل الجنة ، والنار محفوفة بلذات النفس وشهواتها ، فمن اعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار .

ياهشام ! إنّ العاقل لا يكذب وإن كان فيه هواه .

ياهشام ! وجد في ذؤابة[1] سيف رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أنّ اعتى الناس على الله منْ ضرب غير ضاربه ، وقتل غير قاتله .

(١) الذؤابة من كل شيء : اعلاه . ومن السيف : علاقته . ومن السوط : طرفه . ومن الشعر : ناصيته . وعتا يعتو عتواً ، وعتى يعتي عتياً بمعنى واحد اي استكبر وتجاوز الحد ، والعتو : الطغيان والتجاوز عن الحدود والتجبر .

العقل في المصطلح البشرى

لأن الفلاسفة تكلّفوا علم الكيف وتساءلوا : كيف يعقل الإنسان الحقائق ؟ وتكلّفوا علم الذات وتساءلوا : ما هو ذات العقل ؟ فإنهم تصوّروا العقل سلسلة معقولات وحُجبوا عن معرفة ذلك النور الذي يكشفها ، لأنه أساساً لم يكن ليعرف بغيره ، ولأنه أعلى وأسمى من أن يعرف ذاته أو يحاط علماً بكيفياته ..

وقد تحدّثنا في موضع آخر عن مشكلة الفلاسفة اليونان التي ورثها أتباعها في غرورهم العلمي وزعمهم بأنهم قادرون على التعرّف على كل شيء بأدواتهم المحدودة . .

وقد قال ربّنا سبحانه : ﴿ **وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ ولعل هذه الكلمة جاءت بالذات عند سؤالهم عن العقل ، لأنَّ ربّنا سبحانه قال : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾[1] .

والروح ـ هو الذي يتنزّل من كل أمر في ليلة القدر وهو الوسيط بين الله ورسله ويسمّى بروح القدس . والله العالم .

وكان مثل البشر المتكلفين علم الغيب مثل أعمى يزعم أنه قادرٌ على معرفة الألوان باللمس فيزعم أن الشيء الناعم أبيض ، وأن الشيء الخشن أسود ، وأن ما بينهما هو ألوان مختلفة حسب درجة ملامستها أو خشونتها . ومشكلة هذا الأعمى حقيقة تكلّف علمٍ لا يملك أدواته . وكذلك مشكلة البشر في الحقائق ما فوق المادية أنه يريد أن يتعرف عليها بوسائله المحدودة مع أن هذه الوسائل قد هيّئت له لمعرفة الحقائق المشهودة . .

---

(١) الإسراء / ٨٥ .

ويكفيه في الأمور الغيبية أن يعرف منها ما أوتي علمه عبر آياتها المنعكسة على عالم الشهود . مثلاً يكفينا في معرفة الله آياته المنتشرة في حقائق الوجود ولا يجوز لنا ان نتساءل : كيف ، ولِمَ ، وبِمَ وسائر الأسئلة التي تتّصل بذاته سبحانه فأنّى لنا معرفة ذلك ونحن لم نبلغ واحداً من مليار جزء من معرفة حقائق الوجود المشهودة .

وهكذا وقع الفلاسفة في ضلالٍ عظيم حيث زعموا أن العقل هو تلك الأحكام المسبقة الضرورية والبديهية كقانون العلية وقانون امتناع التناقض ، وما أشبه . وهذه البديهيات ليست سوى حقائق يكشفها العقل كما يكشف غيرها من الحقائق الكثيرة ، بل لو لم يكُن العقل مع الإنسان في كل خطوة من خطواته ، وكل مرحلة من مراحل حياته ، لكانت الدنيا عليه مظلمة ولما عرف شيئاً ..

ولأنّ سبيلهم كان خاطئاً منذ البداية فإنهم ضلّوا في النتائج ضلالاً بعيداً.. فتراهم في موضوع معرفة الله حاولوا التعرّف على ذاته بالتوهُّمات ، فانتهى بعضهم الى وحدة الوجود ، وأثبت تطوُّراً ذاتيّاً له سبحانه ، وتاه بعضهم في هذا المجال حتى زعم أن كل شيء هو الله ، وقال : ليس في جُبّتي سوى الله . وزعم أن الله يتجلّى في الصنم كما يتجلّى في الصمد ...

وفي معرفة أسمائه سبحانه : زعموا قِدَمَ الإرادة وأزليتها ، مما أَلْزَمَهُمُ الجبر في الأفعال ، ولم يستطيعوا عنه فكاكاً .

وفي معرفة سائر أسمائه قاسوا ربهم بخلقه ، فشبهوه ، وتوهّموه ، ولم يعبدوا ربهم الحق ، وإنّما عبدوا ما تصوّروه ..

وربما جرَّدوه عن أسمائه لأنّهم لم يعرفوا كيف هي ، وما هي علاقتها به سبحانه ، حتى أن بعضهم نفى علمه بالجزئيات وفي الوحي والمعاجز ويوم البعث كانت لهم تكلُّفات بعيدة عن ضروريات العقل والدين . كل ذلك لأنهم زعموا أنهم قادرون على الإحاطة علماً بكل شيء من خلال معارفهم المحدودة .

وكثرة أخطائهم وتناقضاتهم واختلافاتهم أفقدتنا الثقة بمناهجهم ، ولمّا فتّشنا عن جذر الخطأ رأيناه متمثّلاً في نظرياتهم في العقل والعلم ، وفي خلطهم العقل بالمعقول ، والعلم بالمعلوم .

بين العلم والقطع

وللفرق الواسع بين العلم كنورٍ إلهي وبين القطع كحالةٍ نفسية ، فإن أساس المنهج الاسلامي يختلف عن المنهج الفلسفي في استنباط الأحكام فالعلم والعقل حيث ذاتهما طرد الريب ، وبعث السكينة في الفؤاد ، ولا يمكن التشكيك فيهما لَمَنْ أوتي منهما شيئاً ، بينما القطع حيث ذاته الجهل بالخلاف ، فلأنه لا نعرف غير هذا الحل فلا جرم من القبول به ، فحيث ذاته ليس الكشف ، وهو يحتمل الردع عنه بطريقةٍ أو بأخرى .

وبتعبير آخر : القطع حالة نفسية ، والعلم يورث الحالة النفسية « السكينة والطمأنينة والثقة » . ولكن ليس كل حالة نفسية هي نتيجة العلم ، فقد تأتي هذه الحالة بسبب شذوذٍ في النفس كالعجلة في الحكم ، أو اتباع الهوى ، وطبع الله على القلب ، والجهل بالاحتمالات الممكنة الأخرى وما أشبه . فلأن هذه الحالة النفسية لا تعكس دائماً العلم بالحقائق فلا يجوز جعلها مقياساً للحقيقة . بل لا بدّ أن نبحث عن مقياسٍ آخر . والمقياس الآخر هو معرفة العقل وخصائصه ، والعلم وميزاته ، وكشفهما كشفاً ذاتيّاً ، وتمييزهما عما يتشابه معهما من الحالات النفسية ، أو وساوس الشيطان ، وإلقاءاته . فآنئذٍ فقط نحظى بمقياسٍ دقيق لمعرفة الحقائق . وليس هذا سهلاً ، بل إنه أصعب شيء منالاً . ولا يكون ذلك بصورة كاملة إلا بتأييد الله سبحانه ، ومَنْ لم يجعل الله له نوراً فما له من نورٍ[1] .

يقول في هذا الأمر العلامة الميرزا الأصفهاني : اليقين الحاصل من منشأ عقلاني حجة بالفطرة العقلانية ، وطريقته العقلائية عبارة عن رؤية المتيقن واقعاً والجزم به . وحيث أنه حجة عقلائية ليس للإنسان الاكتفاء به ، بل يجب عليه طلب العلم ، ولا يعذر ـ بعد الالتفات اليه ـ .

ثم إن اليقين ـ كما أشرنا ـ إنما يكون حجةً عقلاً إذا حصل عن منشأ عقلائي تقتضي اليقين ، لا كقطع القطاع « وقطع الشخص » الوسواس ، فإن هذا ليست بحجة الفطرة .

وحيث أن حجية اليقين العقلائي ليست ذاتيةً ـ كما عرفت ـ فلا بد من كَشف حجيته

(١) نتحدث ان شاء الله بتفصيل عن كيفية تمييز العقل عن الجهل .

شرعاً وتعبّداً ـ فنقول : الظاهر عدم حجيته في الأصول والفروع اذا لم يكن عن الكتاب والسنة.. ثمّ استدل على عدم حجيته بالنهي عن القياس في الدين وأضاف « الظاهر من هذه الأدلّة » هو الردع عن حجية اليقين الحاصل منها[1] .

---

(١) كتاب المعاربص ـ تقريرات درس الميرزا الاصفهاني مخطوط (توجد نسخة منه في المكتبة الرضوية بمشهد الرضا ـ عليه السلام ـ) / ص ١٩ وقد تحدثنا مطولا حول هذا الموضوع في فصل آخر .



الفصل الثاني :

العقل يهدي الى الشرع



دور العقل في حقائق الوحي

حديثنا السابق بيّن دور الوحي في بلورة العقل البشري - فهل ياترى - للعقل دور في حقائق الوحي وقضاياه ؟ بلى ، وهو دور اساسي ايضاً ، فبدونه تبقى فائدة الوحي محدودة .. وصفوة القول في ذلك .. أن للعقل ثلاثَ مهام فيها يتّصل بالوحي :

١ - تصديق الوحي .

٢ - فقه شرائعه

٣ - معرفة مصاديقه .

وها نحن نفصّل القول في المهمتين ألاوليتين اما المهمة الثالثة فسوف نتحدث عنها في مناسبة اخرى .

١ / تصديق الوحي

يتسّلل الانسان ليلاً من وثير فراشه ، فيلقي نظرة على النجوم التي تحدثه بآيات الجمال والجلال كم ألف ألف مجرة في هذه السماء ، وفي كلّ مجرة كم الف ألف نجمة هي أكبر من شمسنا وأبهر نوراً .. ويسأل نفسه : كم هي ياترى المسافة التي قطعها الشعاع الذي يلامس بصري منذ انبعث من هذه النجمة ؟ كم ألف ألف عام قضته هذه الومضة من النور حتى بلغ ناظري . يقال إن بعض الومضات قد قطعت اربعين مليون عام قبل أن يصل بصيصٌ منها إلينا .

ألا ترى بعض النجوم خافتة الضوء باهتة اللون ؟ أيّ قدرة تدبّر ملكوت هذا الوجود

العظيم الذي خلقها ونظمها وأودع فيها ما يصلحها ؟ .

مَنْ أنا ؟ ما هو دوري ؟ ولماذا خُلقت ؟ وهل الرب الذي تتجلى حكمته في تنظيم خلايا بناني بذات الدقة التي تتجلى في تنظيم تجمعات المجرات العملاقة ..هل الحكيم خلقني عبثاً ..؟ كلا..

هنالك يهتزّ القلب لحقيقة المسؤولية ، ويبصر ـ بنور العقل ـ أبعادها وآفاقها . .ويقول بلا ريب ولا تردّد :

سبحانك اللّهم ..أعِنّي على نفسي.. إهدني سبيلي وعرّفني الهدف الذي خلقتني له ، ووفقني لأداء أمانتك عندي ، وَقِني عذاب النار .

كانت تلك رحلة العاقل من عمق صحراء الشك الى ذروة حقيقة الايمان وعنها يقول ربّنا سبحانه : ﴿ **إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأُولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكّرون في خلق السموات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ، ربّنا إنك من تُدخلِ النّار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصارٍ** ﴾[1] .

وتموُّج المعارف في ذلك القلب المغمور بنور العقل كما تتموّج المحيطات عند أعتى الأعاصير .

هنالك يعرف العقل حقيقة الرسالة التي هي تجلّيات الحكمة الإلهية في ضمير الإنسان .. يعرف أن تلك القيم التي يدركها عقله ، ويدرك أنها تتصل بضمير الكائنات ، وبغيب الحياة ، وبروح الخلائق ، إنها تفيض من غيب الربوبية ، ومن وراء حجب ملكوته الأعلى . .

إنَّ التطابق والتكامل اللذين يجدهما القلب الواعي بين القيم العقلية التي يجدها في داخله ويشهد صدقها ، ويرى حقائقها بلا حجاب ولا ارتياب ، أقول : إن التطابق والتكامل بينهما وبين الحقائق التي تَبشّر بها الرسالات ، لأهمُّ دليلٍ وجدانيّ على صدقها وصدق المبشّرين بها ، والحاملين لها والمخلصين في الدعوة اليها .

إنَّ الحقائق الكبرى واحدةٌ ، يتّصل بعض أبعادها ببعضٍ كما تتّصل أشعة الشمس

---

(١) آل عمران / ١٩٠ ـ ١٩٢ .

ببعضها ، فالإيمان بالله يتجلّى للقلب الذي ينفذُ الى روح الكائنات ، وضميرها المتمثّل في الحكمة البالغة والتدبير المهيمن على كل شيء . ومن الإيمان بالله الحكيم ، ينبعث الإيمان بالجزاء وباليوم الآخر ، ومنهما يفيض الإيمان بالرسالة وبالرسول .

وهذا الدور المعترف به لدى كل المؤمنين بالرسالة هو الأساس ، وقد استشهدت به الآيات القرآنية ، حيث أمرت بالتفكّر والتذكّر .

فبالتفكّر في الايات نعرف ربّنا العزيز ، فقال سبحانه : ﴿ **إنّ في خلق السماوات والأرض واختلافِ الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب** ﴾[1].

وبالتفكُّر نعرف الرسالة والرسول :

﴿ **أم لم يعرفوا رسولَهم فهم له منكرون** ﴾[2].

وقال سبحانه : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾[3].

ومن التفكُّر في الآيات الإلهية في الخليقة وفي آيات الله المنزلة في كتابه ، يهتدي العاقل الى أصول الشرائع الإلهية ، لأن عدلُ الله يتجلّى في قيمة العدل في شرائعه ، ولأن حكمته في ابتلاء الخلق تتجلى في قيمة الحرية ، ولأن رحمته الواسعة تتجلّى في قيمة الأمن والرفاه في أحكامه . وهكذا يتحقّق دور العقل في فقه الشرائع .

٢/ فقه الاحكام

بالتفقُّه في الدين والتدبُّر في آيات الكتاب ، يعرف العقل البشري الأصول العامة للشرائع الإلهية ومن خلالها يتدرَّج نحو معرفة سائر الأحكام .

إنك حين تتدبَّر في آيات الكتاب لا تجد حكماً شرعيّاً إلا وقد بيّنت حكمته التي يسوقها القرآن الكريم عبر مثلٍ أو قصّةٍ أو أمثولة . وتتكرّر معها عادةً كلمات : من أجل ذلك ، أو كذلك . أو لكي لا ، أو لا يريد الله ، أو ما أشبه .

القرآن الحكيم ، كتاب حكمة كما هو كتاب شريعة ، بل قبل أن يكون كتاب شريعة . وقد قال سبحانه : ﴿ **ذلك ممّا أوحى إليك ربّك من الحكمة** ﴾[4].

---

(١) آل عمران / ١٩٠ .

(٢) المؤمنون / ٦٩ .

(٣) النساء / ٨٢ .

(٤) الانعام / ٣٩ .

وقد سمّى ربُّنا كتابه الكريم بأنه تذكرة وتبصرة ونور وهدى وضياء وشفاء وما إلى ذلك مما يتناسب وحكمة الشرائع وتفقه روحها وبلوغ مرامها وقيمها وحين نتلو سورة الأنعام التي تفيض على أفئدة المؤمنين نور التوحيد ، وتطّهرها من دنس الشرك بكل ألوانه وأبعاده[1] نجد كيف يبيّن ربّنا لنا أحكام الدين التي هي - في الأصل - ثمارُ شجرة التوحيد المباركة ، وهي - في الخاتمة - معارج للعقل والتقوى واليقين .. فالحكم الذي لا ينبعث من التوحيد نبتةٌ مجتثة لا تلبث أن تهيج وتصفّر ، والحكم الذي لا يتّخذ معراجاً نحو العقل والتقوى واليقين ، قشرةٌ خاوية لا لبٌّ فيها ولا فائدة .

فانظر كيف تشرح سورة الأنعام أولاً : قُبح التكذيب بآيات الله لأنه أصل فساد القلب ، وسبب ضلال النفس ، ويمدح المؤمنين الذين يعرفون الكتاب كما يعرفون أبناءهم ويقول :

﴿ الذين آتيناهُمُ الكتابَ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾[2].

وكأن الكتابَ ابنُ عقلِ الإنسان ، والتكذيب به خسارةٌ للنفس ، فما قيمة نفس لا عقل فيها ؟ .

وبعد بيان الصلة بين الشرك والكذب ، يبيّن ربّنا ما به شفاء صدر الانسان الواعي من درن الشرك والكذب .

ثم حين يبيّن قيمة الأمن المنبعثة من قيمة التوحيد ، يستعرض في البدء قصة إبراهيم - عليه السلام - حين سلك بقومه سبيل الإيمان بالله عبر النظر في ملكوت ربه والإعجاب بالكوكب وبالقمر وبالشمس ثم الكفر بها جميعاً ، والتوجّه الى الذي فطر السموات والأرض ثم قال ربّنا سبحانه :

﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأيّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾[3] ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسُوا إيمانهم بظلمٍ

---

(١) في بحث مفصل سوف نستعرض بإذن الله القيم الاساسية للوحي ، وشرائعه ولايسعنا هنا الا الالمام بذلك تبعاً للسياق .

(٢) الانعام / ٢٠ .

(٣) الانعام / ٨١ - ٨٢ .

أولئك لَهُمُ الأمن وهم مهتدون ﴾[١].

وعندما يكرس قيمة التوحيد في النظام السياسي ينوّه بعباده الصالحين الذي فضّلهم على العالمين ثم يقول : **﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ، قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلاّ ذكرى للعالمين ﴾**[٢] .

وعندما يذكرنا بأصل الإباحة ، ويبعث العباد الى الانتفاع بما في الأرض إلا ما تُلي عليهم من المحرمات ، يبيِّن ذلك بالمنهج التالي :

﴿ فكُلُوا ممّا ذُكر إسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾[٣] .

هكذا يأمر بالأكل ويجعل ذلك من ثمرات الإيمان ويقول : **﴿ وما لكم ألا تأكلوا مما ذُكر اسمُ الله عليه وقد فصَّل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ، وإنّ كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علمٍ إنَّ ربّك هو أعلمُ بالمعتدين ﴾**[٤] .

أرأيت كيف يفصِّل القول في جوانب القضية حتى يحصل لنا نورٌ وهدىً ننفذ بهما في عمق الموضوع ، فنعرف ـ مثلاً ـ أن حالة التقشف والتصوف حالة غير إلهية وهي ضلالة جاهلية يسببها اتباع الهوى بل هي حالة عدوانية معنفة .

ويبيِّن ربّنا دور المجرمين الذين يمكرون في الأرض ، والسبب في تسلُّطهم على الناس ، ونَشرهم للفساد والجريمة ، وضرورة مقاومتهم حتى ينعم الناس بدار السلام فيقول سبحانه : **﴿ وكذلك جَعَلنا في كلّ قرية أكابرَ مجرميها ليَمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ﴾**[٥] .

ثم يقول : **﴿ وهذا صراط ربِّك مستقيماً قد فصَّلنا الآيات لقومٍ يذكرون لهم دار السلام عند ربّهم وهو وليُّهم بما كانوا يعملون ﴾**[٦] .

ويختم حديثه ببيان الحكمة البالغة في تولِّي الظالمين السلطة ويقول :

---

(١) الانعام / ٨١ - ٨٢ .

(٢) الانعام / ٩٠ .

(٣) الانعام / ١١٨ .

(٤) الانعام / ١١٩ .

(٥) الانعام / ١٢٣ .

(٦) الانعام / ١٢٦ - ١٢٧ .

﴿ وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾[1] .

هكذا يفصّل القول في أطراف القضية حتى نعرف كل ما يتصل بها من حقائق ومن ثم نستوحي منها ما يمكن من أحكام فرعية ..

وفي القضية الاقتصادية « المعاشية » وبيان خط الاعتدال بين الإسراف والتقتير يصرف السياق القرآني الانظار الى نِعَم الله ليعرفوا بأنفسهم الحكمة منها فيقول سبحانه : ﴿ وهو الذي أنشأ جناتٍ معروشاتٍ وغير معروشاتٍ والنخلَ والزرعَ مختلفاً أُكله والزيتونَ والرمانَ متشابهاً وغيرَ متشابهٍ كُلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقّه يوم حَصَادِهِ ولا تُسرفوا إنّه لا يحبُّ المُسرفين ﴾[2] .

فمن دون معرفة الله الذي أسبغ علينا هذه النعم والإيمان بحكمته كيف نستطيع أن نعرف الحكمة منها ؟ ومن دون معرفة الحكمة منها أنّى لنا التعرف على أحكامها ؟ فإذا كانت الحكمة من النعم الانتفاع بها فإنَّ الإسراف فيها ـ كما تحريمها ـ على النفس ظلم فاحش .

كما أن الاستفادة منها في التسلُّط على الناس أو الاعتداء عليهم أو حرمانهم عنها إنّ كل ذلك مخالفة فاحشة لحكمة وجودها . يقول ربنا سبحانه : ﴿ ومن الأنعام حمولةً وفرشاً كُلُوا مما رزقكُمُ الله ولا تَتَّبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدو مبين ﴾[3] .

وبعد بيان ظلم الذين يحرمون على أنفسهم نعم الله التي أخرجها لعباده، يقول سبحانه : ﴿ قل لا أجدُ في ما أُوحي إليَّ محرَّماً على طاعمٍ يطعَمُه إلاّ أنْ يكونَ مَيْتةً أو دماً مسفوحاً او لحم خنزيرٍ فإنّه رجسٌ أو فسقاً أُهِلَّ لغيرِ الله به فمن اضطرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فإنَّ ربَّك غفورٌ رحيمٌ ﴾[4] .

ويعود ويذّم أولئك الذين يحرِّمون ما أحلَّ الله ويقول : ﴿ قُلْ هلمَّ شهداءكم الَّذين يشهدون أن الله حرَّم هذا فإنْ شَهِدُوا فلا تشهَدْ معهم ولا تَتَّبِعْ أهواء الَّذين كذَّبوا بآياتنا والَّذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربِّهم يعدِلُون ﴾[5] .

---

(١) الانعام / ١٢٩ .
(٢) الانعام / ١٤١ .
(٣) الانعام / ١٤٢ .
(٤) الانعام / ١٤٥ .
(٥) الانعام / ١٥٠ .

وبعد ذلك يبيّن بوضوحٍ قائمةَ المحرَّمات الأساسية التي تحدِّد حرِّية الإنسان ، لكي يقطع السبيل على كل جبّار يصادر حريات البشر باسم الدين ، وعلى كلّ شيطان جاهلي معقّد يوزّع على الناس فتاوى التحريم والتكفير ، فيقول سبحانه : **﴿ قل تعالَوْا أتلُ ما حرَّم ربّكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم ولا تقرَبُوا الفواحشِ ما ظهر منها وما بطن . ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحقّ ذلكم وصَّاكم به لعلَّكُم تعقِلُون ، ولا تقرَبُوا مالَ اليتيم إلاَّ بالتي هي أحسنُ حتى يبلغ أشدَّه وأوفُوا الكيلَ والميزان بالقسط لا نكلِّف نفساً إلا وُسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهدِ الله أوْفُوا ذلكم وصَّاكم به لعلَّكُم تذكَّرون ﴾**(1) .

فالتعقُّل والتذكُّر هما هدف وصايا الله ، اذ بهذه الوصايا ينمو عقل الانسان ، وتتموج معارفه الفطرية .. أليس هذه الوصايا تطابق ما في ضمير كل واحدٍ من البشر من الركائز الوجدانية ؟

هكذا نجد آيات سورة الانعام تغني العقل بالحكم التي تذكر بها ، فإذا كان الإنسان في مستوى تلقِّي هذه الحكم ، وتنمية مواهبه الفطرية بها ، حتى تصبح تلك الحكم واضحةً عنده يعرفها كما يعرف المرء ابنه ، عندئذ يستطيع أن يستفيد أمرين :

استنباط الفروع من الاصول

أولاً : الرجوع الى القيم لمعرفة الحكم الأولى والأهم والتزاحم وهو ما نتحدث عنه في مناسبة اخرى انشاء الله .

ثانيا : فمن عرف حِكَمَ الأمن والحرية والعدالة والانصاف ، عرف الأحكام الفرعية التي تحقِّق هذه الحكم ، فإذا أضرّ عملٌ بأمن الناس ، أو سَلَبَهُمْ حريتهم أو كان فيه ظلمٌ ظاهرٌ أو خفيّ فإنه يصبح حراماً كما أنه لو توقف تحقيق هذه الحِكم على عمل معين أضحى واجباً .

وبالرغم من أن الشريعة قد أوضحت الأحكام الفرعية التي تحقِّق هذه الحكم

---

(1) الانعام / ١٥١ - ١٥٢ .

بصورةٍ كافيةٍ إلا أن تلك الأحكام الفرعية تتّصل بالثوابت ، بينما الحوادث المتغّيرة والتي هي من حيث المجموع ـ أكثر من الثوابت لا تزال بحاجة ماسة الى الاستنباط لمعرفة احكام تلك المتغيرات من لكم .

وفيما يلي نضرب طائفة من الامثلة لتوضيح ذلك :

الف : حينما أمرنا الله سبحانه بالطهارة بين حكمتها وقال سبحانه :

(يا أيها الذين آمنوا إذا قُمتم الى الصلاة فَاغْسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وَآمْسَحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعَبْين ، وإنْ كنتم جنباً فاطهروا وإنْ كنتم مرضى أو على سفرٍ أو جاءَ أحدٌ منكم من الغائطِ أو لامَسْـتُمُ النساء فلم تجدوا ماًء فتيمَّـمُوا صعيداً طيباً ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرجٍ ولكنْ يريد ليطهّركم وليتّم نعمتَه عليكم لعلّكم تشكرون)[1] .

فالحكمة من هذه الواجبات طهارة الانسان التي هي وسيلة لإتمام النعمة . وبالتالي لشكر المؤمن . وبما أن إتمام النعمة الإلهية تتمثّل في قُربه من الله تعالى وبما أنَّ الإنسان الطاهر يكون أقرب الى الله وجبت الطهارة قبل العبادة .

من هذه الحكمة نعرف أنّ كل قذرٍ ووسخٍ مكروهٌ عند ربنا ، ويبعد الإنسان من ربه ، فلا بدّ من تجنبه . وأنّ كلّ طهارةٍ محبوبةٌ،كطهارةِ البدن والثوب والبيت والشارع والهواء . وكما ان الجسد القذر لا يناسب العبادة ، كذلك الثوب القذر والمحل القذر والهواء الملوّث بالدخان والغبار والغازات المضّرة لا يناسب الانسان المسلم والمجتمع المسلم .

وهكذا جاء استنباط حكم تلوث البيئة من هذه الآية ، ومن آياتٍ مشابهة ولكنه بحاجة الى قلبٍ واعٍ ينفذ الى حكمة الواجب الشرعي ، ويستلهم منها الأحكام الفرعية .

باء : يأمرنا الله سبحانه بالصلاة ويبيّن حكمتها فيقول سبحانه : **﴿ فاذا قضيتُمُ الصلاة فَاذْكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنُوُبكم فاذا اطمأننْتُمْ فأقيموا الصلاة إنّ الصلاة**

(١) المائدة /٦

كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾[1] .

وجاءت هذه الآية الكريمة في سياق أمر الله بصلاة الخوف .

وقال سبحانه :﴿ وأَقِمِ الصَّلاة لِذِكْرِي ﴾[2] .

فالصلاة إذاً شُرِّعت لذكر الله ، وذكرُ الله واجبٌ على كل حال قياماً وقعوداً وعلى الجنوب.. وفي الحرب والسلم ، وهي ـ كذلك ـ كتاب موقوت ، فهي على ذلك لا تترك بحال .

فإذا كان الإنسان في الطائرة أو في قطار مزدحم ، أو على سرير المستشفى أو في أي حالٍ يجب ألا يترك الصلاة بأية طريقة يقدر عليها .

واذا كان مع الوضوء أو التيمم ، أو بدونهما فلا ينبغي أن يترك صلاته . وهكذا نستنبط من هذه الحكمة المذكورة في الكتاب حكم فاقد الطهورين « الطهارة المائية والترابية » فإنه لا يجوز له ترك الصلاة رأساً .

جيم : في سورة الحشر عندما يبيِّن ربّنا سبحانه حكم الغنائم الحربية ذكرنا بأصلٍ مهم في الحياة الاقتصادية وقال سبحانه :﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دُولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخُذُوه وما نهاكُمْ عنه فانتهوا واتَّقُوا الله إن الله شديدُ العقاب ﴾[3] .

فاذا كانَ وَضْعٌ اقتصادي معين يسبب تداول الثروة بين الأغنياء فقط وحرمان الطبقات المستضعفة من خيرات الثروة ، فإن ذلك أمر شاذ عن تعاليم الدين ويجب تعديله . .

وكذلك حينما بيَّن ربّنا سبحانه حكم السفهاء وقال :﴿ ولا تؤتوا السُّفَهَاء أموالكم التي جعل الله لكمُ قياماً وَارزقوهم فيها واكسُوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾[4] .

هكذا بيَّن حكمة المال وأنه قيامٌ للناس ، فإذا أضرَّ تصرُّفٌ معّين بهذه الحكمة المالية

---

(١) النساء / ١٠٣ .

(٢) طه / ١٤ .

(٣) الحشر / ٧ .

(٤) النساء / ٥ .

فإنه يصبح لاغياً .

فمن كنز الذهب والفضة ، أو كرّس أمواله في البنوك الأجنبية ، وترك شعبه بحاجة الى الثروة لتدوير اقتصاده ، فإن عمله مخالف لحكمة المال .

دال : وعندما بيّن لنا الدين حكم العقود جعل ذلك بصفةٍ مطلقة وقال سبحانه : **﴿ ياأيها الذين آمنُوا أوفُوا بالعقودِ أحلَّت لكم بهيمةُ الأنعام إلاّ ما يُتلى عليكم غير محلّي الصيد وأنتم حُرُمٌ إن الله يحكم ما يريد ﴾**[1] ولأن كلمة العقود هنا عامة تشمل كلّ تداول وتبادل ، فإن كلّ عقدٍ عرفيّ مشروعٌ شريطة ألاّ يتعارض والأحكام الشرعية كالمصالح المحرَّمة مثل بيع الخمر ، وهكذا العقود الفردية والضررية وما أشبه .

وقد قال سبحانه : **﴿ إلا أنْ تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألاّ تكتبوها ﴾**[2] .

وقال سبحانه : **﴿ ياأيّها الذين آمنُوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾**[3] .

بمثل هذه الآيات نعرف الحكمة العامة في فقه الاقتصاد ، ومنها نستنبط الحكم الفرعي المناسب لكل عقد مستحدث .

بين الاستنباط والقياس

وليس هذا الاستنباط من نوع القياس الذي يرفضه مذهب أهل البيت ـ عليهم السلام ـ والسبب هو :

أولاً : أن القياس منهجٌ يختلف جذرياً مع المنهج القرآني وقد ناقشنا ذلك في مناسبةٍ سبقت .

ثانياً : أن القياس ـ في المصطلح ـ التعرُّف على حكم النظير من خلال علّة مظنونة في نظيره ، بينما هنا نحن نريد استنباط حكم الفرع من الأصل . وعلى هذا فإن أساس البصيرة القرآنية التي عرفناها بفضل أحاديث أهل البيت ـ عليهم السلام ـ هو السعي

(١) المائدة / ١ .
(٢) البقرة / ٢٨٢ .
(٣) النساء / ٢٩ .

لفهم الحكم العامة في الشريعة عبر التدبُّر في آيات الذكر . والسلوك عبر المنهج الإلهي الذي بشّر به الدين وسبق الحديث عنه . وإذا تبصَّرنا الحكم هذه جيداً ، وعرفناها يقيناً فإننا نستنبط منها حكم المسألة الفرعية بلا تردّد ، ويكون علمنا به علماً يقينياً أو لا أقل تطمئن نفوسنا إليه مما يكفينا حجة شرعية ، كما سوف نتحدث عنه في مناسبة أخرى إن شاء الله .

وهكذا يرى هذا المنهج أنه لا يجوز الأخذ بالحكمة المظنونة ، ولكن يوصينا بضرورة البحث الجدي لمعرفة حكمة كل حكم شرعي من خلال التدبّر في النصوص « الآيات والروايات » فنحن ندعو الى الحصول على العلم بالحكمة الآلهية الموجودة في كل حكم شرعي . ولا ندعو الى العمل بالحكم المستنبطة بالقياس الظني . والفرق بينهما هو الفرق بين العمل بالاستنباط العلمي وبين العمل بالقياس الظني والله الموفق..



الفصل الثالث :

الشرع يكمل العقل

تمهيد

أليس أصل الإنسان عقله ، أوَلَسْنَا نهتدي الى آيات ربنا بنور العقل ، ونعرف رسله ورسالاته به ، فلماذا الوحي ؟ وما هي ضرورته ؟ .

لقد أودع الله في البشرِ نور العقل ولكنَّ الإنسان غفل عنه وخاض في غمرات الشهوة والغضب ، وضلّ عن ربِّه ضلالاً بعيداً .

لذلك لم يؤدِّ الى ربّه ميثاقه ، ولم ينتفع بفطرته التي فطره الله عليها ، ولم يهتد بضياء عقله في دروب الحياة الحالكة.. ألست ترى في العالم هذا الظلم الفاحش والجهل المطبق والضلال المبين ؟ مَنْ منّا لا يعترف أنّ نسبة الجهل والجهالة والضلال والغواية في البشرية تفوق بل تجتاح نسبة العلم والحكمة .

أن جذر ضلال الانسان وغوايته ، يكون بثلاثة عوامل :

١ ـ غفلته عن عقله ، أو سبات عقله ، وعلاجُه إيقاظُ العقل .

٢ ـ غلبة الهوى واتباعه ، وعلاجُه تنمية الإرادة .

٣ ـ الضلال عن سبُلُ الانتفاع بالعقل ، وعلاجُهُ التذكرةُ بالمناهج القويمة للتفكر .

وفيما يلي نتحدث بإجمالٍ عن كل واحدٍ من العاملين الأوَّلين ، ونؤخر الحديث عن العامل الثالث الى فصل شروط الاستنباط إن شاء الله .

إيقاظ العقل

العقل نور ولكنّ الانسان يغفل عنه ، ويضل بعيداً في ظلمات جهله ، ويغطّ في سبات عميق !

ويبعث الله أنبياءه الكرام ليثيروا للناس دفائن العقول ، ويوقظوهم من سباتهم .

إنهم في ظلمات الجهل ، ويخرجهم الأنبياء الى نور العقل .

﴿ الله وليُّ الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات الى النور ﴾[1] .

﴿ كتابٌ أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور ﴾[2] .

﴿ أن أخرج قومك من الظلمات الى النور ﴾[3] .

وهذا هو دور التذكرة الأساسي الذي يقول عنه الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في سياق حديثه عن هدف انبعاث الرسل عليهم السلام ليستأدوهم ميثاق فطرته وليذكروهم منسي نعمته ويثيروا لهم دفائن العقول وقد أشارت آيات القرآن زهاء (٢٥٠) مرة الى هذا الدور العظيم ، دور التذكرة حتى سُمِّي القرآن ذكراً كما سُمِّي الرسول الأكرم بالذكر وقال ربنا سبحانه :

---

(١) البقرة / ٢٥٧ .

(٢) ابراهيم / ١ .

(٣) ابراهيم / ٥ .

(٤) نهج البلاغة / خطبة ١ ص ٤٣ .

﴿ وما تسألهم عليه من أجرٍ إنْ هو إلا ذكر للعالمين ﴾[1].

﴿ وإنه لذكرٌ لك ولقومك وسوف تسألون ﴾[2].

والآياتُ التي تبعث الإنسان نحو النظر والتفكر والتعقل والتدبر وما أشبه إضاءاتٌ في هذا السبيل وإذا استيقظ العقل من سباته ، واستثيرت دفائنه ، فإنّ صاحبه يتجنب نسبةً كبيرة من الأخطاء الجذرية ، والضلالات البعيدة ، ومن أجل أن نعرف ذلك دَعنا نبيِّن فكرةً أساسية :

الصور التي تنعكس على نفوسنا من الحقائق الخارجية ربما كانت مطابقة لها ، وربما كانت مخالفة ، فلا يمكن الاعتماد عليها ، والثقة بها .

والمشكلة الرئيسية التي ظلت تقلق البشرية دوماً هي البحث عن ضمانةٍ لمعرفة مدى تطابق ما نعتقد انه حقٌ مع ما هو حقٌ فعلاً ، وبتعبيرٍ آخر عن طريقةٍ لتجنُّب الخطأ .

ولا شكّ أن محاولات البشر لإصلاح « المنطق » قد نجحت جزئيّاً منذ انتشار الفكر السوفسطائي الجدلي . والمنطق الأرسطي الذي جاء ردّاً مناسباً له ، ثم التطورات المحدودة التي طرأت عليه وحتى المناهج الحديثة كالمنطق الرياضي والتجريبي .

إلا أنّ الريب لا يزال يحكم عقل البشر ، وذلك لأنه لم يفتش عن ذات العقل الذي يعتبر بمثابة المصباح ، إنما إكتفى بشعاعه وجعله بديلاً عنه . ولو عرف المصباح وجعل شعاعه دليلاً عليه لكفاه ذلك .

وهذا بالضبط هو النهج الإسلامي في المعرفة : اكتشاف المصباح بالمصباح ، وبما يشّع من ضياء وعدم الالحاد فيه بما يضاء من أشياء.أرأيت العلم بسائر الحقائق انما يكون بفضل النور فاذا عقل البشر هذه الحقيقة ان علمه بالبديهيات والتي هي أصل العلم بسائر الحقائق ، انما يكون بفضل النور الإلهي الذي نسميه عقلاً أو علماً ؛ عرف ان الغفلة عن هذا النور ضلال مبين ..

بلى ، إن معرفة النور الذي يضيء ما حوله ليست كمعرفة الأشياء التي تضاء بالنور ، أو تدري لماذا ؟ لأنّ النور يعرف بذاته ، وبما يكشفه من الحقائق ، فإذا أردت معرفته بغيره ضللت عنه ، وعرفت مجموعة أشياء مضاءة هي بدورهابذلك النورولم نعرف النور

(١) يوسف / ١٠٤ .
(٢) الزخرف / ٤٤ .

ذاته كما تورط الفلاسفة حين زعموا أن العقل هوالبديهيات أو ما يسمى اليوم بالأحكام المسبقة » أو هي الصور المنعكسة من الأشياء في صقع الذهن البشري . ولم يسألوا أنفسهم كيف يتّم علمنا بهذه البديهيات أوبتلك الصور.

ولأن الصور قد تكون حقائق وقد تكون افرازات لحالات نفسية أو عصبية او ما أشبه والتي نسميها (الاوهام) فقد وقعوا في إشكالية كبيرة لم تنفعهم محاولاتهم العديدة للخروج منها ، تلك الاشكالية هي ما الفرق بين الصور المنبعثة من الحقائق الخارجية وتلك الصور المختلقة من الحالات النفسية ودون ان يكون لها اي رصيد من الخارج ؟

واعظم ما في بحوثنا هذه اكتشاف وسيلة للتفريق بين الحقائق التي تنعكس علينا وبين « الأوهام التي تتزاحم عادة على أفئدتنا . وإذا كنا قد وعينا البصائر التي سبقت فإننا نبلغ هذا الهدف بسهولة » ونحل تلك الاشكالية. كيف ذلك ؟

بالطرق التي ذكّرنا بها الإسلام سوف نكتشف العقل .. ونزداد وعياً به.. وبأمتداداته.. وصفاته وصفات مَنْ يتحلّى به . وهنالك يكون من السهل معرفة أضداده من الجهل والهوى ..

وكما ذكَرنا حديث شريف عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ أنه قال : « اعرفوا العقل وجنده ، والجهل وجنده، تهتدوا »(١) يكون هدفنا الأسمى التعرّف على عقولنا بصورةٍ أفضل حتى لا يتشابه علينا شعاع العقل بظلام الجهل الذي يحيط به . وحسب تعبير أئمة الدين نميِّز بين العقل والنكراء التي هي شبيهة بالعقل ، فقد جاء في حديث شريف عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ يسأله الراوي ويقول له : ما العقل ؟ قال : ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان . قال « الراوي » قلت : فالذي كان في معاوية ؟ قال : تلك النكراء وتلك الشيطنة ، وهي شبيهة بالعقل وليست بعقل (٢)أقول : إذا ميّزنا العقل عن النكراء ، فهنالك نكون كمَنْ وجد المصباح فاستضاء بنوره في دياجير الظلام ! وهكذا كانت آيات الوحي وبصائر المفسرين لها لا تني تذكّرنا بالعقل .. وتحفز فينا الرغبة فيه وتحذرنا الجهل .وتنذرنا من مغبة اتباعه .

وهذه النصوص لا تنفع كل الناس ، إنما تنفع الذين يلقون السمع للشهادة فيسعون

---

(١) بحار الأنوار / ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) المصدر / ص ١١٦ .

جاهدين لمعرفة العقل ولا يحجبون أنفسهم بتصوّرات مسبقة عنه فيضلون عنه السبيل ! .

ويبدو أن نهج الوحي في معرفة العقل يتدرّج عبر المراحل التالية :

أولاً : التذكرة بالعقل . . وبأن الانسان عاقل ، وعليه أن ينتفع بعقله .. واستفاضت الآيات بهذه الكلمات : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ ، ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ ، ﴿ **ولكنهم لا يشعرون** ﴾ ، ﴿ **أفلا يتفكرون** ﴾ . وقال ربّنا سبحانه : ﴿ **وقالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير** ﴾[1] وقال سبحانه : ﴿ **أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قُل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكّر أولو الألباب** ﴾[2] .

وقال : ﴿ **قُل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور** ﴾[3] .

وروي عن النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ :

« لكل شيء آلة وعدة ، وآلةُ المؤمن وعدته العقل ، ولكلّ شيء مطيّة ومطيّةُ المرء العقل ، ولكلّ شيء غاية وغايةُ العبادة العقل ، ولكلّ قوم راعٍ ، وراعي العابدين العقل ، ولكلّ تاجرٍ بضاعة ، وبضاعةُ المجتهدين العقل ، ولكل خرابٍ عمارة ، وعمارةُ الآخرة العقل ، ولكلّ سفرٍ فسطاط يلجأون اليه ، وفسطاطُ المسلمين العقل »[4] .

وعن الإمام علي ـ عليه السلام ـ .

« فقدُ العقل فقد الحياة ، ولا يقاس إلا بالأموات »[5] .

ثانياً : بيان صفات العقل وآياته . أو بيان جنوده التي هي ـ في الواقع ـ إشعاعاته المختلفة ، كالعلم والحلم والصبر والشكر و... وبيان العقل .

فقد جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ « اعرفوا العقل

---

(١) الملك / ١٠ .
(٢) الزمر / ٩ .
(٣) الرعد / ٥٠ .
(٤) الحياة / ج ١ ص ٤٣ .
(٥) المصدر / ص ٤٤ .

وجنده ، والجهل وجنده تهتدوا ، وإنما يدرك الحق بمعرفة العقل وجنده»[1] .

وأضاف الإمام في حديث آخر : « وإنما يدرك الفوز بمعرفة العقل وجنوده ، ومجانبة الجهل وجنوده) .

وفي حديث ثالث عنه ـ عليه السلام ـ قال : « كان مما أعطي العقل من الخمسة والسبعين جنداً الخير وهو وزير العقل ، وجعل ضدّه الشر وهو وزير الجهل ، والإيمان وضدّه الكفر ، والتصديق وضدّه الجحود الى أخر الحديث »[2] .

ثالثاً : تعريف الجهل وجنوده . لأنّ الضدّ يعرف بضدّه[3] كما أن الظل يكون دليلاً على الشمس .

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ :

« الجهل صورة ركّبت في بني آدم ، إقبالها ظلمة ، وإدبارها نور ، والعبد متقلّب معها كتقلُّب الظلّ مع الشمس ثم قال : وأدنى صفة الجاهل دعواه العلم بلا استحقاقٍ وأوسطُه جهلُه بالجهل ، وأقصاه جحودُه العلمَ ، وليس شيء إثباته حقيقة نفيه الا الجهل والدنيا والحرص فالكل منهم كواحد والواحد منهم كالكل »[4] .

رابعاً : بيان صفات العاقل ممّا يجعل الإنسان الواعي يتذكر أنها فعلاً صفات حميدة . ويهتدي ـ بالتالي ـ الى ذلك النور المودع عنده والذي يكشف له حسن تلك الصفات .

وكذلك بيان صفات الجاهل لكي يتذكّر الانسان قبحها ويتذكّر ويتعرّف على ذلك النور الذي به يبصر قبح تلك الصفات ، وهو العقل ! .

فقد سئل الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فقيل له : صف لنا العاقل فقال : هو الذي يضع الشيء مواضعه . قيل له : فصف لنا الجاهل ؟ قال : قد فعلت[5] « يعني أنه الذي لا يضع الشيء مواضعه » .

---

(١) المنطق الاسلامي اصوله ومناهجه / ص ١٥١ .

(٢) المصدر وتجد فيه فصلان مفصلاً عن النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ حول جنود العقل وكذلك في كتاب بحار الانوار/ ج ١ كتاب العقل .

(٣) النصوص التي تفصل القول في العقل تبين ايضاً جنود الجهل بالتفصيل فراجع .

(٤) الحياة / ج ١ ص ٥٣ .

(٥) بحار الأنوار / ج١ ص ١٦٠ .

وعن النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ : « إنّ العاقل مَنْ أطاع الله وإنْ كان دميم المنظر ، حقير الخطر ، وإنّ الجاهل مَنْ عصى الله وإنْ كان جميل المنظر عظيم الخطر . أفضلُ الناسِ ، أعقلُ الناسِ »[١] .

وقال الإمام عليٌّ ـ عليه السلام ـ : « غَضَبُ الجاهل في قوله ، وغَضَبُ العاقل في فعله »[٢] .

« إعجاب المرء بنفسه دليلٌ على ضعف عقله »[٣] .

« مَنْ جانب هواه صَحّ عقله » .

وفي حديث مفصل يبينّ الرسول الأعظم ـ صلّى الله عليه وآله ـ صفات العقل ، وجنود الجهل ، وعلامات العاقل وعلامات الجاهل ، وقد شرحنا جانباً من الحديث في كتاب المنطق الاسلامي : أصوله ومناهجه .[٤] .

خامساً : التذكّر بخطورة إفرازات الهوى . . من شهوةٍ ، أو غضب ، أو صفة نفسية كالكبر ، والحقد ، والعصبية ، والحسد ، وما أشبه .

إنّ هذه الإفرازات هي ـ في الواقع ـ ظلال جنود الجهل ، وهي أعداء العقل قال الله سبحانه : ﴿ فإنْ لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومَنْ أضلُّ ممن اتبع هواه بغير هدىً من الله إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾[٥] .

وعن الإمام عليٌّ ـ عليه السلام ـ : « ينبغي للعاقل أن يحترس من سُكرِ المال ، وسكر القدرة ، وسكر العلم ، وسكر المدح ، وسكر الشباب ، فإنّ لكل ذلك رياحاً خبيثة تسلب العقل وتستخف الوقار »[٢٥] .

جاء في حديثٍ عن الإمام عليٌّ ـ عليه السلام ـ : « عدوّ العقل الهوى » وقال : « كم

---

(١) المصدر .
(٢) المصدر .
(٣) المصدر .
(٤) المصدر / ص ١٢٣ .
(٥) بحارالانوار ج ١ ص / ١١٦ و ص / ١٢٣ ـ المصدر / ص ١٥٠ ـ ١٦٠ .
(٦) القصص / ٥٠ .
(٧) الحياة / ج ١ ص ١٥٤ .

من عقل أسير عند هوى أمير» وقال: «الهوى شريك العمى»[1].

روي عنه ـ عليه السلام ـ: «الجهل في ثلاث: الكبر، وشدة المراء، والجهل بالله، فأولئك هم الخاسرون»[2].

وروي أن رسول الله مرّ بمجنونٍ فقال: ما له؟ فقيل له: إنه مجنون، فقال: بل هو مصاب، إنما المجنون من آثر الدنيا على الآخرة»[3].

وعن الإمام عليّ ـ عليه السلام ـ «مَنْ جانب هواه صحّ عقله»[4].

وقال: «مَنْ أُعجب برأيه ضلّ، ومَنِ استغنى بعقله زلّ، ومَنْ تكبّر على الناس ذلّ»[5].

وقال: «كفى بالمرء جهلاً أن يرضى عن نفسه»[6].

سادساً: التذكرة بدور إبليس وسبله في تضليل البشر من وساوسه وهمزاته وغروره وفتنته وكيف يلبس الحق بالباطل ويزّين للانسان أهواءه. وواضح أن الإنسان حينما يتقن معرفة الثغرات لا يقع فيها، وكثير من آيات الذكر تحذّر من خطوات الشيطان ومكره وكيده وغروره ووساوسه و... كذلك حينما يقص علينا ربّنا كيف هلك السابقون بضلالهم وكيف سوّلت لهم أنفسهم خطاياهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون.. فإنه يعلمنا كيف نتجنب مزالق الهاوية، ومداخل الضلال والانحراف..

قال الله سبحانه: ﴿ ينادونهم ألم نكن معكم قالوا: بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربّصتم وارتبتم، وغرّتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور ﴾[7].

وقال سبحانه: ﴿ وإمّا ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾[8].

---

(1) الحياة / ج ١ ص ٥٥.

(2) بحار الأنوار / ج ١ ص ١٣١.

(3) المصدر.

(4) المصدر / ص ١٦٠.

(5) المصدر.

(6) الحياة / ج ١ ـ ص ١٦٣.

(7) الحديد / ١٤.

(8) فصلت / ٣٦.

وعن النبي الأعظم ـ صلّى الله عليه وآله ـ أنه قال لرجلٍ يحذّره من أعدائه : « وأما أعداؤك من الجن ، فإبليس وجنوده ، فإذا أتاك فقال : مات ابنك فقل : انما خلق الأحياء ليموتوا ، وتدخل بضعة مني الجنة إنه ليسرني ، فإذا أتاك وقال : قد ذهب مالك ، فقل : الحمد لله الذي أعطى وأخذ ، وأذهب عني الزكاة فلا زكاة علي . وإذا أتاك وقال لك : الناس يظلمونك وأنت لا تظلم ، فقل : إنما السبيل يوم القيامة على الذين يظلمون الناس وما على المحسنين من سبيل ، واذا أتاك وقال لك : ما أكثر إحسانك يريد أن يدخلك العجب فقل : إساءتي أكثر من إحساني ، وإذا أتاك فقال لك : ما أكثر صلاتك فقل : غفلتي أكثر من صلاتي ، وإذا قال لك : كم تعطي الناس ؟ فقل : ما آخذ أكثر مما أعطي ، وأذا قال لك : ما أكثر من يظلمك ، فقل : من ظلمته أكثر ، وإذا أتاك فقال لك : كم تعمل ، فقل : طالما عصيت »(١) .

وكلمة أخيرة :

لو لم يخطىء الانسان في منهج معرفة العقل ، ولم يتبع سبل الضلال التي اتبعها الفلاسفة في تعريفه بالتصورات التي هي موهومات تحجبنا عنه ، وإنما اتبع منهج الوحي في معرفته بآياته ، بحيث تجعل الحقائق التي تضاء بنور العقل والعلم دليله اليه ولا يجعلها هي العقل . وهكذا يجعل الصفات التي يتحلى بها العاقل دليلاً على العقل ، ولا يزعم أنها بذاتها العقل .

أقول : لو لم يخطىء الانسان في المنهج فإنه يكتشف عقله بعقله ، ويزداد ثقةً به وبأحكامه ، ويؤتىٰ فرقاناً يميّز بين الوهم والوسوسة والظنّ والهوى والجهل و... وبين العلم والعقل والحكمة والرشد .(٢) .

---

(١) موسوعة بحار الأنوار / ج ١ ـ ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

(٢) هذه هي البصيرة التي بسطناها في كتابنا « المنطق الاسلامي اصوله ومناهجه » .

تزكية النفس

كما أن حبّ الدنيا رأس كل خطيئة ، فإنّ اتباع الهوى رأس كل خطأ وجذر كلّ ضلالة ، ولكي يتخلّص الانسان من مختلف الضلالات التي يقع فيها ، من حيث يشعر أو لا يشعر . . فلا بدّ من اجتناب الهوى .

إنّ الإنسان قد يقع في الضلالة بسبب سبات عقله ، وقد عالجنا أمره آنفاً ، وقد يقع في الضلالة لأتباعه الهوى ، وخورٍ في عزمه وإرادته ، وإذا كان في الحالة الاولى قاصراً في الأغلب فإنّه في الحالة الثانية مقصّر ومحاسب ومسؤول .

والحالة الأولى تعتري الإنسان في الموضوعات الجانبية ، بينما تعتريه الحالة الثانية في القضايا الحياتية أو الدينية الأساسية .

ونحن إذ نبحث هذه الحالة نفصّل القول أولاً في التذكرة بخطورة اتباع الهوى ودوره في غواية البشر ، وثانياً في بيان علاجه المتمثّل في تنمية الإرادة .

بين العلم والهوى

وقد جاء في كتابنا « المنطق الاسلامي » بعض التفصيل في هذا الموضوع ننقله بتصرّف :

« إنّ الهوى » يمنع العلم ، ومخالفة الهوى وسيلة لمعرفة الحق ، وإنّ البشر لا يترك الحق عادة إلا لأتباع الهوى ، ولكي تتوضحّ هذه الفكرة لا بد أن نتحدث عن معنى الهوى . والنصوص التي تحدثت عنه ، وعن الحالات التي يتبع الهوى فيها .

الهوى يعني : الحبّ ، وهوى النفس يعني : حب الذات ، وأهواء النفس هي : شهواتها ، وطبائعها ، وغرائزها وميولها الفطرية أو التربوية .

والعلم هو معرفة الحقّ ، والحقّ والشهوات قد يلتقيان كما إذا كانت المصلحة في اتباع الحق ، ولكنهما يفترقان كثيراً .

فليس كلّ إنسان يهوى الحق ، ويشتهي العمل به في كل وقت . إنّما كثيرٌ منا يهوى الباطل ، فإننا نشتهي الخلود في الدنيا وليس حقّاً ، إنّما الموت ـ الذي لا نحبّه ولا نشتهيه ـ هو الحق .

والإسلام اعتبر الحق منطلقاً والهوى منطلقاً ، وأراد للإنسان أن يتبع الحق ، وينبذ الهوى ، إذا كان الهوى يخالف الحق . كما اعتبر الإسلام الهوى سبباً لتكذيب الأنبياء﴿ **أفكلّما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفُسكم استكبرتم** ﴾[١] .

واتباع الظن ـ الذي لا يعدو أن يكون أهواء النفس ـ هو الذي أردى البشر فجعلهم كفاراً ومشركين .

﴿ **إنْ يتّبعون إلاّ الظنّ وما تهوى الأنفس** ﴾[٢] .

والعدل مثل الحق لا يمكن تطبيقه الإ بمخالفة الهوى « ولا تتبعوا الهوى ان تعدلوا » .

وحين بعث الله نبيّه داود وجعله خليفةً على الناس ، أمره بمخالفة الهوى ، لأنّها طريق العمل بالحق ﴿ **ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** ﴾[٣] .

ورسالة الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ بُنيت على الوحي لا الهوى ﴿ **وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى** ﴾[٤] .

ونهى الله عن الطاعة لمن يتبع هواه ، ولأنه يتبع الباطل ، ولأنّه قد غفل وابتعد عن عقله ﴿ **ولا تطع مَنْ أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فُرُطاً** ﴾[٤١] .

---

(١) البقرة / ٨٧ .
(٢) النجم / ٢٣ .
(٣) النساء / ١٣٥ .
(٤) ص / ٢٦ .
(٥) النجم / ٣ - ٤ .
(٦) الكهف / ٢٨ .

والذي يتبع هواه فإنما هو مشرك ، إذ أنّه يعبد هواه .

﴿ أرأيتَ مَنِ اتّخذ إلهه هواه أفانت تكون عليه وكيلاً ﴾[١] .

وأهواء الناس ضلالات يجب مجانبتها .

﴿ قل لا أتَّبع أهواءكم قد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدين ﴾[٢] .

والهوى يخالف العلم ، ولا يمكن أنْ يجمع الإنسان بين اتّباع الهوى واتّباع العلم﴿ وَلئِنْ اتَّبعتَ أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من وليٍّ ولا نصير ﴾[٣] .

﴿ ولا تتَّبع أهواءهم عمّا جاءك من الحق ﴾[٤] .

واتّباع الحقّ يُصلح الأرض ، أمّا اتّباع الهوى فإنه يفسد الأرض والسماء ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السمواتُ والأرض ومن فيهن ﴾[٥] .

والذين لم يستجيبوا للرسول ، فإنّما كان السبب اتّباع أهوائهم .

﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنّما يتَّبعون أهواءهم ﴾[٦] .

أما ضلالة أكثر الناس ، فإنّما هي بسبب اتّباع الهوى ، وعدم العلم ﴿ وإنّ كثيراً ليضلّون بأهوائهم بغير علمٍ ﴾[٧] .

وجاء في الحديث : أوحى الله لداود : « احذر وأنذر أصحابك من كل الشهوات ، فإنّ القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها محجوبة عنها »[٨] .

وجاء في رواية مأثورة : « إذا حيّرك أمرانِ أن لا تدري أيهما خير وأصوب ، فانظر

---

(١) الفرقان / ٤٣ .

(٢) الأنعام / ٥٦ .

(٣) البقرة / ١٢٠ .

(٤) المائدة / ٤٨ .

(٥) المؤمنون / ٧١ .

(٦) القصص / ٥٠ .

(٧) الأنعام / ١١٩ .

(٨) كلمة الله ص ١٩٩ .

أيّهما أقرب إلى هواك فخالفه ، فإنّ كثير الصواب في مخالفة هواك »[1] .

وجاء في حديث آخر : « أكثر الصواب في خلاف الهوى.. وإنّ الطمع مفتاح الذل واختلاف العقل ، والذهاب بالعلم »[2] .

شهوات الهوى

اتّباع الهوى إذاً يعني : اتّباع ما يحبّه الانسان ويشتهيه . وحيث تختلف شهوات الانسان ، فإنّ موارد اتّباع الهوى تختلف هي الأخرى . والسؤال : ما هي شهوات الإنسان ؟ وبالتالي ما هي أهواؤه ؟[3] شهوة الخلود ، شهوة الراحة ، شهوة الأمن والسلامة ، وأخيراً شهوة الملك والسيطرة . . هي جميعاً شهوة واحدة هي « شهوة الحياة » وهي أعمق شهوة في النفس البشرية ، لأنّها صورة لهوى النفس في أوضح وأصدق حالاتها . وشهوة الطعام والمسكن واللباس ، شهوة الأولاد ، حسّ التكيف مع البيئة ، حسّ التكّيف مع المجتمع ،والاستسلام لضغوط السلطة ، كلُّ اولئك صور أخرى وإنْ كانت باهتة ـ أحياناً ـ عن شهوة الحياة ، إذ لا يخضع الفرد لتوجيه المجتمع ، إلّا لأنه يخشى من عقوبته المتمثلة في منعه عن ضرورات حياته ، ولأنّه يحبُّ حياته ، فهو أيضاً يحبّ ما يحافظ عليها من ضرورات ، وما ترتبط به هذه الضرورات من التكّيف مع البيئة او مع المجتمع .

وحين يخضع الإنسان للمجتمع ، أو للبيئة ، او للسلطة ، تخضع كل مناحي حياته معه وفي طليعتها فكره ، ولذلك فإنّه يدفع بفكره باتّجاه التوافق مع المجتمع والاستسلام لتوجيهاته ، وكذلك باتّجاه الخضوع للسلطة .

إذاً : حبُّ الذات أو بتعبير أفضل : « هوى النفس » هو وراء أكثر أسباب الخطأ في

---

(١) بحار / ج ٧٨ ص ٣١٤ .

(٢) المصدر / ص ٣١٥ .

(٣) هنا يجب أن نضع ملحوظة ضرورية ، هي أن الهوى والحب هما حالتان للنفس البشرية تختلفان كثيراً. فالهوى هو حب الذات وحبُ أي شيء يخدم الذات مباشرة أو غير مباشرة فمثلاً حب الحياة وحب الراحة وحب الأكلات الشهية وحب النساء وحب المال والسلطات إنما هي مرجعها جميعاً حب الذات ، إذ كلها تخدم الذات مباشرة أو غير مباشرة.

بينما الحب هو : الرغبة في الغير دون أن يرتبط بالذات ، فحب الخير وأهله وحب المبدأ وحب الوطن و.و. إنما هو الرغبة في كل أولئك دون أن يعتبر فيها حب الذات ، وهكذا يكون الحب عطاء والهوى أخذاً .

الإنسان ، ابتداءً من الأسباب النفسية ، والتقاليد ، وانتهاءً بالأسباب الطبيعية ومروراً بالأسباب الاجتماعية ، والاقتصادية .

تنمية الارادة

لأنّ الانسان يتعرض لأمواج الضغوط ، وتعتصره شهواته وعصبياته من داخل نفسه ، وقوى الشر من الخارج ، فهو بحاجة الى أرادة قوّية ومشيئة مقتدرة حتى يستقيم على هدى عقله ، ولا يضيع في تّيار الأهواء .

وهذه الإرادة تنمو بالرسالات ، التي تضع لصاحبها عشرات البرامج التي تساعده على الاستقامة . وفيما يلي نستعرض بعضها :

الف :ـ فالرسول بذاته أسوة حسنة ، تُفيض سيرته قوة إرادة فيمن حوله ، يتبعونه في منهاج حياته بعد علمهم بأنه ، كان بشراً مثلهم .

باء :ـ والرسالة تعرف الانسان بنفسه وبمدى كرامته على ربّه ، وأنه الذي سخّر له الله ما في الأرض جميعاً . ونوّه بأسمه ، واستضافه لجنّته ، ورفعه لمقام مخاطبته ، وبهذه الوسيلة تجعله يثق بنفسه اكثر فأكثر ، وتزداد قوة ارادته .

جيم :ـ وذكر الله الذي فرضته الرسالة على الإنسان ، عبر الصلاة والصيام والحج وتلاوة القرآن والدعاء ، وكذلك عبر عشرات المناهج الأخرى ، إنّ هذا الذكر يصل قلب العبد بنور الرب ، فيجعله فوق تحدّيات الظروف ، وقد قال ربّنا سبحانه : **﴿ اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾**(١) ، **﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليُخرجكُم من الظلمات الى النور ﴾**(٢) .

دال :ـ وسلسلة المحّرمات التي يتّقيها المؤمن تصونه من الانصياع مع الشهوات التي تحجب عقله ، وتهدم ثقته بنفسه كالخمرة والميسر ، واللهو والفواحش ما ظهر منها وما بطن . .

وقد قال ربنا سبحانه : **﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكُمُ العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذِكر الله ﴾**(٣) .

---

(١) الأحزاب / ٤١ .

(٢) الأحزاب / ٤٣ .

(٣) المائدة / ٩١ .

هاء :ـ وكذلك ما نجده في الرسالات الإلهية من برامج أخلاقية لتزكية النفس وتطهيرها من الرذائل كالأنانية والعنصرية والاستئثار ، والغرور والحسد والحقد وسوء الظن ، إنّها جميعاً تزيد الانسان عزماً وتصلباً .

وقد قال ربّنا سبحانه ﴿ ونفسٍ وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها ﴾[1] .

﴿ ومَنْ يوقِ شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[2] .

(وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى)[3] .

﴿ هو الذي بعث في الأُميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين[4] .

إنّ العقل والجهل قوّتان تتجاذبان الإنسان الذي يختار أحدهما بمشيئته الحرة ، فإذا تحدّى رياح الهوى واختار السير صعداً الى قمة العقل . . فإنّه يبصر الحقائق بوضوح ، وإذا استسلم لجهله ، وانهار في وديان الشهوات ، فإنّه ليس يجهل الحقائق آنئذٍ فقط ، بل وينسى نفسه أيضاً ﴿ نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هُمُ الفاسقون ﴾[5] .

وهكذا تقف الشهوة في الطرف النقيض من العقل ..ولا يكتمل عقل الانسان إلا بكبح جماحها ولجم زمامها .

يأتي عبدالله بن سنان الى الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ ويسأله : الملائكة أفضل أم بنو آدم ؟ فقال : قال أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ : إنّ الله ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة وفي البهائم شهوةً بلا عقل ، وركّب في بني آدم كليهما فمَن غلب عقله شهوته ، فهو خير من الملائكة ، ومن غلب شهوته على عقله فهو شرّ من البهائم » .

يقول الحديث الشريف المأثور عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : « من لم يملك

(١) الشمس / ٧ .
(٢) التغابن / ١٦ .
(٣) النازعات / ٤٠ ـ ٤١ .
(٤) الجمعة / ٢ .
(٥) الحشر / ١٩ .

شهوته لم يملك عقله »[1] .

« ذهاب العقل بين الهوى والشهوة »[2] .

« العاقل من هجر شهوته »[3] .

وقال الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ :

« أفضل طبائع العقل العبادة ، وأوثق الحديث له العلم ، وأجزل حظوظه الحكمة ، وأفضل ذخائره الحسنات »[4]

معارف القرآن تزيد العقل

لكلِّ شيء وزير ، ووزير العقل العلم .. إنه يزيده انبساطاً وجلاءً . أرأيت الذي يُنمي عضلاته بالتدريب ومهاراته بالتمرين فلماذا لا يُنمي عقله بالمعارف التي تفتح آفاق العقل ، وتفضُّ مكنوناته وسرائره .

والقرآن الكريم : جمل المعارف ، وجوامع العلم ، وضياء الهدى ، فحينما يتّصل عقل الإنسان بنور الوحي يزداد انشراحاً وبهاءً ، لأنه يجلوه ويسهّل عليه السير في آفاق المعرفة . قال ربّنا سبحانه : **﴿ وسخّر لكُمُ الليل والنهارَ والشمس والقمر والنجومُ مسخّراتٌ بأمره إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون ﴾**[5] .

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾[6] .

﴿ هذا بصائرُ للناس ﴾[7] .

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾[8] .

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم .
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم .
(٣) المصدر .
(٤) بحار الأنوار / ج ١ ص ١٣١ .
(٥) النحل / ١٢ .
(٦) العنكبوت / ٤٣ .
(٧) الجاثية / ٢٠ .
(٨) الحشر / ٢١ .

وجاء في الحديث الشريف المروي عن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ :

« كثرة النظر في العلم تفتح العقل »[1] .

وقال الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ :

« العقل حفظ التجارب ، وخير ما جربت ما وعظك »[2] .

« فساد الأخلاق معاشرة السفهاء ، وصلاح الأخلاق معاشرة العقلاء »[3] .

« العاقل من وعظته التجارب »[4] .

« من ترك الاستماع عن ذوي العقول مات عقله »[5] .

وهكذا يتنامى عقل الانسان بالوحي حينما يوقظه الوحي من سباته . وينمّي فيه إرادة الانتفاع به ، ويزيده ضياءً بالمعارف التي تفتح آفاقه .

يقول العلامة الاصفهاني وهو يشرح العلاقة بين العقل والوحي ، في سياق حديث مفصل :

« فتكون الشريعة مؤسسةً على الاحكام العقلية التي تكون العقول حيث ذاتها الكشف عن وجوبها وحرمتها الذاتية أو المعللة بالحسن والقبح اللذين حيث ذاتها الكشف عنها في بعض الافعال ، فيكون القرآن المجيد والرسول الأكرم والأئمة المعصومون ـ عليهم السلام ـ مذكِّرين بهذه الأحكام العقلية .

فكل فعلٍ كان العقل بذاته كاشفاً عن وجوبه أو حرمته ، ذاتاً أو معللاً بحسنه وقبحه عن العاقل القادر المالك للرأي بفعله وتركه ، يكون هذا العقل حجةً إلهية على هذه الأحكام ، لحجيته وحاكميته بذاته على عصمته . وإن المكشوف به عين الواقع . فهو الحجة على أن الفعل الواجب ، والحرام بالذات او للحسن والقبح ، واجب وحرام عند الله وعند أنبيائه ورسله . كيف والحق « جلت عظمته » أرشده الى هذه العقول ، واحتجّ بها على البشر وهو عين إمضاء تلك الأحكام ، وعين كون أحكامها أحكامه لأنّه

---

(١) المصدر / ص ١٥٩ .

(٢) المصدر / ص ١٦٠ .

(٣) المصدر .

(٤) المصدر .

(٥) المصدر .

كاشفٌ عن رسوله الذي هو لسانه ونفسه تعالى شأنه .

وعلى هذا الأساس « قامت » علوم الدين ، والشرائع على أحكام تلك العقول ، التي هي حجج إلهية لكلّ عاقل . فهي الحجة بذاتها على كل ما تكشفه ، كما أن العلم الإلهي حجة إلهية على كل ما يكشفه » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع :

الاحكام العقلية



تمهيد :

يستخدم علماء الأصول كلمة « القطع » في موضع الحديث عن العلم والمعرفة واليقين ، وهذه الكلمة ذات إيحاء فلسفيّ باعتبار تواصل علم الاصول والحكمة في العصور المتأخرة .

وهذه الكلمة غريبة عن الأدب القرآني ، ولكنها مناسبة للمنهج الفلسفي القائم على أساس الجدال وإسكات الخصم وقطع الحديث وحسمه معه .

وفي موضعٍ آخر من هذا البحث نتحدث بإذن الله عن بعض الملاحظات على المنهج الفلسفي ولكنّا هنا نجري على المصطلح الاصولي ونقول : يرى الفقهاء ـ قدّس الله أرواحهم ـ أن حجية القطع ذاتية ، ولا مجال للمناقشة فيها . وهي أصل كل حجةٍ أُخرى . يقول في ذلك العلامة الأنصاري ـ قدّس الله سره ـ :

« وبالجملة فالقطع قد يكون طريقاً للحكم وقد يكون مأخوذاً في موضوع الحكم ، ثم ما كان منه طريقاً لا يفرق فيه بين خصوصياته من حيث القاطع والمقطوع به وأسباب القطع وأزمانه . إذ المفروض كونه طريقاً الى متعلقه فيترتب عليه احكام متعلقه ولا يجوز للشارع أن ينهىٰ عن العمل به لأنّه مستلزمٌ للتناقض فإذا قطع كون مائعٍ بولاً من أي سببٍ كان فلا يجوز للشارع أن يحكم بعدم نجاسته أو عدم وجوب الاجتناب عنه . لأن المفروض أنه بمجرد القطع يحصل له صغرى وكبرى . أعني قوله هذا بول . وكل بول يجب الاجتناب عنه فهذا يجب الاجتناب عنه .

فحكم الشارع « لو حكم جدلاً » بأنّه لا يجب الاجتناب عنه ، مناقضٌ له[1] أي للحكم الأول الذي ثبت به وجوب الاجتناب عنه قطعاً .

وبالرغم من قوة البيان وبلاغة النافذة إلا أنّنا نجد في تضاعيف كلمات الشيخ ما يوحي بوجود طريقة لنهي الشارع عن العمل بالقطع حيث يقول في معرض ردّه على بعض المحدثين :

« وإنْ أرادوا عدم جواز الخوض في المطالب العقلية لتحصيل المطالب الشرعية لكثرة وقوع الغلط والاشتباه فيها ـ فلو سلم ذلك وأغمض عن المعارضة بكثرة ما يحصل من الخطأ في فهم المطالب بالأدلّة الشرعية ـ فله « أي لهذا القول » وجه . فلو خاض فيها « أي في المطالب العقلية الفقهية » وحصل القطع بما لا يوافق الحكم الواقعي لم يعذر في ذلك لتقصيره في مقدمات التحصيل . إلاّ أنّ الشأن في ثبوت كثرة الخطأ أزيَدُ مما يقع في فهم المطالب من الأدلة الشرعية »[2]

ومجرّد إمكانية رَدْع الشارع عن العمل بالقطع تجعل الاطمئنان به مخدوشاً ، ويُثبت بطريقة ، أو بأخرى ، آراء المحدثين .

وسوف نذكر إن شاء الله أن الميرزا النائيني ـ قدّس الله سره ـ وحسب تقريرات السيد الخوئي ينتهي الى مثل هذا الرأي أيضاً .

أما العلاّمة الأخوند ـ قدّس الله سرّه ـ فيقول :

« لا شبهة في وجوب العمل على وفق القطع عقلاً ولزوم الحركة على طبقه جزماً ، وكونه موجباً لتنجز التكليف الفعلي فيما أصاب باستحقاق الذمّ والعقاب على مخالفته ، وعذراً فيما أخطأ قصوراً » وأضاف مبيّناً الحجة على ذلك وقال :

« وتأثيره في ذلك لازم ، وصريح الوجدان به شاهد وحاكم فلا حاجة الى مزيدِ بيان وإقامة برهانٍ »[3] .

ويبدو أن هذه الكلمات تشير الى المباحث الفلسفية في المعرفة ، حيث أن التشكيك في العقل وقيمته يجعلنا نشك في قيمة كل شيء حتى في قيمة التشكيك ذاته . إذ أنّ أصحاب

---

(١) فرائد الاصول / ص ٣ .

(٢) الفرائد / ص ٨ .

(٣) كفاية الاصول / ج ٢ ـ مباحث القطع .

النظرية الحسية أو أتباع نظريات التشكيك تراهم يستندون في كلماتهم الى مجموعة حجج وبراهين وهي بذاتها قائمةً على أسس عقلية وعلمية .

ويعلّق على هذا النص المرجع الحكيم ـ قدّس الله سرّه ـ : « لا إشكال في كون القطع طريقا الى الواقع الذي تعلّق به وكاشفاً عنه في نظر القاطع بحيث يرى الواقع كما لا ينبغي الريب في أنّ عقله حينئذ يحكم بقبح عقابه ، على تقدير موافقته لو كان القطع بحرمة شيء فتركه ، أو بوجوب شيء ففعله ، وهذا الأثر منتزعٌ من الأمر السابق ، أعني طريقته ومنه ينتزع عنوان التنجز والعذر »[1].

أما الأستاذ الكبير الميرزا النائيني ـ قدس الله سرّه ـ فإنّه حسب كلمات مقرّره الكبير السيد المرجع الخوئي ـ قدس الله سره ـ فإنّه يقول :

« لا إشكال في أن القطع إذا تعلق بكل شيء يكون طريقاً اليه لا محالة كما أنه لا إشكال في وجوب متابعته فيما إذا تعلق بتكليفٍ أو موضوع تعلّق به التكليف »[2].

وبعد أنْ بينّ أنّ القطع حيث ذاته الطريقية والكاشفية لا أمراً زائداً عليها قال : « إلاّ أنّها « حجية القطع » غير قابلة للجعل التشريعي ، بداهة إنّ الجعل التشريعي إنّما يتعلّق بشيء يكون تكوينه بعين تشريعه بعد قابلية المحل له »[3].

وبالرغم من هذا الكلام نجد الأستاذ النائيني يعود ويشكّ في القطع الذي يحصل من بعض المقدمات فيقول بعد حديث طويل حول القطع الذي يتّخذ موضوعاً وأنّ للشارع التصرف فيه يقول :

« وإذا أمكن أخذ القطع بالحكم في موضوعه بدليل آخر فيمكن أخذ القطع بالحكم من سبب خاصّ مانعاً عنه أيضاً ، وهذا كما في القطع القياسي فإنّ المستفاد من رواية أبان عدم اعتبار القطع الحاصل من القياس ، وهذا إنّما يكون باعتبار تقيّد الأحكام الواقعية بأن لا تكون معلومة عن طريق القياس من باب نتيجة التقييد ففي الحقيقة موضوع تلك الأحكام من لا يكون عالماً بها من طريق القياس »[4].

---

(١) حقائق الأصول / ج٢ ـ ص ٦ .

(٢) اجود التقريرات / ج٢ ـ ص ٤ .

(٣) المصدر .

(٤) المصدر / ص ٨ .

وأنت ترى أنّ نتيجة هذا الكلام تحديد القطع بما لم يردع عنه الشارع ويجوز أن نشكّ ـ حينئذ ـ في كل قطع،هل أمضاه الشارع أم ردع عنه ؟ فيكون الأمر ـ بالتالي ـ كما ذكره المحدثون ..

وقد تنّبه الشيخ الأستاذ الى ذلك فاراد التخلص منه فقال :

« وهذا ليس تصرّفاً في ناحية القطع حتى يقال بأن طريقته ذاتية غير قابلة لأن تنالها يد الجعل نفياً وإثباتاً ، بل تصرف في ناحية المقطوع ، وتخصيصه بموضوع خاص دون آخر» .

واضاف : « بل لا يبعد أن يكون القطع الحاصل من الجفر والرمل ، ونحوهما أيضاً كذلك ، بأنْ تكون الأحكام الواقعية مختصّة من باب نتيجة التقييد بغير العالمين بها من تلك الطرق الغير المتعارفة فإن دعوى الإجماع على ذلك ليست بكل البعيد »[1]وسوف نعود قريباً إن شاء الله الى مناقشة هذا الاستثناء الذي وجدنا مثله ولو بتعبيرٍ آخر في كلمات شيخنا الأعظم « الانصاري » والذي يؤدي نهايةً الى حذف القطع من استقلاله في بلوغ الحكم الشرعي .

---

(١) المصدر .

أسئلة حائرة:

لكي نثير ركام الأفكار التي تجمعت في هذا الحقل الشائك ، لنبلغ الحقائق الدفينة ، لا بدّ أن نطرح التساؤلات المتدرجة التي تشابكت مع بعضها ، وربما طرحت بصورة غير مرتبة .

والتساؤلات هي :

أولاً : هل العقل يجب اتّباعه بعيداً عن حكم الشريعة حتى إذا حكم بشيء وجب الانصياع له دون أنْ نسأل عن حكم الشرع فيه ؟

ثانياً : وإذا حكم العقل بشيء فهل الشريعة تحكم حتى تصدق المقولة المعروفة ما حكم به العقل حكم به الشرع ؟

ثالثاً : والمناهج العقلية المتبعة في القضايا الفلسفية مثل أقيسة المنطق الأرسطي هل هي مناهج مناسبة ومأمونة للتعرّف على الأحكام الالهية ؟

رابعاً : وإذا توصلّنا الى حكمٍ شرعي عبر هذه الأقيسة أو عبر الجفر والرمل والسبل غير المتعارفة فهل يجب شرعاً التعبّد به فيما إذا وصلت قناعتنا به الى درجة القطع واليقين ؟

يبدو لي أن خلط هذه الأسئلة ببعضها جعل الحديث مشوشاً حتى وكأن البحث في مواضيع مختلفة . مثلاً يقول المحدث[1]: لا يمكن حصول القطع عبر المناهج العقلية

(١) نقصد به المتبع للطريقة الاخبارية .

المعروفة ، فيجيبه الأصولي : فإذا افترضنا وحصل القطع ماذا نفعل ؟ انك ترى ان الحديث لا يجري في موضوع واحد بل في موضوعين مختلفين وقد أشار الى ذلك الشيخ الأخوند في الكفاية حيث قال : « وأما في مقام عدم جواز الاعتماد على المقدمات العقلية لأنها لا تفيد إلاّ الظن كما هو صريح الشيخ المحدث الأمين الاستر آبادي ـ رحمه الله ـ »[1] .

وأنّى كان فإنّ علاقة العقل بالشرع قضية في غاية الخطورة ، وقد تشعَّبت الأحاديث حولها الى علوم كثيرة ابتداءً من الفلسفة وانتهاءً بعلم الأخلاق ومروراً بالكلام والأصول والفقه .

وكانت هذه العلاقة محور الخلاف الرئيسي بين مختلف المذاهب الإسلامية .

فبين من يلغي أساساً دور العقل كالظاهرية والصوفية ، وبين من يعطيه دوراً محدوداً مثل الأشاعرة ، وبين من يفسح المجال له كاملاً كما فعل المعتزلة .

بينما نعتقد أن أئمة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ عرَّفوا العقل بأنه النور الإلهي الذي أودعه الله القلب ، وميّزوه تماماً عن الأهواء والوساوس والظنون ، ثم أعطوه دوراً كبيراً في معرفة الحقائق الشرعية وغيرها .

فعن الظاهرية يقول ماجد فخري : وهو يؤرخ ابن حزم ويعتبره أهم شخصية ابتعث الرؤية الظاهرية ويقول عنه : « يرفض جميع ضروب القياس أو الاستدلال ويتشبث بالدلالة الحرفية الضيّقة للنصّ معتبراً المذاهب الكلامية على اختلافها السمحة منها أو المحافظة المعتزلية أو الأشعرية سواء في الضلال »[2] .

أما عن نظرية المعتزلة والأشاعرة في قضية العقل فيقول المؤلفان حنا الفاخوري وخليل الجر : « واننا لا نستطيع أن نسمِّي المعتزلة متكلمين لأننا نخصّ بهذا الاسم الذين اعتبروا الكلام وسيلةً للدفاع عن الحديث والفّوا كتبهم وفقاً لهذه الطريقة ونحن نعلم أنّ المعتزلة كانوا أخصاماً لأهل الحديث .

ولئن اتّفق المعتزلة والمتكلمون على أن اللجوء الى العقل والنظر لمعرفة الله والبرهان على وجوده فرضٌ على كل مؤمن ومؤمنة ، فقد اختلفوا حول مصدر هذا الفرض وقال

---

(١) راجع كفاية الاصول / مباحث حجية مطلق القطع .

(٢) ماجد فخري : تاريخ الفلسفة الاسلامية / ص ٤٣١ .

المعتزلة : إنه عقلي محض ناجم على طبيعة العقل .

أما المتكلمون (ويرى المؤلفان أن الأشاعرة في طليعتهم) فقد أثبتوا تقدم الشريعة على العقل وقالوا : إن اللجوء الى العقل والنظر في الامور العقائدية فرضٌ شرعيّ ، وإنه لولا الشريعة لما تمكن العقل من معرفة الله وإثبات وجوده .

فالعقل في نظر المعتزلة دليلٌ داخلي يمكّن الانسان من معرفة الخير والشر ، ولا قيمة للشريعة المنزلة إلا أذا اتّفقت مع أحكامه .

أما المتكلمون ، ولا سيما في أول عهدهم ، فإنهم يضعون النص في الدرجة الأولى والعقل في الدرجة الثانية .

وهناك نوعان من البراهين : البرهان العقلي الذي لا يستند الا الى العقل ومبادئه ، والبرهان السمعي الذي يستند الى القرآن والحديث والإجماع . وفيما نرى المعتزلة لا يعترفون الا بقيمة الأول ويعتبرون أن كلّ برهان سمعي لا يدعمه العقل مردود ، يظل المتكلمون ، وعلى رأسهم الأشاعرة ، يؤكدون أن البراهين العقلية لا قيمة لها إلاّ لأنّ الشرع يأمر بها . وإنّ العقل لا قيمة له في ذاته ، بل فيما يستمده من الشرع . وفي حال تعذّر الوصول الى البرهان العقلي يمكن اللجوء الى البرهان السمعي أو النقلي ، كما يسمونه ، فيما بعد »[1] .

وأما فيما يتصل ببصائر الوحي في العقل ، وكيف أنه النور المؤيَّد بالله ، وأنه يختلف عن التعقّلات والأقيسة الأرسطية وما اشبه ، فيقول العلامة الميرزا الأصفهاني في ذلك :

- « أما أساس علومهم « أي علوم البشر » فهو « قائم » على تعريف العلم وتوصيفه وتقسيمه بالحضوري والحصولي ، والحصولي الى التّصور والتصديق ، وأما أحكام العقول فعند الفحول من البشر عبارة عن الأمور الثابتة بالبرهان ، فإنّ الأساس عندهم على تعريف العقل وتوصيفه لتقسيمهم إيّاه بالعقل النظري والعملي،والنظري عندهم ، عبارة عن فعلية النفس باستخراج النظريات عن الضروريات فما كان نتيجة البرهان فهو من أحكام العقل. يجب الجري على طبقه »[2] .

---

(١) تاريخ الفلسفة العربية / ج ١ ص ١٧٩ .

(٢) يوجد فراغ في المتن المخطوط الموجود عندي عند بيان العقل العملي وهو كما يقول ابن سينا : القوة التي تدبر بها النفس البدن على ضوء الاراء الجزئية التي يتوصل اليها الانسان أما عن مقدمات اولية او عن تجربة واختيار =

« وأما أساس معارف القرآن ـ كما عليه أساس معارف الرسول والأئمة ـ يناقض ذلك كله ، فإنّ أساس معارفهم على العقول التي هي حجج إلهية مبعوث على جميع العقلاء ، وإنّ العقل لا يوصف ولا يعرف الا بنفسه يعرفه كلّ عاقل يجده وهو النور الذي يجده الانسان حال كبره بعد عدم وجدانه حال صغره مما يعرف به قبح أفعاله وحسنها . فبعد صدور الأفعال عنه في حال فقدان العقل يدرك بنور العقل ـ بعد وجدانه ـ أنها كانت حسنة أو قبيحة . ومع أنّه كان فاعلاً لها في حال فقدان العقل ولم يكن أفعاله خفياً « خفية » عنده لم يكن يدرك حسنها وقبحها فيا يظهر له حسنها وقبحها حتى يتحسّر ويغتمّ بفعلها.وهذا هو العقل » .

« وظاهر أن هذا النور لا يعرف إلا بنفسه ، وأن توصيفه وتعريفه للعاقل الواجد له ، إلحادٌ وإضلال ،لأنه يتصوّر حينئذ ويتوهّم ، ومتصوّره وموهومه خلاف ما يجده وما به إدراكه الحسن والقبح بالضرورة .

بل لا يحتاج إلّا الى التذكر بأنّ النور الذي يجده وبه يعرف حسن أفعاله السابقة وقبحها أجلُّ من أن يُفهم ويُعلم ويُعقل .

فوجدانه وعرفانه به لعلوّه عن المفهومية والمعلومية والمعقولية ، يوجب الحيرة ، وهذا كماله فيتذكر العاقل بأنه أقرب كل شيء له ، كيف وبه يدرك ويعرف حسن الأفعال وقبحها ، ويؤاخذ غيره عليها ، وهذا العقل الذي لا يوصف إلا بنفسه ، ويعرفه الإنسان ويجده ويربه به غير العقل الذي عقل وله أحكام في العلوم والمعارف البشرية كما هو ظاهر . وهذا العقل الذي هو حجة لكل عاقل واجد له ، إنما هو من حجج الله على خلقه في المعارف الإلهية كما ستعرف[1] .

ولقد نقلت هذا النص من كلام العلامة الاصفهاني لأنّه يشكل خلاصة مفيدة لما اعتقد أنه بصيرة الوحي في العقل ، ودوره الأساسي في المعارف والعلوم الإلهية .

وهكذا اختلفت الآراء في دور العقل في الشرع ، ولا يسعنا التفصيل في تاريخ هذا الجدل الذي أكثر المؤرخون من الحديث حوله[2] .

=

(راجع تاريخ الفلسفة العربية / ج ٢ ـ ص ١٩١ .

(١) ابواب الهدى ـ للعلامة الحجة الميرزا مهدي الاصفهاني (مخطوط) ص ٦ .

(٢) يمكن الرجوع الى الكتب المفصلة مثل الملل والنحل والفرق بين الفرق والكامل في التاريخ ومروج الذهب في

=

والآن تعالوا نَعُدْ الى المسائل الاربعة التي طرحناها آنفا ، وأولها :

=

اخبار من ذهب والفهرست لابن النديم وحلية الاولياء وطبقات الاصفياء ومن الكتب الحديثة : تاريخ الفلسفة العربية . وتاريخ الفلسفة الاسلامية ، وتحقيق در مسائل كلامي از متكلهان اشعري ومعتزلي (بالفارسية) . وقد بحث المؤلف جوانب من هذا الموضوع في كتبه التالية : (العرفان الاسلامي ، والفكر الاسلامي ، والمنطق الاسلامي) .

١ ــ هل يجب اتباع الاحكام العقلية؟.

بعيداً عن العلاقة بين العقل والشرع ، هل العقل يحكم بأمر فيوجبه أو يحرّمه ، وإذا فعل يجب إتباعه أم لا ؟

يرى البعض بما أن الحاكم هو الله وحده سبحانه وتعالى فليس للعقل سوى دور الادراك لحكم الله . يقول السيد محمد تقي الحكيم في ذلك :

« والتعبير بالحكم العقلي ـ في المجالات التشريعية ـ وإنْ أوْهم ذلك إلا أنّنا لا نعرف، مَنْ يذهب الى القول به من المسلمين على الإطلاق . وقد نسب ذلك على ألسنة بعض المشايخ الى المعتزلة ففي مسلم الثبوت :

« لا حكم إلاّ من الله تعالى بإجماع الأمة ، لا كما في كتب بعض المشايخ أنّ المعتزلة يرون أنّ الحاكم هو العقل فإنّ هذا مما لا يجترىء عليه أحد مِمَّنْ يدّعي الإسلام »[1] .

ولكنْ يبدو من منهجيّة المعتزلة في مختلف المعارف الإلهية أنّهم يبالغون في دور العقل ويجعلون مقامه فوق الشرع . بالرغم من عدم تصريحهم بذلك إذ أنهم يوجبون به أحكاماً على خالقهم سبحانه .

وقد سبق قولهم ـ حسب حكاية بعضهم ـ أن العقل دليل داخلي يمكّن الإنسان من معرفة الخير والشر ، ولا قيمة للشريعة المنزلة إلاّ إذا اتّفقت مع أحكامه[2] .

---

(١) الاصول العامة / ص ٢٨١ .

(٢) تاريخ الفلسفة العربية / ص ١٧٤ .

وأنّى كان فإنّ للعقل أوامره وزواجره التي لا شكّ فيها ، فإنّه يأمرنا بالدفاع عن النفس أمام غائلة الجوع والمرض ، ويزجرنا عن إلقائها في التهلكة . وانبعاث الإنسان بعقله وتسليمه لأحكامه أشدُّ من انبعاثه بالشرع وتسليمه لأحكامه ، بل إنّ أحكام العقل الأوليّة هي التي توجب على الإنسان قبول الشرع والعمل وفق أحكامه . وتجريد العقل عن هذا الدور يهدم بناء الشرع ، ولا يدع لنا أساساً نعتمد عليه في الاحتجاج على أحدٍ بشيء . إنّك تجد كل التعاليم القرآنية ترتكز على أحكامٍ عقلية ، مثل دفع الضرر ، وجلب المنفعة ، وشكر المنعم ، وردّ إحسانه بإحسانٍ مثله ، فكيف يجوز نفيُ استقلاله بحكمةُ ؟ .

وما الشرع إلّا عقل ظاهر ، وما العقل إلّا شرع باطن . بلى ، العقل والشرع رسولان من عند الله ، وتأييد العقل إنّما هو بنور الله ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

وبكلمة : العقل قد يحكم بشيء ، وحينما يحكم به يحكم بضرورة تنفيذه ، حكماً جازماً . بلى ، هذا يختلف عن الوجوب الشرعي الذي يعني استحقاق الثواب على فعله والعقاب على تركه . .

٢ ـ التطابق بين العقل واحكام الشرع:

تعالوا قبل أن نخوض في الأدلة القياسية التي ساقها البعض على مدى التطابق بين العقل والشرع ، وأنه ما حكم العقل بشيء كشف عن حكم الشرع أيضاً ، تعالوا قبل ذلك نبحث في أحكام العقل والشرع ما هي ؟ أليس العقل يهدينا الى أنّ في خلق السموات والأرض آياتٍ تدلنا على خالقٍ عزيز حكيم ، وأنّ من حكمته البالغة هدايته للإنسان عبر الرسل ، وأنّ الانسان رهين ما اكتسب ، إنْ خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ ، وأنّ الصدق والوفاء والإحسان والعدل والنشاط والتعاون ، والإيثار هي الخصال الحميدة ، وأنّ أضدادها هي الصفات السيئة ، وأنّ الكبر والحسد والحقد والنفاق وسوء الأخلاق هي الرذائل الذميمة وأضدادها المثل العليا ؟ .

وإذا كانت هذه هي أحكام العقول ، ووصية الحكماء من الناس ، فما هي أحكام الشريعة ! أوَلَيست مثل ذلك ؟ أيٌّ حكمٍ في كتاب الله لا يصدقه العقل ، ولا يتواصى به العرف ؟ بلى ، قد يكون الإنسان غافلاً أو ناسياً فإذا ذكّره الوحي تذكّر واستبصر ، ووجد أنّ النور الذي يشعّ من مشكاة الوحي هو ذاته النور الذي يضيء في فؤاده .

وإنّ هذا التطابق هو أكبر شهادةٍ على صدق الرسول ، وأعظم حجةٍ لله على الناس ، والى هذه الحجة تعود سائر الأدلة التي اعتمدها الحكماء والمتكلمون في صدق الرسالات .

وهذا التطابق هو الذي جعل الرسول والعقل حجةً واحدة ، فذاك عقل ظاهر ، وهذا رسول باطن ..

وهذه الأحكام العامة التي يتطابق الوحي والعقل فيها هي مصدر سائر الاحكام الجزئية التي تخص الظواهر المحددة والمتغيرات .

ولا يعجز العقل المستنير بالوحي معرفة حكم واقعة جزئية استنباطاً من تلك الأحكام العامة . ولذلك كان الشرع كاملاً حيث قال ربّنا سبحانه : ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نِعمتي ورضيتُ لكُمُ الإسلامَ ديناً ﴾[1] .

وقال عن كتابه الكريم : ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ﴾[2] ﴿ تبياناً لكل شيء ﴾[3] ﴿ ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناكَ بالحقِّ وأحسنَ تأويلاً ﴾[4] .

وروي عن النبي الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله ـ :

« أيها الناس ! ما من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلاّ وقد نهيتُكم عنه وأمرتكم به »[5] .

ومعروف ان الرسول لم يحدد حكم المتغيّرات اليوميّة بصورةٍ تفصيلية ، إنّما بيّن النبي الأحكام العامة التي يستنبط منها ذلك بالعقل .

وهكذا لا يبقى لنا مجال للتساؤل عن مورد يحكم به العقل ولا يحكم به الشرع ، إذ كل شيء موجود في الشرع إنْ كان بصورة خاصة أو بالعموم . نعم العقل يقوم بتحديد الحكم الشرعي المناسب للواقعة .

كما أنّ الشرع يذكر بالعقل ويفضّه ويستثير دفائنه . ولعل هذا هو المراد من قوله سبحانه : ﴿ فبشرْ عباد الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنَهُ أولئك الذين هداهُم الله وأولئك هم أولُو الألبابِ ﴾[6] .

حيث أن اتّباع الأحسن لا يكون إلاّ بعد معرفته ، ومعرفته لا تتّم إلاّ بهداية الله الظاهرة عبر الرسالة وبالعقل الذي هو لبّ الإنسان وأصله .

---

(١) المائدة / ٣ .
(٢) الكهف / ٥٤ .
(٣) النحل / ٨٩ .
(٤) الفرقان / ٣٣ .
(٥) بحار الأنوار / ج ٢ ص ١٧١ .
(٦) الزمر / ١٧ ـ ١٨ .

وكذلك أمَرَنا الله تعالى على لسان نبّيه موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ باتّباع أحسن الكتاب .

﴿ وَأْمُرْ قومَك يأخذوا بأحسنها ﴾[1] .

وهكذا يختلف الأحسن بالنسبة الى الناس والظروف المحيطة بهم ، ومعرفة الأحسن إنّما تتّم بالعقل . . وكذلك قوله سبحانه :

﴿ ادعُ الى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾[2] .

حيث أنّ الحكمة وضعُ الشيء موضعه المناسب ، ومعرفة ذلك بالعقل ، مما يدلّ على دور العقل في تحديد مواقع تطبيق الشريعة .

وقوله ـ عليه السلام ـ :

« إن على كلّ حقّ حقيقة ، وعلى كل صوابٍ نوراً »[3] يدل على أنّ معرفة الحقائق تتم بالعقل . .

وقوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ :

« العقل رسول باطن ، والرسول عقل ظاهر » .

يدلّ على تطابق العقل والرسالة ، وعلى أنّ أحدهما يكمّل الثاني[4] .

ويبدو أنّ هذا الكشف الوجداني ، والشهود الفطري ، والتجربة الذاتية في التعّرف على العقل ومدى تطابق الشريعة معه أبلغ حجةً مّما ساقه البعض دليلاً على ذلك ، لماذا ؟ .

أولاً : لأنّ ذلك الدليل يعود بالتالي الى الوجدان فلماذا لا نقصر الدرب ونستدل بالوجدان منذ البداية .

ثانياً : لأن حجتنا القائمة على أساس فضّ العقل ذاته بذاته ، تهدينا الى سُبُل كشف الحقائق التفصيلية أيضاً ، لأنها ـ أساساً ـ تعتمد على معرفة هذه الحقائق والاستدلال

---

(١) الأعراف / ١٤٥ .

(٢) النحل / ١٢٥ .

(٣) أصول الكافي / ج ١ ص ٨٨ .

(٤) سبق في الابواب الماضية احاديث كثيرة في هذا السياق .

بتلك المعرفة على وجود نور العقل .

أدلة الاستاذ النائيني

وحسب تقريرات المرجع الخوئي -قدس الله سره- يستدل الاستاذ النائيني على حجية أدلة العقل بثلاثة وجوه :

أولاً : إن الأحكام الشرعية تابعة للمصالح والمفاسد ، ورد قول بعض الأشاعرة الذين أنكروا وجود الحسن والقبح ، ولم يستقبحوا ترجيح الشيء بلا مرجح،ردّه بأنه مخالف لضرورة العقل والوجدان .

كذلك ردّ القائلين منهم بأن ذات المصلحة وذات المفسدة ليستا مناطين للحكم ، إنّما وجود مصلحة ومفسدة في الأفعال بصفة عامة جعل بعضها حراماً وبعضها حلالاً . ردّ هؤلاء بأنّه أية مصلحة تعود الى المكلّف أو أية مفسدة تدرأ عنه لو لم تكن في ذات التكليف مصلحة أو مفسدة . قال : فإنّ الضرورة قاضية بعدم المصلحة في جعل المكلفين في الكلفة إلا ايصال المصالح إليهم وتبعيد المفاسد عنهم ، وإلا فأيّ مصلحة تقتضي جعلهم في الكلفة مع عدم رجوع المنفعة اليهم .

هذا وقد تواترت الأخبار معنىً بمضمون قوله - صلّى الله عليه وآله - : « ما من شيء يقربكم الى الجنة ويبعدكم عن النار إلاّ وقد أمرتكم به ، وما من شيء يقربكم الى النار ويبعدكم عن الجنة إلاّ وقد نهيتكم عنه » الصريح في انبعاث الأحكام عن المصالح والمفاسد في الأفعال[1] .

ثانياً : استدلّ على أنّ العقل يدرك ولو بصورة جزئية الحسن والقبح في الأفعال بالضرورة وقال : ولو لا ذلك لما ثبت أصل الديانة ، ولزم افحام الأنبياء اذ اثبات النبوة العامة فرع إدراك العقل لقاعدة وجود اللطف . كما ان اثبات النبوة الخاصة بظهور المعجزة على يد مدّعيها فرع إدراك العقل قبح اظهار المعجزة على يد الكاذب[2] .

ثالثاً : واستنتج - أخيراً - من تبعيّة الأحكام للمصالح والمفاسد والحسن والقبح ، ومن قدرة العقل على إدراك بعض المصالح والمفاسد على أن العقل لو افترضنا وادرك حسن شيء أو قبح شيء لزم من ذلك معرفة الحكم الشرعي ، أليس كلّ حسن مأموراً به

---

(١) اجود التقريرات / ج ٢ ص ٣٧ .

(٢) المصدر .

وكلّ قبيح منهيّاً عنه ؟ .

وقد نقل عن صاحب الفصول كلاماً مفصلاً يشكك عبره في قدرة العقل على إدراك المصالح والمفاسد ، وأجاب عنها جميعاً بأننا نفترض حالة إدراكه . .

والواقع أنّ حديث صاحب الفصول يصبّ أكثره في المنهجية حيث ينفي قدرة العقل ـ وحده ـ على كشف ملاكات الشريعة ، وسوف نناقش ذلك لاحقاً إنشاء الله .

ولا ريب أنّ بعض الردود على كلامه ضعيف ، ومنافٍ لصريح الأحاديث ، وأيضاً لما عليه فقهاؤنا من ردّ القياس في الدين ومنهم الاستاذ النائيني ـ رحمه الله ـ كما نقلنا عنه سابقاً . .

ولذلك فإنّنا نفضل إحالة القضية منذ البداية الى محكمة الوجدان ليرجع كلٌّ الى عقله ويستثيره ، ويستنطقه هل يستقلّ بمعرفة الأحكام بعد تذكرة الوحي ؟ ويأتي الجواب بنعم من قبل مَنْ ألقى السّمع وهو شهيد .

أمّا بدون ذلك فإنّ العقل يبقى في سباته ولا يقاوم جبت الهوى والثقافة الباطلة والتربية المنحرفة . .

٣ ــ مناهج القياس

حينما تلامس النفس البشرية أرجاء الحقيقة بنور العقل تستريح وتغمرها السكينة والاطمئنان . . ولكنها حين تفقد هذا النور ، وتعيش ظمأ الحقيقة . . يجب عليها أن تبحث عنها بلا كلل . وإذا كانت بينها وبين الحقيقة حجب باطنية كالكبر والحسد والغرور . . سعت في تزكية النفس وتطهيرها منها . وإذا منعتها عن معرفة الحقيقة حجبٌ واقعية مثل انعدام الوسائل الكفيلة بالمعرفة ، كضعف البصر أو بُعد المسافة فعلى النفس أنْ تعترف أولاً بذلك لكي يسعى الإنسان جاهداً لتوفير الوسيلة المناسبة . . مثلاً منظاراً مقرباً أو مطيّة تقرب المسافة الى حيث الحقيقة . ثم تبحث عنها فتجدها .

أما إذا أصابه غرور العلم وملأ نفسه بظنون الهوى ، وزعم أنّه قادر على معرفة الحقيقة كلها بما أوتي من وسائل محدودة فهنالك تقع المصيبة الكبرى تصوَّرْ أنّك حين لا تعرف اللغة الصينية ، فتعترف بذلك ماذا تفعل ؟ تذهب الى معلم يعرّفك بهذه اللغة ، ولكن إذا زعمت أنّك قادر على معرفة هذه اللغة بنفسك وبما تتصوّره من معاني كلماتها الغريبة ، فإنك قد تخترع لغة جديدة ولكنك لن تتعرف على اللغة الصينية . .

كذلك نشأت مشكلة القياس في الإنسان حيث كان من الصعب عليه أن يقاوم غروره ويعترف بأنه لم يؤت علم كل شيء فأخذ يملأ فراغ نفسه بالأوهام والظنون . ويصّور الإمام عليّ ـ عليه السلام ـ هذه الحالة عندما يصف طائفة من الناس ويقول :

« وآخر قد تسمّى عالماً وليس به ، فاقتبس جهائل من جهّال ، وأضاليل من ضلّال ، ونصب للناس أشراكاً من حبائل غروره وقول زوره قد حمل الكتاب على

آرائه ، وعطف الحق على أهوائه »[1] .

وتصبح المشكلة بالنسبة إليه مضاعفةً إذ أنّه لا يصل الى الحقيقة ولن يبلغها لأنّه يعتقد أنّه قد عرفها ، وهذا الاعتقاد يمنعه من السعي نحوها مستقبلاً أو قبول كلام من ينبئه عنها .

وأول غرور الإنسان زعمُه بأنّه أُوتي القدرة على العلم بذات الله سبحانه ، فأخذ يقيس ربه بنفسه جهلاً بمقامه . . ثم جرى على ذلك فأخذ يقيس دينه بأهوائه .

يقول الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ :

قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ : قال الله جل جلاله : ﴿ **ما آمن بي مَنْ فسّر برأيه كلامي ، وما عرفني مَنْ شبَّهني بخلقي ، وما على ديني مَنِ استعمل القياس في ديني** ﴾[2] .

إننا نجد كيف اتصلت ضلالة تشبيه الله بضلالة القياس في دينه ، لأنّهما ينتهيان معاً الى إشباع غرور الإنسان عبر القياس . .

وتاريخياً إنّما نشأت فكرة القياس التي استولت على الفكر اليوناني بسبب هذا الغرور الجامح بعد اكتشاف قوانين الهندسة ، حيث زعموا أنّهم قادرون على كشف كل حقائق الكون عبرها ، فاندفعوا يقيسون كل شيء بمعادلات هندسية ، فضلّوا وأضلّوا أجيالاً متمادية من البشر .

يقول عن ذلك براتراند راسل[3] بعد أنْ يسمّي المذهب التعقلي بـ(السنة المأثورة) او « المذهب الكلاسيكي » يقول : الدافع الأول والبسيط الذي كان وراء هذا المذهب اعتقاد حكماء اليونان الساذج بالقدرة المطلقة للتعقل والاستدلال « القياسي » .

لقد أشبعهم اكتشاف الهندسة غروراً وسكراً حتى زعموا بأنّ منهج القياس الذي استخدم فيها يمكن أنْ يستعمل بصورة مطلقة وكليّة « وفي كل شيء » .

كانوا يزعمون : أنّ الحقيقة أمرٌ واحدٌ ولا تعدد فيها ، وليس عالم الحس سوى غرور وأوهام محضة ، ولم يرفّ لهم جفنٌ بسبب غرابة هذه النتائج . بل كانوا من شدّة الاعتقاد

(١) نهج البلاغة / خطبة ٨٧ ص ١١٩ .

(٢) بحار الأنوار / ج ٩٢ ص ١٠٧ .

(٣) فيلسوف انجليزي استفاد من الرياضيات في الفلسفة والمنطق .

« بمنهج القياس » قد بلغوا درجة زعموا أنّ بإمكانهم إصدار أعظم وأغرب الأحكام فيما يتّصل بالحقائق الكلية دون أنْ يشكّوا في صحتها بسبب معارضتها للتجارب الحسية[1].

ويرى أنّ السبب الرئيسي للأخطاء التي تورّطت فيها الفلسفة اليونانية أنّهم تكلّفوا علماً لم يُؤتَ الإنسان ـ يومئذٍ ـ أدوات معرفته[2].

وقد تنبّه المسلمون ، مبكراً إلى هذه الثغرة الواسعة في المنهج اليوناني المنطقي والفلسفي ولذلك لم تتأثر ثقافتهم به إلاّ عند شريحةٍ معينةٍ منهم .

فمعارف التفسير والحديث والرجال والعقائد ظلّت قائمة على أساس منهجهم القرآني المتميّز بالدلائل الفطرية والوجدانية ، وإنْ لم تتبلور هذه المناهج بصورة كافية ..

بلى ، استحدث علم الكلام ، واستفاد من المنهج الفلسفي للرّد على شبهات المتفلسفين من المسلمين ، واستفاد البعض من القياس الذي اعتمد على فهم ملاكات الاحكام ، بينما اعتبر الآخرون منهج القياس غير مناسب لفهم أحكام الدين ، وملاكاتها .

واعتراضات العلماء المسلمين على المنطق الأرسطي هي ذاتها التي أصبحت اليوم واضحة حتى لطلاب الثانوية . ولو لا التوقّف الحضاري الذي طرأ على المسلمين بعد الحروب الصليبية الطوفان التتري لكانت المناهج القرآنية قد فتحت آفاق المعارف أمام البشرية .

ولكن المعروف أنّ قبساً من نور القرآن شعّ على العقل الغربي فأناره ، وأنار له العالم ، وتقدم في حقول العلوم .

إنّك تجد رحلة الغزالي من الشك الى اليقين قد سبقت رحلة ديكارت بقرون ، ولكنّها لم تثمر تلك النتائج التي كانت لرحلة ديكارت .

وإنّ مناقشات علماء المسلمين لعقم المنهج الكلاسيكي سبقت مناقشات بيكون ، ولكنها ذهبت أدراج حالة التخلّف التي أصابتهم .

فمثلاً تجد ابن حزم يرى أنّ أقوال المتكلمين معتزلةً كانوا أم أشاعرة ام سواهم في

---

(١) براترند رسال ـ علم مايه عالم خارج / ترجمة منوجهر بزركمر / فارسي /ص ١٩

(٢) المصدر.

باب ما هية الله وتركيب الجوهر ، وطبيعة المسؤولية الخلقية . . الخ جميعها باطلة ، وعليه فينبغي للإنسان أنْ يسلّم بامتناع تحرّي الحقيقة في مثل هذه الخفايا بالعقل وبصورة أخص سر ماهية الله وطرقه الحكيمة[1] .

وحسب ما ترى إنّ هذه الفكرة هي ذاتها التي نقلناها من الفيلسوف البريطاني براتراند راسل . . من أنّ اليونانيين ومن اتّبعهم تكلّفوا علماً لم يؤتوا أدواته . .

وعن المنطق الأرسطي يقول فخر الدين الرازي : قد تأمّلتُ الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتُها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ، ورأيتُ أقرب الطرق طريقة القرآن . ويدّعي أنّ من جرّب تجربته لن يشكّ في عدم جدوى هذه المناهج[2] .

وخلاصة النقد الموجّه ـ حديثاً ضد هذا المنطق ـ هي التالية :

١ ـ أنّ المنطق الأرسطي اهتّم بشكل التفكير ، وغفل عن مادته .

٢ ـ أنّه لم يهتم بدور السلبيات البشرية « كالهوى والغضب » في إضلال البشر . ولا بدور الإرادة والعقل في مقاومة هذه السلبيات .

٣ ـ أنّه كان يعيش في دور طفولة البشر حيث كان يزعم الإنسان أنّه قادر على إدراك كل شيء بترتيب بعض الأقيسة .

٤ ـ أنّه كان يبحث عن المطلق ، ممّا جعله يغفل عن الحقائق وعما بيّنها من فوارق عظيمة . مما هو وظيفة العلم .

٥ ـ وقد تنّبه المفكرون المسلمون الى هذه الثغرات ، وأشاروا اليها بوضوح[3] .

والمحدثون من علمائنا أشاروا الى بعض تلك الثغرات ، وحذروا من مغبّة الاعتماد على المناهج القياسية التعقلية .

وقبل أن ننقل كلماتهم في ذلك نذكر بأنّ حديثهم هذا لا يتعلّق بمباحث القطع ، بل بأساليب الوصول الى الحكم الشرعي ، إذ من الواضح أنّه حينما يلتفت الإنسان الى أنّ الطريق الى العلم لا يمر عبر المناهج التعقلية يصبح أكثر حذراً ولا يغتر بها . ومن ثمّ لا

---

(١) تاريخ الفلسفة الاسلامية / ص ٤٣٢ .

(٢) المصدر / ص ٤٣٣ .

(٣) راجع : المنطق الاسلامي اصوله ومناهجه للمؤلف / ص ٥٦ . وتاريخ الفلسفة الاسلامية / ص ٤٢٩ ـ ٤٣٦ .

يزعم أنه قد أوتي العلم ، أو حصل عنده القطع بالحكم . ولذلك لا يجوز أنْ نعترض عليهم بالقول : كيف إذا حصل للفرد القطع من خلال هذه المناهج ؟ لأنّهم يرون أنّ القطع لا يحصل من هذه المناهج لمن التفت الى كلماتهم في الاعتراض عليها .

دعنا نستمع الى كلام المحدث الاستر آبادي الذي يحكيه عنه شيخنا الأعظم الأنصاري ، والذي يعكس نقله من دون تعليق ميله إليه ، قال :

الدليل التاسع مبنّي على مقدمة دقيقة شريفة تفطّنتُ لها بتوفيق الله تعالى وهي : أن العلوم النظرية قسمان : قسم ينتهي الى مادة هي قريبة من الإحساس ، ومن هذا القسم علم الهندسة والحساب وأكثر أبواب المنطق . وهذا القسم لا يقع فيه الخلاف بين العلماء ، والخطأ في نتائج الأفكار ويضيف : وقسم ينتهي الى مادة هي بعيدة عن الاحساس ، ومن هذا القسم الحكم الإلهية والطبيعية وعلم الكلام وعلم اصول الفقه والمسائل النظرية الفقهية وبعض القواعد المذكورة في علم المنطق . ومن ثم وقعت الاختلافات والمشاجرات بين الفلاسفة في الحكمة الإلهية والطبيعة وبين علماء الإسلام في أصول الفقه ومسائل الفقه وعلم الكلام وغير ذلك . والسبب في ذلك أنّ القواعد المنطقية انما هي عاصمة من الخطأ من جهة الصورة لا من جهة المادة ، إذ أقصى ما يستفاد من المنطق في باب الأقيسة تقسيم المواد على وجه كلي الى أقسام وليست في المنطق قاعدة بها يعلم أنّ كل مادة مخصوصة ، داخله في أيّ قسم من الأقسام ومن المعلوم امتناع وضع قاعدة يكفل بذلك(١) .

وهذا الأمر الذي التفث اليه بتوفيق الله سبحانه المحدث الاستر آبادي التفت اليه من قبله علماء كثيرون .. كما أصبح اليوم جزءاً من معارفنا الحديثة التي لا يختلف فيها عالمان .

قال الشيخ : والمستفاد من كلامه عدم حجّية إدراكات العقل في غير المحسوسات وما يكون مباديه قريبة من الإحساس اذا لم يتوافق عليه العقول . وقد استحسن ما ذكره غير واحد مما تأخّر عنه منهم السيد المحدث الجزائري ـ قدّس سره ـ ثم قال : « وممن وافقهما على ذلك في الجملة المحدث البحراني في مقدمات الحدائق حيث نقل كلاماً للسيد المتقدم في هذا المقام واستحسنه ، إلاّ أنه صرح بحجّية « الدليل » العقلي الفطري الصحيح ،

---

(١) فرائد الاصول / ص ٩ .

وحكم بمطابقته للشرع ومطابقة الشرع له ، ثم قال :

لا مدخل للعقل في شيء من الأحكام الفقهية من عبادات وغيرها ولا سبيل إليها إلّا السماع عن المعصوم لقصور العقل المذكور عن الإطلاع عليها[1]..

وقد استدل المحدثون على قولهم بما خلاصته تعود الى الحجج التالية :

الأخطاء والاختلاف

إذا كانت المناهج العقلية « ويقصدون بها مناهج القياس المعروفة في الفلسفة والمنطق » عاصمة عن الخطأ . . فما هذه الأخطاء الفظيعة التي لا نشكّ نحن اليوم ولا أحد من الناس فيها .. والتي وقعت فيها البشرية خلال القرون الماضية .

إن الثقافة اليونانية في الإلهيّات والطبيعيات والأمور الإنسانية سلسلة لا تنتهي من الأخطاء والضلالات،فهل يبقى عندنا ثقة بتلك المناهج التي قادتهم إليها ؟ وإذا كانت هذه المناهج وسيلة لحسم الخلاف ، وبلوغ الحقائق الواضحة ، فلماذا الاختلاف الواسع بينهم ؟

فبعكس الرسالات الإلهيّة التي كانت أُولاها تصدق أُخراها ، ترى المذاهب الفلسفية يكفر بعضها بعضاً ، ويدّعي كلٌّ أن الوجدان والبديهة ، وشهادة المقاييس كلها تقف الى جانبه .

والى ذلك يشير المحدث الاستر آبادي بقوله : « إنّ المشّائين ادّعوا البداهة في أنّ تفرق ماء الكوز الى كوزين إعدامٌ لشخصه وإحداثٌ لشخصين آخرين . وعلى هذه المقدمة بنوا إثبات الهيولي ، وان الإشراقّيين ادّعوا البداهة في أنّه ليس إعداماً للشخص الأول وإنّما انعدمت صفة من صفاته وهو الاتصال »[2] .

وقد أجاب الشيخ الانصاري عن هذه الإشكالية بأن الاختلاف ناشيء ايضاً في الاحكام الشرعية بين الفقهاء فقال : « فلو سلم وأغمض عن المعارضة بكثرة ما يحصل من الخطأ في فهم المطالب من الأدلة الشرعية[3] ولكن المحدث الاسترآبادي كان قد أجاب عن مثل هذا الاشكال بما خلاصته ان الاختلاف الموجود في الاحكام الشرعية

(١) المصدر / ص ١٠ .

(٢) المصدر /ص ٩ .

(٣) المصدر / ٨ .

منشؤه المناهج القياسية التي تبعث فيها قال : « فان قلت لا فرق في ذلك بين العقليات والشرعيات والشاهد على ذلك ما نشاهده من كثرة الاختلافات الواقعة بين أهل الشرع في أصول الدين وفي الفروع الفقهية قلت : إنما نشأ ذلك من ضمّ مقدّمة عقليّة باطلة بالمقدّمة النقليّة الظنيّة أو القطعيّة[1] .

والواقع : أن هذه الإشكاليّة هي الثغرة الواسعة في جدار الفلسفة كما في جدار أيّ منهجٍ آخر يدّعي رَفع الاختلاف ثم يعجز عن ذلك أو يزعم بلوغ الحقائق ويوقع الإنسان في أخطاء كبيرة .

والنقض بما يوجد عند بعض المتشرعة من اختلافات مخدوش بما يلي :

أولاً : إن هؤلاء لم يلتزموا بالمنهج الشرعي بل أدخلوا فيه المناهج البشرية ، وهذا الرد هو ما أشار اليه المحدث الاستر آبادي آنفاً .

ثانياً : إن الأحكام الشرعية أكثرها ظاهرية ولا يدّعي الفقهاء أنّها حقائق نهائية . بينما يدّعي أصحاب المنهج الآخر انّه يؤدّي بهم الى عين الحق ، وبهذا الادّعاء يزعمون أنّه كلما حكم به العقل حكم به الشرع . فالاختلاف لا ينقض الأحكام الفقهية التي هي وظائف المكلفين بينما ينقض ادعاء أولئك .

ثالثاً : اذا قسنا اختلاف المؤمنين بالشريعة الإسلامية والتابعين لنهج الأئمة ـ عليهم السلام ـ بما لدى أُتباع المنهج الفلسفي لرأيناه شيئاً ضئيلاً . ويعود عادة الى أمور ثانوية . بينما الاختلاف عند الفلاسفة واتباعه يطال كل الأمور تقريباً .

خفاء الملاكات الشرعية

بما أنّ الحكم العقلي يعتمد على فهم الملاك الذي هو علة الحكم وفلسفته ، وحكمته ، حتى يمكن تعميم الحكم وفق ذلك الملاك ، فإن خفاء الملاك الشرعي يجعل العقل حائراً ، ولا يدعه واثقاً من نفسه في الحكم بشيء .

وقد افاض صاحب الفصول في الحديث عن هذا الجانب ـ حسب أجود التقريرات ـ حيث جاء فيه :

« ثم إنّ صاحب الفصول ذهب الى إنكار الملازمة من الطرفين « بين العقل والشرع »

---

(١) المصدر / ص ٩ .

واستدلّ عليه بوجوه : يرجع بعضها الى دعوى وجود الحكم الشرعي مع عدم وجود الملاك في مورده وبعضها الى دعوى وجود الملاك مع عدم وجود الحكم الشرعي في مورده[1] ثم أخذ يبيّن أمثلة شتّى على كلامه،منها :

الأوامر الامتحانيّة التي هدفها مجرد الأمر والانقياد ، لا الملاك في المأمور به .

ومنها قوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ : « لو لا أنْ أشقَّ على أُمتي لأمرتهم بالسواك مع كلّ صلاة »[2] .

ومنها قول الأئمة ـ عليهم السلام ـ : « اسكتوا عمّا سكت الله ، فإنّ الله لم يسكت عنه نسياناً » إلخ ..

ومنها النهيُ عن العمل بالقياس مع أنّه قد يصادف الواقع . ومنها : أنّ الملاك إنّما يتحقق بقصد القربة ، وقصد القربة لا يمكن الأمر به .

ومنها : التقية التي تكون في ذات الأمر . والتي نعلم أنّ المأمور به لا ملاك فيه .

وقد ناقش في أجود التقريرات هذه الوجوه الواحد بعد الآخر ثم قال : فما ذهب اليه ـ قدّس سره ـ من إمكان انفكاك الحكم عن الملاك وبالعكس واستدلاله على ذلك بهذه الوجوه الضعيفة لم يكن مترقّباً منه[3] .

حقاً إنّ بعض الوجوه ضعيفٌ إلّا أنّ الإنصاف يقتضي القول بأنّ بعض المناقشات فيها أضعف منها .

وقد غاب عن المعترض أنّ مَدّعى صاحب الفصول هو التشكيك في قدرة العقل على كشف حقائق الشرع لأنّها غامضة ومتعدّدة الاهداف ، فقد يكون الهدف مجرد تجربة الفرد في مدى استجابته للأمر ـ كما أمر الله إبراهيم بذبح ابنه ـ وقد يكون في مجرد إصدار الأمر ، كما في بعض الأوامر الصادرة تقيّة . وقد يتعارض أكثر من ملاك في أمر واحد مثل أوامر التقية أو الأوامر الظاهرية . والعقل يحذر الإنسان عند تذكّر هذا الواقع من التسرّع في الحكم ، بل قد يصاب الإنسان بإحباطٍ ولا يثق بنظرته ذات البعد الواحد الى القضايا . ويبدو أنّ حكمة أمر الأئمة ـ عليهم السلام ـ بالسكوت عما سكت الله ،

---

(١) اجود التقريرات / ج ٢ ـص ٣٨ .
(٢) بحار الأنوار / ج ٧٦ ص ١٢٦ .
(٣) اجود التقريرات / ج ٢ ـ ص ٤٠ .

وكذلك حكمة نهيهم عن القياس ، هو بالضبط كَسرُ غرور الإنسان الذي يزعم أنه قادر على فهم حقائق الدين ببعض المعارف البسيطة التي يحصل عليها .

وأساساً إن المشتغلين بالأقيسة والمعتمدين على المناهج الفلسفية قد يصيبهم الغرور الجامح ويقطعون بما يوصلهم إليه منهاجهم الخاطىء . فهل نعذرهم في ذلك . أوَ لا تشملهم نصوص النهي عن القياس أو عن تكلُّف علم ما سكت الله عنه ، أو النصوص التي تحذّر من التكلّم في الدين بالعقل ؟ كلا . . بل هم المقصودون من هذه النصوص ، وكان عليهم اختيار الصراط المستقيم الذي هداهم الله إليه . وهو صراط الوحي . . وأهل بيته فلما اختاروا سبيلاً آخر وضلّوا فقد احتملوا إثم اختيارهم !

وبكلمة : إن حديث صاحب الفصول وغيره من علمائنا الكرام المحذرين من ارتياد هذا الطريق الشائك من محدثين وغيرهم ، إنّما هو تابعٌ لنصوص أهل البيت . وهدفه هو هدفها ، من التحذّر من السبيل الخاطىء الذي يختاره البعض في البحث عن الحكم الشرعي . وإتيان البيوت من ظهورها ، وتجنّب الباب الذي أمر الله باختياره .

خلاصة الافكار

وكلمة الخلاصة التي نرجو أن تكون كلمة الفصل أيضاً تحدَّد بالنقاط التالية :

أولاً : إنّ التأمّل في كلمات الفقهاء يهدينا الى محاولة جادة عند بعضهم للتوفيق بين منهجين مختلفين بل ومتناقضين :

ألف ـ منهج الإسلام الذي ينهىٰ عن القياس بشدّة بالغة . ويحدّد السبيل الوحيد لمعرفة الدين وهو الوحي واهل بيته ، والفقهاء ملتزمون بهذا المنهج .

باء ـ منهج الفلسفة واعتماده على المناهج المنطقية التي تزعم أنها تعتمد على العقل كوسيلة لفهم الحقائق .

وهذه المناهج يرفضها الفقهاء عادة في الفقه . ولكنهم في علم الكلام وربما في الاصول يأخذون ببعضها لمجرد ردّ الشبهات الآتية من أصحابها على مناهج الدين ردّاً قائماً على اسسهم . وبتعبير آخر استخدام سلاحهم ضدهم !!

ويبدو لي أن الحلقة المفقودة في هذا الوسط تتمثل في معرفة العقل .. فاشتباه البعض في معناه جعله يخلط بين ما يسميه الحكماء والمتكلمون بالعقل والمناهج العقلية .

وبينّ ما جاء في القرآن الكريم ـ فوقع في تناقض عظيم ـ فاذا كان العقل هو ما يقصده الفلاسفة فلماذا لا يجوز القياس في الدين ؟ أَوَليس العقل رسولاً باطناً ، وشرعاً إلهياً في داخل الانسان ؟ أوليس الشرع أساساً قائماً على أساس العقل ؟ فلماذا النهي عن الالتزام به ؟ كلا . . العقل في الكتاب والسنّة ليس هو الذي يزعمه الفلاسفة وقد سبق كلام العلامة الميرزا الاصفهاني في الفارق بينهما . .

وإذا ثبت الفرق فإنّ الإسلام نهى عن مناهج الفلاسفة التي يسمونها بالعقل وهي ضلالة بينما أمر بالعقل الحق الذي هو نور الله وشرعه ورسوله الداخلي .

ثانياً : ان العقل كما الشرع . . يأمر بجوامع العلم ، وأصول الأحكام ، وهما في ذلك لا يختلفان . فالله سبحانه يأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي . .

وينهى ربنا عن الشرك ويأمر بالإحسان الى الوالدين والإنفاق على ذوي القربى والمساكين و . . .

وكل ذلك وصايا العقل أيضاً ، وبين العقل والوحي ذلك التطابق العظيم الذي هو دليل صدق الوحي . أمّا في الفروع فإنّ العقل يملك مناهج بكيفية الاستفادة من الأصول العامة لمعرفة حكمها . وقد ذكّر الدين أيضاً ببعض تلك المناهج بالخصوص وذكّر بضرورة العودة الى العقل في غيرها .

فإذاً لا يوجد لدينا موضوع يستقلّ فيه العقل ـ ومن دون الشرع ـ في إصدار حكم شرعي . إذ لا يوجد أي موضوع نفقد فيه حكم الشرع عامّاً أو خاصّاً . . فلماذا هذا الاختلاف العريض[1] ؟

ثالثاً : وللدين مناهجه الخاصة[2] في البحث أشار اليها القرآن الكريم وأوضحها السنّة الشريفة واتّبعها علماء الإسلام بعفوية وبلا تكلّف . . وهي غريبة عن مناهج الفلسفة ومتناقضة احياناً معها . وعلماء الإسلام السابقون ـ كما سبق الحديث عن ذلك ـ قد اتبعوا عملاً بتلك المناهج .

---

(١) سنذكر ـ انشاء الله ـ في الجزء الثالث قيم الشريعة ومقاصدها اعتماداً على الكتاب والسنة وهي ذاتها ملاكات الاحكام و بذلك يكون علمنا بها علماً قائماً على النص كما هو قائم على العقل .

(٢) ذكر المؤلف هذه المناهج في كتابه (المنطق الاسلامي اصوله ومناهجه) .

رابعاً : ولاية أولياء الله وفي طليعتهم رسل الله والأئمة المعصومين عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه هي بذاتها محور الدين ، وعمود الشريعة ، وشرط التوحيد . ولا يقبل الله عملاً من دونها . ولذلك لا ريب في أنّ المطلوب هو اتّباعهم في أمر الدين ، ومن دون اتّباعهم يكون العمل لاغياً . وحتى لو عرفنا مطابقته لأمر الله يقيناً ..

والنصوص في ذلك متواترة معنىً ويبدو أنّ ذلك يعتبر من ضرورات المذهب الحق .

من خلال هذه الأمور الأربعة نستطيع ان نرفع الاختلاف في كلمات الفقهاء رضوان الله تعالى عليهم . حيث أنهم إذا نهوا عن القياس والمناهج التعقلية ـ كما فعل المحدّثون ـ فليس لأنهم ينفون العقل الفطري المستنير بالوحي الإلهي بل لأنهم لا يؤمنون بما يسميه الفلاسفة عقلاً أو لأنها يعتبرون اتباع اولياء الله شرطاً لصحة العمل مثلاً المحدّث البحراني يقول مرة :

« لا مدخل للعقل في شيء من الأحكام الفقهية من عبادات وغيرها ، ولا سبيل اليها إلّا السماع عن المعصوم لقصور العقل المذكور عن الاطلاع عليها »[1] .

ولكنه يعود ويؤكد أهمية العقل ويقول :

« وأما لو أُريد المعنى الآخر « للعقل » وهو الفطري الخالي من شوائب الأوهام الذي هو حجة من حجج الملك العلام ، وإن شذّ وجوده في الأنام ففي ترجيح الدليل النقلي عليه إشكال »[2] .

من هنا يظهر : أنّ العقل الذي يراه ـ صاحب الحدائق ـ حجةً هو ما أشارت إليه الآيات وصرّحت به السنّة ، من النور الإلهي الذي أودعه الله في القلب وبه يعرف الإنسان ربّه ويميّز الخير عن الشرّ ، بينما العقل المصطلح عليه عند فلاسفة اليونان الذي هو مجموعة تصورات وتصديقات فإنّه ليس بحجة عنده في الدين، ولكن أي عقل، انما العقل الذي هو نور الله وحجة الله، لا العقل المصطلح تأمل في كلامه التالي حيث يقول :

اما الاصوليون مثلاً الشيخ الانصاري ـ قدس سره ـ حكّم العقل ، « ما ورد من النقل المتواتر على حجية العقل وأنّه حجة باطنة ، وأنّه ممّا يعبد به الرحمن ويكتسب به

(١) الفوائد / ص ١٠ .

(٢) المصدر .

الجنان ونحوهما ممّا يستفاد منه كون العقل السليم أيضاً حجةً من الحجج ، فالحكم المستكشف به حكم بلغه الرسول الباطني الذي هو شرع من داخل كما أنّ الشرع عقلٌ من خارج[1] إذا قالوا ذلك فلا يعني مطلق العقل ، بل العقل الذي هو شرع الله من الداخل حيث ينفي العقل المصطلح ويقول في تأويل بعض الأخبار الرادعة عن العمل بالعقل: « أنّ المقصود من أمثال الخبر المذكور عدم جواز الاستبداد بالأحكام الشرعية بالعقول الناقصة الظنية على ما كان متعارفاً في ذلك الزمان من العمل بالأقيسة والاستحسانات[2] .

ولذلك فإنّه ـ قدّس الله سره ـ يقول في موضع آخر من كلامه : فلو خاض فيها « في المطالب العقلية » وحصل القطع بما لا يوافق الحكم الواقعي لم يعذر في ذلك لتقصيره في مقدمات التحصيل[3] .

وهكذا تجد الاستاذ الكبير الميرزا النائيني حسب أجود التقريرات يقول وهو يثبت حكم العقل :

« إن القطع الطريقي لا يفرّق فيه بين افراده ، ولا يمكن التصرّف فيه أصلاً لا من جهة الأشخاص ، ولا من جهة الأزمنة والأسباب لما عرفت من أنّ طريقيته ذاتية غير قابلة لتعلّق الجعل بها إثباتاً ونفياً »[4] .

ولكنه يقول مستدركاً ومبيّناً أن هناك شروطاً لقبول حكم العقل :

« وإذا أمكن أخذ القطع بالحكم في موضوعه بدليلٍ آخر فيمكن أخذ القطع بالحكم من سببٍ خاص مانعاً عنه أيضاً . وهذا كما في القطع القياسي . فإنّ المستفاد من رواية أبان عدم اعتبار القطع الحاصل من القياس . وهذا انما يكون باعتبار تقيّد الأحكام الواقعية بأنْ لا تكون معلومة من طريق القياس من باب نتيجة التقييد . ففي الحقيقة موضوع تلك الأحكام مَنْ لا يكون عالماً بها من طريق القياس »[5] .

وبهذا نجد حلاً للمشكلة العتيدة التي قامت بين مدرستي الاصولية الاخبارية

---

(١) المصدر / ص ١١ .

(٢) المصدر .

(٣) المصدر / ص٩ .

(٤) اجود التقريرات / ج ٢ ـ ص ٧

(٥) المصدر / ص ٨ .

فالاخبارية نفوا العمل بالعقل المصطلح عند الفلاسفة بينما المدرسة الاصولية امنوا بالعقل حسب المنهج الديني وهذا لم يؤمن فيه الاخباريون ايضاً .

٤/هل يجوز التعبّد بالقطع؟.

وهذا هو السؤال الرابع والأخير الذي طرحناه في مستهل بحوثنا هذه ، حيث قلنا إذا حصل القطع عبر وسائل غير متعارفة « الأقيسة ، الجفر والرمل وما أشبه » فهل يجوز التعبّد به شرعاً . . ؟

قال بعضهم : بما أن القطع يجعل الانسان على اعتقاد راسخ بأنّ ما قطع به هو حكم الله فإنّ اتّباعه يكون ضرورياً ، بل لا يمكن ينهىٰ عنه الشرع ،لأنه ـ حينئذ ـ يوجد التناقض في الدين . دعنا نضرب مثلاً : اعتقد المكلف يقيناً بأن غسل الجمعة حكمٌ مفروض عليه ، ولكنّ اعتقاده هذا جاء بسبب إقامة البرهان العقلي ، أو القياس أو الاستحسان أو الجفر أو علم النجوم أو ما أشبه . فاذا جاء نصٌّ ينفي هذه السبل المؤدية الى الحكم الشرعي يحصل عنده التناقض . فمن جهة يرى أنّ الله أوجب عليه الغسل يوم الجمعة ولكنه ـ من جهة اخرى ـ يرى أنه لم يوجبه .

وقال البعض : كلا لا تناقض في هذا الأمر . . لأنّ الشارع إذا ألغى هذه السبل وحدد سبيلاً واحداً لمعرفة الشريعة وقال مثلاً : ﴿ **واتّبعوا النور الذي أُنزل معه** ﴾ ، ﴿ **وهذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتّبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ فإن ذلك يعني : أنّه حدّد الأحكام بتلك التي تصل المكلّفين عبر هذا السبيل وحده ، بينما تعتبر سائر الاحكام غير لازمة . ألا يمكن أن يقول الأب لولده الأصغر : اذا بلغك عني اخوك الاكبر بالتسوّق فافعل ، ولا تفعل ذلك فيما إذا علمت ذلك من طريق آخر ؟ بلى يمكن ذلك لأنه في هذه الحالة قد حدّد طلبه بالتسوّق بوضع معين أي بشرط أن يبلغ

وجوبه عبر قناة معينة ..

وهذا هو الذي سمّاه الاستاذ الميرزا النائيني ـ حسب أجود التقريرات ـ باتخاذ القطع موضوعاً في الحكم . واستظهر الإجماع على أنّ الشريعة قد حددت ـ فعلاً ـ أحكامه بما تصل الى المكلفين عبر سبل معينة . . ليس بينها القياس والاستحسان وما اشبه[1] .

أما الشيخ الأعظم الأنصاري فقد تخلص عن ذلك بطريقة أخرى حيث احتمل أن يكون من باب التقصير في مقدمات حصول القطع مثل سلوك طريق المطالب العقلية .

وقد ذهب المحدثون الى أن القطع الحاصل من غير سبيل أهل البيت ، يعتبر لاغياً، يقول في أجود التقريرات :

« إنّ الذي يجتمع عليه كلماتهم هو دعوى لزوم توسّط الأوصياء ـ سلام الله عليهم ـ في التبليغ ، فكل حكم لم يكن فيه وساطتهم فهو لا يكون واصلاً الى المرتبة الفعلية والباعثية ، وإنْ كان ذلك الحكم واصلاً الى المكلف بطريق آخر »[2] .

ولم ينف الاستاذ النائيني ـ قدّس سره ـ إمكانية هذا التقييد ولكنّه نفى وجود دليلٍ مقنع على ذلك . كذلك فعل الشيخ الأنصاري ـ قدّس سره ـ نفى مثل هذا الدليل . . وأضاف : نعم ، الإنصاف أنّ الركون الى العقل فيما يتعلق بإدراك مناطات الأحكام لينتقل منها الى ادراك نفس الأحكام موجبٌ للوقوع في الخطأ كثيراً ، في نفس الأمر وان لم يحتمل ذلك عند المدرك[3] ثم نقل رواية أبان واستنبط منها ما يلي : « إلاّ أنّ مرجع الكلّ الى التوبيخ في مراجعة العقل في استنباط الأحكام فهو توبيخ على المقدّمات المفضية الى مخالفته الواقع . وقد أشرنا هنا ـ وفي أول المسألة ـ الى عدم جواز الخوض لإستكشاف الأحكام الدينية في المطالب العقلية والاستعانة بها في تحصيل مناط الحكم ، والانتقال منه اليه »[4] .

أدلة المحدثين في التقييد

وهكذا ينبغي أن نرجع الى الأدلة التي ساقها المحدّثون لإثبات العقل وهي التالية :

---

(١) اجود التقريرات / ج ٢ ـ ص ٨ .

(٢) اجود التقريرات / ج ٢ ـ ص ٤٠ .

(٣) فوائد الاصول / ص١٢ .

(٤) المصدر / ص١٣ .

أولاً : دليل العقل . . أليس العقل يبحث عن ضمانٍ للإنسان في تطبيق الشريعة ؟ فاذا احتمل ان يكون للشارع سبل خاصة لتبليغ الأحكام وأنه لا يريدها الا عبر تلك الرسل ، كيف يطمئن العقل الى إدراك الأحكام بالقياس والاستحسان ؟

ويبدو لي أن الأدلة الشرعية تشير الى هذا الدليل الفطري كما سيأتي إنشاء الله .

وناقشوا في هذا الدليل بأننا نفترض وجود القطع بالحكم عند المكلّف ومعه لا معنى للشكّ المزعوم .

ولكنّ هذا القطع يعتبر بدوياً سرعان ما يتبدّد إذا تذكّر الإنسان دقة الشريعة ، وطبيعة أحكامها المتصلة بسائر العلوم والمعارف . ومثل ذلك مثل من يقطع بأنّ هذا الألم من مرض معين ، فإذا عرف أنّ تشخيص الأمراض ليس بتلك السهولة لأنه يقتضي الإلمام بعلم الطب المعقّد والمتشعّب زال اليقين منه .

وقد سبق منا القول بأنّ القطع المنطقّي الذي يتحدث عنه البعض يختلف عن العلم واليقين الذي لا ريب في حجيته ، وأنّ العقل الفطري هو الذي يميزّ بين ما تطمئنّ إليه النفس من الحقائق ، وبين ما يلتجىء الى قبولها ببعض الأقيسة الجدلية دون أية سكينة أو طمأنينة . كما أن العقل الفطري يكشف عن عدم جواز الاعتماد على القسم الثاني .

ثانياً : النصوص التي حذرت من الاعتماد على القياس في الدين والتي سوف نستعرض طائفة منها في الباب التالي ، وفيها عبارات شديدة كقوله عليه السلام : « والسنّة إذا قيست محق الدين » .

وهذه الأحاديث تشمل حالات القطع التي تحصل عند اصحابها عبر القياس وذلك بسبب الإيحاء الذاتي والجهل المركب ..

ثالثاً : النصوص المتواترة التي تدلّ على أن الدين كامل ، وأن ما يحتاج اليه العباد متوفّر فيه ، وفي مناسبة أخرى سوف نستعرض بعضاً من هذه النصوص مثل قوله سبحانه : **﴿ فما اختلفوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، إن ربّك يقضي بينهم يومَ القيامةِ فيما كانُوا فيه يختلفُون ﴾**[1] .

تهدينا الآية أنّ الاختلاف إنّما جاء بعد تمام الدين وكماله . وقوله سبحانه : **﴿ فلِلَّهِ**

---

(١) الجاثية / ١٦ .

الحجَّةُ البالغةُ ﴾ .

والنصوص الدالة على أنّ في القرآن تبيان كلّ شيء . والحديث المأثور عن الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : « انتفعوا ببيان الله ، واتّعظوا بمواعظ الله ، واقبلوا نصيحة الله ، فإنّ الله قد أعذر إليكم بالجلية ، وأخذ عليكم الحجة ، وبيّن لكم محابه من الأعمال ، ومكارهه منها لتبتغوا هذه وتجتنبوا هذه »(١) .

ماذا نفهم من هذه النصوص ؟ أوَلا نفهم ان الدين غنيّ عن استخدام القياس ، وعن استنطاق العقل المجرد عن النصوص ؟ واذا كانت هنالك واقعة نحتاج فيها الى العقل المجرد عن النص أوَلا يدلّ ذلك على ان في الدين نقصاً ؟ .

رابعاً : النصوص المستفيضة بل المتواترة معنىً التي تدل على أنّ كل شيء يحتاج اليه الناس متوفر في الكتاب والسنّة . وأن الأئمة ـ عليهم السلام ـ إنّما يحكمون بهما لا بالرأي والقياس . دعنا نستمع الى بعضها :

عن سورة بن كلب قال : قلت لأبي عبد الله « الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ »: بأي شيء يفتي الإمام ؟ .

قال : بالكتاب . قلت : فما لم يكن في الكتاب ؟ .

قال : بالسنّة . قلت : فما لم يكن في الكتاب والسنّة ؟ .

قال : ليس شيء إلاّ في الكتاب والسنّة . قال : فكررت مرة أو اثنين ، قال : يسدّد ويوفّق فأمّا ما تظنّ فلا(٢) .

وفي نصوص مشابهة أكد الأئمة ذلك وقالوا : للراوي : ليس حيث تذهب ، ليس حيث تذهب(٣) .

أوَتَدْري ماذا كان يظنّه الرواة ويذهبون اليه ؟ كانوا يزعمون أن الأئمة يقيسون كما كان يفعل غيرهم أو يقولون بآرائهم ، وقد صرحوا بنفي ذلك بتاتاً :

فقد روي عن ابي عبد الله الصادق ـ عليه السلام ـ : « والله لولا أنّ الله فرض

---

(١) بحار الأنوار / ج ٢ ـ ص ١٨٠ .
(٢) بحار الأنوار / ج ٢ ـ ص ١٧٥ .
(٣) المصدر .

ولايتنا ومودّتنا وقرابتنا ما أدخلناكم بيوتنا ، ولا أوقفناكم على أبوابنا ، والله ما نقول بأهوائنا ولا نقول برأينا ، ولا نقول إلا ما قال ربّنا»[1] .

وفي حديث مأثور يخاطب الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ الراوي قائلاً : « ياجابر ! إنّا لو كنّا نحدّثكم برأينا وهوانا لكنّا من الهالكين ، ولكنّا نحدّثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم »[2] .

وفي بعض الأحاديث التعبير عن تلك الأحاديث بـ « اصول علم عندنا » أو « اصول عندنا » .

وهكذا نستفيد من هذه الطائفة من الأحاديث أنّ كل شيء يحتاج اليه الناس موجود في الكتاب والسنّة ، وأن الأئمة ـ عليهم السلام ـ كانوا يأخذون منهما ولم يفتوا الناس بآرائهم ، فهل يجوز لنا أنْ نفعل ذلك ؟ ولماذا لا نبحث في اصول العلم التي ورّثوها شيعتهم فنأخذ منها بعد التدبّر فيها واستنباط الفروع منها ؟

وهل يجوز لنا أنْ نغلق عن أنفسنا أبواب العلم المشّرعة هذه التي بارك الله لنا فيها ، ونعتمد على عقولنا الناقصة ونزعم أنها تتحفنا بما هي أحقّ واقرب سداداً ؟

خامساً : جملة الأحاديث التي تهدينا الى أخذ العلم من معادنه الصافية ، والنهي عن اتباع أهل الرأي والقياس . ففيها دلالة على عدم جواز الاعتماد على منهج القياس ولا الأخذ من أهله :

جاء في الحديث المأثور عن الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ أنه قال :

يامعشر شيعتنا والمتحلين مودّتنا ، إيّاكم وأصحاب الرأي ، فإنهم أعداء السنن تفلتت منهم الأحاديث أن يحفظوها واعتم السنّة أن يعوها[4] ، فاتخذوا عباد الله خولاً ، وماله دولاً[3] فذلت لهم الرقاب ، وأطاعهم الخلق أشباه الكلاب ، ونازعوا الحقّ أهله ، وتمثّلوا بالأئمة الصادقين ، وهم من الكفار الملاعين ، فسئلوا عما لا يعلمون فآنفوا[5] أنْ

---

(١) المصدر / ص١٧٣ .

(٢) المصدر / ص١٧٢ .

(٣) فاتهم حفظ الأحاديث وصعب عليهم وعي السنة .

(٤) استعبدوا عباد الله واغتصبوا اموالهم وتداولوها بينهم .

(٥) استكبروا عن الاعتراف بجهلهم .

يعترفوا بأنهم لا يعلمون فعارضوا الدين بآرائهم فضلّوا واضلّوا ، أما لو كان الدين بالقياس لكان باطن الرجلين أولى بالمسح من ظاهرهما[1] .

والأحاديث التي ترجع الناس الى رواة الأحاديث وتجعلهم بين الشيعة حكاماً لتدل على هذه الحقيقة .

سادساً : الروايات التي تدلّ على أنّ كل العلوم الإسلامية الصحيحة صادرة من الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وأنّ ما فيها من اختلافٍ فإنّما هو من آراء الناس التي أضافوها الى تلك الأحاديث .

فقد روى محمد بن مسلم عن أبي جعفر الباقر ـ عليه السلام ـ أنه قال :

« أما أنّه ليس عند أحدهم علمٌ ولا حقّ ولا فقه ، إلاّ شيء أُخذ عن علي بن أبي طالب ، وعنا أهل البيت ، وما من قضاء يقضي به بحقّ ولا صواب ، إلا بدء ذلك ومفتاحه وسببه وعلمه من عليّ ومنا . فإذا اختلف عليهم أمرهم قاسوا وعملوا بالرأي . وكان الخطأ من قبلهم إذا قاسوا . وكان الصواب إذا اتّبعوا الآثار من قبل عليّ »[2] .

افلا تدل هذه الرواية على نهي إضافة الرأي والقياس في الدين الى أحاديث الأئمة الأطهار ـ عليهم السلام ـ وأن هذه الإضافة سوف تورث الاختلاف والخطأ ؟

سابعاً : وأبلغ النصوص دلالةً على ضرورة اتّباع الأئمة ـ عليهم السلام ـ فيما يقولون وأخذ معالم الدين منهم وعدم جواز الميل عنهم الى غيرهم أو الى الهوى . . هي النصوص التالية :

« منْ دان الله بغير سماعٍ من عالم صادق ألزمه الله التّيه الى الفناء ، ومن ادّعى سماعاً من غير الباب الذي فتحه الله لخلقه فهو مشرك . . وذلك الباب هو الأمين المأمون على سر الله المكنون »[3] .

فهل يستطيع أحد أنْ يدّعي أنّ استقلال عقله بشيء ومن ثم تعبّده به من دون سماعٍ من إمامٍ صادقٍ لا يعرضه للتيه الأبدي ؟

وحديث آخر مأثور عنه ـ عليه السلام ـ بذات المحتوى يقول : « منْ دان الله بغير

(١) بحار الأنوار / ج ٢ ـ ص ٨٤ .

(٢) المصدر / ص ١٠٥ .

(٣) المصدر / ص ٩٣ .

سماع عن صادقٍ ألزمه الله التّيه الى يوم القيامة »[1] .

وفي حديث آخر عن علي بن عبد الله ، قال : سأله رجل عن قول الله عز وجل : ﴿ فمن اتّبع هداي فلا يضّل ولا يشقى ﴾ قال : من قال بالأئمة واتبع أمرهم ولم يجز طاعتهم .

وروي أن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ قال لأثنين من علماء الرأي والقياس وهما سلمة بن كهيل ، والحكم بن عتيبة قال : « شرّقا وغرّبا لن تجدا علماً صحيحاً إلا شيئاً يخرج من عندنا أهل البيت »[2] .

وبما أنّ هذين الرجلين كانا من البتريّة « أصحاب كثير النوا » وكانا يدعوان الى ولاية علي ـ عليه السلام ـ ولكنهما يخلطانها بولاية غيره وكانت لهذه الطائفة آراء في أصول العقائد وفي الفقه قائمة على أسس خاطئة ، فإن كلام الإمام لهما يشمل من يعتمد على رأيه،ولا يأخذ من أهل البيت ـ عليهم السلام ـ أفكاره وأحكامه .

والحديث التالي يكشف عن ذلك :

يروي ابو بصير ويقول : سألت ابا جعفر « الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ » عن شهادة ولد الزنا تجوز ؟ قال : لا. فقلت : إنّ الحكم بن عتيبة يزعم أنها تجوز ؟ فقال : اللهم لا تغفر له ذنبه ، ما قال الله للحكم أنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون فليذهب الحكم يميناً وشمالاً فوالله لا يوجد العلم إلا من أهل بيتٍ نزل عليهم جبرئيل[3] .

وهكذا نهر الإمام حكماً لأنه اعتمد في علمه على غير أهل البيت الذين نزل عليهم جبرئيل،فياترى أولا يشمل هذا العتاب أولئك الرجال الذين يزعمون أنّ للعقل أحكاماً خاصة به نستوحيها من العقل وحده ؟

وفي حديث آخر مروي عن الثمالي قال : سألت أبا جعفر عن قول الله عز وجل : ﴿ ومن اضلُّ ممن اتّبع هواه بغير هدىً من الله ﴾ ؟ قال : عنى الله بها من اتخذ دينه رأيه من غير إمام من أئمة الهدى[4] .

---

(١) المصدر .
(٢) المصدر / ص ٩٢ .
(٣) المصدر / ص ٩١ .
(٤) المصدر / ص ٩٣ .

ولا ريب في شمول هذه الرواية لمن يزعم أنه قادر على كشف حقائق الدين بلا مراجعة لأحاديث الأئمة .

ويقول الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ في حديث عميق المعنى استفاض عنهم :

« أبى الله أن يجري الأشياء الا بالأسباب ، فجعل لكلّ سببٍ شرحاً ، وجعل لكلّ شرحٍ علماً ، وجعل لكلّ علمٍ باباً ناطقاً عرفه من عرفه ، وجهله من جهله ذلك رسول الله ونحن[(٢)] .

وفي حديث آخر مروي عن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ :

« كل ما لم يخرج من هذا البيت فهو باطل »[(٣)] .

مناقشة الاحاديث

وقد ناقش في دلالة هذه الطوائف من أخبار الباب ، الأستاذ الكبير النائيني تبعاً للشيخ الكبير الأنصاري وغيره بقوله ـ حسب أجود التقريرات ـ : الثانية الأخبار الدالة على وجوب أخذ الأحكام منهم ، وعدم الاعتناء على الإدراكات العقلية . وظاهر هذه الطائفة أنّها في مقام الردع عما يفعله أئمة النفاق والكفر ـ عليهم لعائن الله ـ من الاستقلال في الفتوى بآرائهم الفاسدة المبنيّة على العمل بالأقيسة والاستحسانات الظنّية من دون الرجوع الى أئمة الهدى ـ صلوات الله عليهم ـ بل ربما كانوا يعارضونهم ، وأين ذلك ممّن يعتقد بأمامتهم ، ويرجع في مقام الفتوى الى كلماتهم ، والأخبار الصادرة عنهم ـ صلوات الله عليهم ـ وربما يتفق له استقلال عقله بحسن شيء أو قبحه . ويستكشف من ذلك آراءهم ـ صلوات الله عليهم ـ بطريق الآن لما ثبت عنده من تبعيّة الأحكام للمصالح والمفاسد وعدم كونها جزافاً كما يدّعيها الأشاعرة من دون شعور[(٤)] .

والأسئلة التي تطرح على هذه المناقشة هي التالية :

أولاً : حينما يعترض الأئمة على البعض لأنه يأخذ دينه بالرأي والقياس نعرف أنّ ملاك اعتراضه هو استخدامه الرأي والقياس في الدين . ولذلك فهو يشمل كل من يفعل

(١) المصدر / ص ٩٠ .

(٢) المصدر / ص ٩٤ .

(٣) طريق الوصول الى المعلول من علته .

(٤) اجود التقريرات / ص ٤١ .

مثل فعلته . .

ولا أعرف معنًى للرأي والقياس ، إلا اعتماد المطالب العقلية ، والاستدلالات المنطقية التي كانت قد اشتهرت في عهد الأئمة والتي لا تختلف كثيراً عمّا نجده عند البعض منا اليوم .

ثانياً : إن لسان كثيرٍ من الأخبار يأبىٰ عن تخصيصها بغيرها . مثلاً اعتراض الإمام ـ عليه السلام ـ على أبان لأنه أخذه بالقياس . فهل كان أبان من المخالفين ؟ كلا . . إنما خلط رأيه وقياسه بأخبار أهل البيت ـ عليهم السلام ـ ونحن ـ أيضاً ـ إذا خلطناهما كنا مثله .

والإنصاف أنَّ من يطّلع على مجموع احاديث الباب المتواترة لا يشكّ في أنّ كثيراً من مناهجنا الاستدلالية مشمولةٌ للنهي . ويبقى عنده السؤال العريض التالي : إذاً ما هو موقع العقل الذي هو حجة الله الباطنة ؟ ولماذا أمر الأئمة علماء شيعتهم باستنباط الاحكام ، وهل يمكن الاستنباط من دون إثارة العقل ، والاستفادة من نوره ؟

لا بّد أنْ نبحث عن إجابةٍ لهذا السؤال في تضاعيف الآيات والروايات ، ويبدو لي أنّ العقل الذي هو نور الله يؤتيه من يشاء من عباده غير الرأي والقياس لأنّه علمٌ وهما جهلٌ ، وهو هدى الله وهما من إيحاءات الشياطين ، وهو يطابق الشرع وهما عادة يطابقان الهوى . صحيح إنّ النفس هي محلّ نور العقل كما هي مصدر الرأي والقياس . . ولكنْ كما تختلف النفس اللوّامة عن النفس الأمّارة بالسوء ، وكما يختلف الوجدان عن الأهواء والشهوات ، كذلك يختلف العقل عن القياس .

وكان توجّه الأئمة ـ عليهم السلام ـ تبصير الإنسان بهذه الحقيقة لينفصل عنده عقله عن هواه ، علمه عن جهله ، نداء الرحمن في وجدانه عن وساوس الشيطان .

وإذا تمّ الفصل عند الإنسان استطاع أنْ يعرف الحقائق بعقله وبتأييد نور الوحي وكلمات أهل بيت الوحي .

وهكذا نجد أنهم ـ عليهم السلام ـ يأمرون علماء شيعتهم بالاستنباط من القرآن ويقولون لهم : هذا وأمثاله يُفهم من القرآن . بينما ينهون الناس من تفسير القرآن ويقولون عن أحكام الله إنّها أبعدُ شيء عن عقول الرجال . .

وليس في ذلك أدنى تناقض ، لأنّ مثله مثل الحكيم حين ينهي سائر الناس عن ممارسة

مهنة الطب بينها يأمر الدكاترة بذلك .

وقد سبق وأنْ أشرنا الى أنّ العقل الإلهي يختلف عن المناهج القياسية التي تسمّى بهذا الاسم ، والمغالطة التي قامت بها الفلاسفة وأنصارهم بتسمية مناهجهم بالتعقل هي المسؤولة عن ارتباك البعض ومحاولتهم تبرير العمل بها لأنّ الإسلام أمر الناس بالرجوع الى العقل . .

وقد نبّه كثير من الفقهاء الى ذلك ولا سيما المحدثون منهم كما أشرنا الى ذلك سلفاً .

القياس عند الامام علي ـ عليه السلام ـ

ونختم حديثنا في هذا الفصل بحديث مفصل مأثور عن سيد الحكماء أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ يصف فيه القائلين في الدين بالرأي والقياس ، ويحدد لنا منهجاً واحداً لبلوغ أحكام الله وهو الرجوع الى أئمة الهدى ـ عليهم السلام ـ .

دعنا نتلو معاً هذه الخطبة الشريفة التي احتوت على جملة من أصول المعرفة في نهج الاسلام في المعرفة ، وبالذات في فقه الشريعة .

نصائح عامة

بعد حمد الله ، والصلاة على نبيه ، وتحمّل مسؤولية حديثه أوصى الإمام بالتقوى وبيّن أنها تصون الإنسان من الهلاك ، وقال :

« أمّا بعد فذمّتي بما أقول رهينة ، وأنا به زعيم » هكذا بيّن أنه مسؤول عن كلامه ، وهو يعي هذه المسؤولية لأنّ كلامه يرهن ذمته رهينة لا تنفك عنه حتى يكون كلامه صادقاً وهو زعيم وكفيل بما يقول :

وأضاف : « إنه لا يهيج[1] عن التقوى زرُع قوم ، ولا يظمأ عنه سنخ أصلٍ ، يعني لا زراعة تفسد إذا أحيطت بسور التقوى ، ولا تظمأ شجرة استقت من ينبوع التقوى لأنّ التقوى حياة الإنسان في الدنيا والآخرة .

وبيّن الإمام أهميّة اعتراف الإنسان بواقعه ومعرفة قدر نفسه حتى لا يضعها فوق

(١) قال اهل اللغة : هاج الزرع اي يبس واصفر .

مرتبتها ، ولا يتكلّف علماً لم يؤت أدواته ولا منصباً لا يستحقه وقال : « وإنّ الخير كلّه فيمن عرف قدر نفسه ، وكفى بالمرء جهلاً ألاّ يعرف قدره » .

ويبدو أنّ كبر النفس وغرورها ، وتطلعها الى مراتب عالية أكبرُ حجابٍ بينها وبين الحقائق . وإن الإنسان لا يبلغ الخير إلاّ بالتواضع لله ، ومعرفة قدرِ نفسه .

خائض عشوات :

ثم يتناول الخطاب القسم الهام من الموضوع حيث يبين صفات أدعياء العلم وهم أبغض الخلق عند الله . وسبب ضلالتهم انقطاعهم عن حبل الله . حيث وكلهم الله الى أنفسهم فانحرفوا عن قصد السبيل ، وعشقوا البدع ، وغلّفوها بكثرة الصلاة والصيام وأصبحوا فتنةً لكلّ من ابتغى الفتنة من الناس . ولم يهتدوا بسيرة الصالحين من قبلهم . ولا أورثوا سيرةً صالحةً لمن جاء من بعدهم . وهكذا احتملوا اوزار تابعيهم الى اوزارهم الذاتية .

قال الامام :

« وإنّ ابغض الخلق عند الله رجل وكّله الله الى نفسه ، جائر عن قصد السبيل مشغوف[1] بكلام بدعة » .

لماذا يحب البدعة ؟ لعله لأنه من أهلها ويرى مصالحه فيها ، ولا يرى تحقيق ذاته إلاّ في أجوائها ، وأضاف الإمام ـ عليه السلام ـ :

« قد لهج فيها بالصوم والصلاة ، فهو فتنةٌ لمن افتتن به ، ضالّ عن هُدى من كان قبله ، مُضِلّ لمن اهتدى به، حمّالُ خطايا غيره ، رهينٌ بخطيئته » .

هكذا أصبح مثلُ هذا الرجل حلقة في سلسلة الضلال . لأنه ولع بالفتنة وأحب البدعة . وتراه يلملم مفردات الجهل ، يبحث عن كل ضلالة وشبهة وفكرة سلبيّة تدعم خطّة المنحرف، كما فعل من قبله الجهال الذين أحاطت بهم ظلمات الجهل وغرته ظلمات الفتنة ، أوليس قد وضع نفسه في تيّار الانحراف ؟ قال الامام : « قد قمشه جهلاً في جهال غشوة ، غار بأغباش الفتنة ، عمٍ عن الهدى ، قد سمّاه أشباه الناس عالماً ، ولم يغن فيه يوماً سالماً »[2] .

(١) اي يحب البدع حبا جما .

(٢) اي لم يتم يوماً واحداً في نور العلم والمعرفة ، فكيف يسمى بالعالم .

وهكذا تراه جمع أفكار ضلالة ، حتى سمّاه الناس عالماً وأنّى له ذلك ! وكما الظمآن الذي اندفع في شرب الماء المالح تراه يزداد تجميعاً للشبهات بلا فائدة له .

« بكّر فاستكثر ممّا قل منه خير مما كثر ، حتى إذا ارتوى من آجن ، واستكثر من غير طائل ، جلس للناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره ، إن خالف من سبقه ، لم يأمن من نقض حكمه من يأتي بعده كفعله بمن كان قبله » .

وهكذا كشف الامام ـ عليه السلام ـ عن صفةٍ في هذه الطبقة تتمثل في عدم اتّباعهم لنهجٍ معين ، لأنّهم يتبعون أهواءهم ويخضعون للتيارات التي تضغط عليهم . . ويميلون مع كل ريحٍ عاصف . أما الصفة الثانية فهي كما يقول الامام :

« وإنْ نزلت به إحدى المهمات هيّأ لها حشواً من رأيه ثم قطع عليه » .

فهو يتبع رأيه الباطل ولكنه يقطع عليه جزماً لأنّ محوره ذاته وإلهه هواه .

« فهو من لبس الشبهات في مثل غزل العنكبوت ، لا يدري أصاب أم أخطأ . ولا يرى أنّ من وراء ما بلغ مذهباً ، إنْ قاس شيئاً بشيء لم يكذب رأيه ، وإنْ أظلم عليه أمر إكتتم به لما يعلم من نفسه من الجهل والنقص والضرورة كي لا يقال إنه لا يعلم .

وهكذا تجد هذا الشخص يتكلّف اليقين ولا يقين له . ويدّعي القطع ولا يقطع بشيء . وينكر وجود العلم لجهله المطبق وتكبره عن الحق . ويمضي الحديث في بيان هذه الصفة الشائنة وما يرافقها من أعمال منكرة ويقول : « ثم أقدم بغير علمٍ فهو خائض عشواتٍ ، ركّاب شبهاتٍ ، خبّاط جهالات [1] لا يعتذر ممّا لا يعلم فيسلمَ ، ولا يعضّ في العلم بضرسٍ قاطع فيغنم » .

ثم يحدِّد الامام موقف هذا الشخص من الأحاديث أنّه يتعامل معها باستهانةٍ وجهالة فإذا به يخلطها ببعضها ، ولا يتدبّر في معانيها ، ويحرّف كلماتها عن مواضعها كما تفعل بالهشيم الرياح الهوج حيث تذروها ذرواً .

وهكذا لا يعتني بها ولا يسلم لها ، بل يطيّرها أو يسحقها كما تفعل الريح بالهشيم .

« يذري الروايات ذرو الريح الهشيم ، تبكي منه المواريث وتصرخ منه الدماء ، ويستحلّ بقضائه الفرج الحرام ، ويحرّم به الحلال ولا يسلم بإصدار ما عليه ورد ، ولا

(١) كناية عن عدم اتقانه للعلم .

يندم على ما منه فرط »[1] .

٣ ـ الأئمة سفن النجاة :

وفي القسم الثالث من الخطبة يوصي الإمام باتّباع نهج الأئمة لأنّهم سفن النجاة ، وحبل الله المتين . ويقول :

« أيّها الناس ! عليكم بالطاعة والمعرفة بمن لا تعذرون جهالته ، فإنّ العلم الذي هبط به آدم وجميع ما فضلت به النبيّون الى محمد خاتم النبيين ، في عترة محمد ، فأين يُتاه بكم ؟ بل أين تذهبون ، يامن نسخ من أصلاب أصحاب السفينة ، فهذه مثلها فيكم فاركبوها ، فكما نجا في السفينة من نجا كذلك ينجو في هذي من دخلها أنا رهين بذلك ، قسماً حقّاً ، وما أنا من المتكلّفين ، الويل لمن تخلّف ثم الويل لمن تخلّف[2] .

خلاصة الافكار

وخلاصة الحديث في هذا الباب :

إنّ مفتاح هذا الباب معرفة العقل حسب منطق الوحي واهله ، وتمييزه عمّا يسمّيه الآخرون عقلاً وما هي إلا مناهج يختلط فيها الرأي بالقياس وبأهواء تُتبع وتقاليد تُراعى .

ومن أعانه الله على نفسه فعرف عقله ، وزكاه بنور الوحي ، وقمع شهواته ، واستعاذ بالله من وساوس الشيطان وهمزاته ولمزاته ، واتصل قلبُه عبر نور ولاية الله وولاية أوليائه وعبر ضياء عبودية الله الخالصة اتّصل بالحقائق حتى شاهدها عين اليقين .

إنه يرى ـ يومئذ ـ حقائق الدين ، ويستنبط أحكامه من جوامع العلم التي يرثها من كتاب الله وسنّة النّبي وأهل بيته ، وبما أوتي من ضياء الإيمان ونور العقل .

أمّا من لا يزال يعيش في ظلمات الهوى والشهوات وتحيط به غشوات الغفلة والجهالات فعليه أنْ يعرف قدر نفسه ويبتعد عن الفتيا فراره من الأسد . وأنّ من مصائبنا أننا بدل أنْ نفتش عن مناهج الدين في معرفة الأحكام ألالهية ترانا نخوض في غمرات الشك ونتساءل دائماً عن وظيفة الجاهل ، كمن لا يعالج بصره حتى يرى الحقائق رأي العين . ويفتش دائماً عن عصى العميان ولو بذلنا هذا الجهد الكبير الذي صرفناه

---

(١) بحار الأنوار / ج ٢ ـ ص ١٠٠ ـ وللحديث بقية .

(٢) بحار الأنوار/ ج ٢ ـ ص ١٠٠ـ وللحديث بقية .

لمعرفة وظائف الشاكّ بذلناه لمعرفة سبيل المعرفة لكفانا علماً وهدى .

بلى . . إنّ بلوغ حقائق الدين ليس بذلك العمل البسيط . . لأنه بحاجةٍ الى تصفية النفس وتزكيتها مما تستصحبه النفوس وتتهرّب منه ، كما أن ذلك بحاجةٍ الى التسليم النفسي لأمر الله ، حتى يتغلّب الإنسان على الكبر والغرور في نفسه ومن رواسبه السابقة ومن أغلال الشهوات وأُصُر الطغاة .

ولعلّ تأكيد الوحي على التسليم للرسالة والرسول . . والتصديق به ، وتعزيرهُ ، ونصره وعدم الإحساس بالحرج من قضائه كل ذلك يأتي تمهيداً لتخلص النفس من الرواسب الماديةولكي تستعد لتلقي الحكمة الإلهية .

ومن الرواسب التي تتخلّص النفس حينئذ منها ـ بإذن الله ـ غرور العلم بالمطلق . حيث ساق جهل الإنسان البدائي ، وما أفرزه من فلسفةٍ ناشئةٍ في عهد اليونان الأقدمين ، ساقه الى أن يزعم أنّه قادرٌ على الإحاطة علماً بالكليات ابتداءً من خالق السموات حتى طبيعة السموات . . وجوهر الموجودات وطبيعة الإنسان . لذلك تراه تخبّطَ في أكثر الموضوعات خبط عشواء ، وتكلّفَ علوماً لم يملك شيئاً من أدواتها ، كعلم الفضاء حيث اعتقدوا بأنّ للسموات روحاً وأنها عقولٌ مجردة وما اشبه وهذا الغرور الناشيء من الجهل جعله يعيش حالة الجهل المركّب .

وكان أثر هذه الحالة في مجال المعارف فجيعاً ، إذ تراه يبحث فيها عن نوعٍ من اليقين لا يوجد إلاّ في الرياضيّات ، ولإن هذا اليقين لم يكن يحصل له بالبحث التجريبي والدراسة الميدانية ، والسبل العقلائية للمعرفة،كفر بجدوائية هذه الأبواب الطبيعية للمعرفة ، وصنع لنفسه هرماً من الأقيسة الرياضيّة لعلّه يقف عليها وينظر من قمتها الى حقائق الأشياء .

وكان مصيره بالتالي الجهل العميم الذي يقول عنه الإمام عليّ ـ عليه السلام ـ :

« من ادّعى من العلم غايته ، فقد أظهر من الجهل نهايته »[1] .

ومن هنا ينبغي التخلص من غرور الجهل و الاعتراف بحدود النفس في مجال المعرفة ، لأنه كما يقول أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ :

---

(١) الحياة / ج ١ ـ ص ٦٦ .

« غاية العقل الاعتراف بالجهل »[1] .

وكما أن الكمال المطلق لا يوجد في المخلوق ، كذلك العلم المطلق حيث لا يعلم الغيب إلاّ الله . حيث يقول ربّنا لرسوله الأكرم : « وقُل ربِّ زِدني علما » .

والذين يدّعون العلم المطلق يخلطون بين العلم والجهل ، ويضلّون السبيل بينما الذين يعرفون قدر أنفسهم يضعون حدّاً واضحاً بين ما يعلمون وما يجهلون .

ولعل مراد الدين منا : هو تزويدنا بفرقانٍ نعرف به الحقّ والباطل ، ونميّز بين ضياء العقل ووساوس النفس . ولذلك أمرنا باتّباع العقل حتى في معرفة الدين وأحكامه بينما نهانا عن اتّباع الرأي واستخدام القياس . وحذّرنا من القول بغير علمٍ والافتراء على الله و.و. .

وهكذا هدانا الله بأولي أمرنا الى سبل السلام فمن سلكها نجا ومن تخلّف عنها ضلّ وهوى .

كذلك أخبرنا إمام الهدى عليّ ـ عليه السلام ـ في الخطاب المفصل الذي سبق آنفاً ، ولا يجوز أن نزعم بأنّ هذا الخطاب لا يخصّنا ، كلا . إنّه يشمل كل شخص اتّصف بتلك الصفات السيئة وابرزها الجهل المركب ، والاستكبار على الحق .

نحن لا نريد أن ننكر أبداً دور العقل ، إنما نريد أن نبصر أنفسنا بالعقل ، ونعطيه من ثم الدور الأساس في فهم الشرع وفي تطبيقه . فالعقل والوحي شعاعان لنور واحد .

---

(١) المصدر .



الباب الثاني :

بحوث في الكتاب والسنة



الفصل الاول :

عن الكتاب



تمهيد :

١ـ (فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه)[1] بهذه الكلمة الرائعة عبّر قادة الاسلام عن مقام القرآن الذي هو محور الامـة ، والمصدر الوحيد لتشريعهم وثقافتهم وصبغة حياتهم .

إنه الرسالة التي تهيمن على سائر رسـالات الله ، وهو حبل الله المتين المتصل بين السماء والأرض .

إنه الثقل الأكبر الذي خلّفه الرسول في أمته فقال ـ صلّى الله عليه وآله ـ : (إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا أبداً) ولم يختلف المسلمون في عظمة القرآن ، وأنه مصدر النور في حياتهم ، ولكنهم اختلفوا في منهج الاستفادة منه . فمنهم من حدّد المنهج في بضع أمور هامشية ، ومنهم من لم يجدد أساساً منهجاً للتعلم منه . وبين الفريقين المتطرفين يمنة ويساراً مذاهب شتى .

ولإ ختلاف الناس في هذا الأمر الأساسي ، اختلفت تعابير أئمة الهدى ابتغاء إصلاح الأفكار المتطرفة .. في هذا الاتجاه او ذاك .

فاذا ضعف إيمان الناس بالذكر وشغلتهم الدنيا بزينتها ، وانتشرت بينهم الثقافات

---

(١) بحار الأنوار / ج ٩٢ ص ١٩ .

الجاهلية ، وظهرت فتن الضلالة ، تصدى الأئمة ـ عليهم السلام ـ لذلك ببيان مقام القرآن وضرورة العودة اليه ..

لنستمع الى الحديث التالي :

يقول الحارث الأعور : (دخلت على أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فقلت : ياأمير المؤمنين ! إنّا إذا كنّا عندك سمعنا الذي نسدّ به ديننا ، وإذا خرجنا من عندك سمعنا أشياء مختلفة مغموسة ولا ندري ما هي ؟ قال : أَوَ قَدْ فعلوها ؟ قلت : نعم قال : سمعت رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ يقول : (أتاني جبرئيل فقال : كتاب الله فيه بيانُ ما قبلكم من خبرٍ ، وخبرُ ما بعدكم ، وحكمُ ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من وليه من جبار فعمل بغيره ، قصمه الله ، ومن التمس الهدى في غيره أضلّه الله . وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم لا تزيغه الأهوية ولا تلبسه الألسنة ، ولا يخلق على الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء ، وهو الذي لم تلبث الجن إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إنّا سمعنا قرآنا عجباً يهدي الى الرشد ﴾ من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن اعتصم به فقد هدي الى صراط مستقيم ، هو الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد)[1] هكذا نرى حين شاعت الفتن وانتشرت الضلالة سارع الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ الى مقابلتها بالقرآن الذي يعصم الله به عباده من الفتن ويهديهم من بعد الضلالة والتيه !

٢ ـ واختلفت المذاهب وتناقضت الآراء على أصعدةٍ شتى وبعوامل مختلفة في الثقافة ، والأدب ، في الفقه والتشريع ، في السياسة والاقتصاد . ولأن القرآن كان المصدر التشريعي الوحيد عند أبناء الأمة ، فإذا كلّ فريق يختار من آيات الذكر ما يتناسب في زعمه ومذهبه بعد تأويلها حسب هواه .. ولوجود آيات متشابهة في القرآن تسمو على فهم أغلب الناس فقد درج أصحاب المذاهب لتأويلها حسب أفكارهم ..

ولقد حذّر القرآن الحكيم من ذلك وقال : ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أُمّ الكتاب وأُخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابهَ منه ابتغاء الفتنةِ وابتغاء تأويلِهِ وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخُون في العلم يقولون آمنا**

---

(١) تفسير الصافي / ج ١ ـ ص ١٦ .

به كُلٌ من عند ربّنا ﴾[1].

واتباعاً للقرآن جاءت النصوص تترى في التحذير من ذلك وفي بيان المنهج السليم في تفسير المتشابه من آيات الذكر وهو الرجوع إلى أئمة الهدى من أهل البيت وهكذا جاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ : أنه سأله يزيد ابن معاوية : عن قوله عزوجل : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ﴾ قال : يعني تأويل القرآن كله إلا الله والراسخون في العلم فرسول الله أفضل الراسخين ، قد علّمه الله جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل ، وما كان الله منزلاً عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله ، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله ، فقال الذين لا يعلمون : ما نقول إذا لم نعلم تأويله ؟ فأجابهم الله : ﴿ يقولون آمنا به كل من عند ربّنا ﴾ والقرآن له خاص وعام ، وناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه ، فالراسخون في العلم يعلمونه)[2].

٣ ـ واشتدت حاجة المسلمين الى معرفة أحكام الحوادث المستجدة لتطوّر الحياة فنشأت مجاميع من المتفقهين في الدين الذين أخذوا يفسرون آيات القرآن بغير علم ودون أن يميّزوا الناسخ من المنسوخ ، والعام من الخاص ، والفريضة من المندوب ، والحرام من المكروه ، فعلموا بالقياس ، واستعملوا الرأي ونبذوا كتاب الله وسنّة رسوله وهدى أوصيائه وراء ظهورهم فجاءت الأحاديث تحذّر من أمثال هؤلاء بشدة . والحديث التالي نموذج منها :

روي عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ : أنّ الله تبارك وتعالى بعث محمداً فختم به الأنبياء فلا نبّي بعده ، وأنزل عليه كتاباً فختم به الكتب فلا كتابَ بعده ، أحلّ فيه حلالاً وحرّم فيه حراماً ، وحلاله حلال الى يوم القيامة ، وحرامه حرام الى يوم القيامة ، فيه شرعكم وخبر من قبلكم وبعدكم ، وجعله النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ علماً باقياً في اوصيائه فتركهم الناس وهم الشهداء على كل زمان ، وعدلوا عنهم ثم قتلوهم ، واتّبعوا غيرهم وأخلصوا لهم الطاعة ، حتى عاندوا من أظهر ولاية ولاة الأمر وطلب علومهم ، قال الله سبحانه ﴿ فنسوا حظّاً مّما ذكروا به ﴾ ولا تزال تطلع على خائنةٍ منهم ، وذلك أنهم ضربوا بعض القرآن ببعض واحتجوا بالمنسوخ وهم يظنون أنه الناسخ واحتجوا بالمتشابه وهم يرون انه المحكم واحتجوا بالخاص وهم يقدرون أنه العام ، واحتجّوا بأول

(١) آل عمران / ٧ .

(٢) بحار الأنوار / ج ٢ ـ ص ٩٢ .

الآية وتركوا السبب في تأويلها ، ولم ينظروا الى ما يفتح الكلام وإلى ما يختمه ولم يعرفوا موارده ومصادره ، إذ لم يأخذوه عن العالم فضلّوا واضلّوا .

واعلموا ـ رحمكم الله ـ أنه من لم يعرف من كتاب الله الناسخ من المنسوخ ، والخاص من العام ، والمحكم من المتشابه ، والرخص من العزائم ، المكي والمدني ، وأسباب التزيل والمبهم من القرآن من ألفاظه المنقطعة والمؤلفة وما فيه من علم القضاء والقدر ، والتقديم)والتأخير، والمبين والعميق ، والظاهر والباطن، والابتداء من الانتهاء ، والسؤال والجواب ، والقطع والوصل ، والمستثنى منه والجار فيه ، والصفة لما قبل ممّا يدل على بعد، والمجمل منه والمفصل ، وعزائمه ورخصه، ومواضع فرائضه وأحكامه ومعنى حلاله وحرامه الذي هلك فيه الملحدون، والموصول من الألفاظ ، والمحمول على ما قبله وعلى ما بعده، فليس بعالم بالقرآن، ولا هو من أهله، ومتى ما ادّعى معرفة هذه الأقسام مدّعٍ بغير دليلٍ فهو كاذب مرتاب ، مفترٍ على الله الكذب ورسوله ومأواه جنهم وبئس المصير[1] .

٤ ـ وفريق رابع أخذوا العلم من مصادره وزكوا أنفسهم من حب الرئاسة واتباع الهوى ، وسلموا لله ولرسوله ولأولي الأمر من أوصيائه ـ عليه وعليهم صلوات الله ـ حتى زهر مصباح الهدى في أنفسهم ، وأصبحوا من أهل الذكر وفتح الله عقولهم بكثرة نظرهم في علمه ، وهؤلاء أودع الله قلوبهم علمه وعلم أوليائه ، وجعلهم ورثة أنبيائه وحجج الله بعد الأئمة المعصومين ، وهم بعض فقهاء الشيعة من أصحاب الائمة .

هؤلاء عرفوا ما ينبغي معرفته ليصبحوا أهلاً للفتوى واستنباط الأحكام من الوحي فأمرهم أئمة الهدى بأنْ يفهموا من القرآن أحكام الدين . ولكي نزداد وعياً بهذه البصائر التي ذكرناها آنفاً نقرأ معاً نصوص الوحي فيما يتّصل بالاستنباط من القرآن عبر مجاميع متواصلة :

١ ـ القرآن هدىً ونور :

﴿ ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربّكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً ﴾[2] .

---

(١) تفسير الصافي / ج ١ ـ ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٢) النساء / ١٧٤ .

﴿ هذا بصائر من ربّكم وهدىً ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون ﴾[1].

﴿ ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّنُ لكم كثيراً مما كنتم تُخفون من الكتاب ويعفُو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾[2].

بهذه الكلمات المضيئة هدانا الرب الى أنَّ كتاب ربِّنا برهانٌ ونورٌ مبينٌ ، وأنَّه هدىً ورحمةٌ وكتابٌ مبينٌ . ولا ريب أنّ ذلك يعني إثارة العقل للاطلاع على الكتاب ، والاستزادة من معارفه . وحينما يتوجّه الخطاب الى الناس كافة أو الى المؤمنين جميعاً أو الى أهل الكتاب فإنهم مدعوّون الى الانتفاع بالقرآن من دون حجاب ، وهل النور بحاجة الى ما يضيئه ويدل عليه ؟ أو البيان بحاجة الى الشرح ؟ .

وقد أشارت الأحاديث المأثورة عن النبي وأهل بيته ـ عليه وعليهم السلام ـ الى ذلك .

فقد روى الإمام الصادق عن النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ : (القرآن هدى من الضلالة ، وتبيان من العمى ، واستقالة من العثرة ، ونور من الظلمة)[3].

(إنّ هذا القرآن هو النور المبين ، والحبل المتين ، والعروة الوثقى ، والدرجة العلياء والشفاء الأشفى)[4] .

وروي عن فاطمة الزهراء ـ عليها السلام ـ قولها : (لله فيكم عهد قدمه ، وبرهان متجلية ظواهره ، مديم للبرية استماعه ، وقائد الى الرضوان اتباعه ، ومؤد الى النجاة أشياعه)[5] .

وروي عن الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ أنّه قال : (كلام الله لا تتجاوزوه ، ولا تطلبوا الهدى في غيره فتضلُّوا)[6] .

وهكذا يجب أنْ نستضيء بهذا النور ونعتصم بهذا الحبل ، ونجلي قلوبنا بنوره . . ولا

---

(١) الاعراف / ٢٠٣ .

(٢) المائدة / ١٥ .

(٣) عن تفسير العياشي / ج ١ - ص ٥ .

(٤) عن بحار الأنوار / ج ٩٢ - ص ٣١ .

(٥) عن علل الشرائع .

(٦) البحار / ج ٩٢ - ص ٣١٦ .

يجوز هجر كتاب ربّنا ، وندّعي أنه متعالٍ عن أفهامنا .

ويهدينا الى ذات الحقيقة نصوص التدبّر التي تأمرنا بالتأمل في كتاب ربّنا واستنباط حقائقه .

٢ ـ القرآن كتاب تدبر :

قال ربّنا سبحانه :

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[١] .

﴿ كتاب أنزلناه اليك مباركٌ ليدّبّروا آياته وليتذكّر أولو الألباب ﴾[٢] .

﴿ أفلم يدبّروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾[٣] .

﴿ أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[٤] .

هكذا ذكر التدبر كهدف للكتاب،وقد جاء في الحديث عن الإمام زين العابدين ـ عليه السلام ـ : (آيات القرآن خزائن العلم فكلّما فتحت خزانة فينبغي لك أن تنظر فيها)[٥] .

وعن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ من دعائه قبل أن يقرأ القرآن : (ولا تجعل قراءتي قراءةً لا تدبر فيها ، بل أجعلني أتدبر آياته وأحكامه أخذاً بشرائع دينك ، ولا تجعل نظري فيه غفلةً ، ولا قراءتي هذرا إنك انت الرؤوف الرحيم)[٦] .

عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ أيضاً : (لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه ، ولكنهم لا يبصرون)[٧] .

وهكذا وصانا قادتنا بالتزوّد من علم القرآن المتوفر في خزائنه ، والنظر الى نور الله المتجلّي في آياته .

---

(١) سورة محمد / ٢٤ .

(٢) ص / ٢٩ .

(٣) المؤمنون / ٦٨ .

(٤) النساء / ٨٢ .

(٥) بحار الأنوار / ج٩٢- ص٣١٦ .

(٦) بحار الأنوار / ج١٦ ـ ص ٢٥٨ .

(٧) بحار الأنوار / ج ٩٨ ـ ص٥ .

والقرآن يذكرنا بأنه تبيان لكل شيء مما يرغّبنا في المزيد من البحث فيه والتدبّر في كلماته .

٣ ـ القرآن تبيان كل شيء :

قال ربّنا سبحانه :

﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء ﴾[١] .

﴿ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتابٍ مبين ﴾[٢] .

﴿ ما فرّطنا في الكتاب من شيء ﴾[٣] .

﴿ ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء ﴾[٤] .

وروي عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ : (إن الله أنزل في القرآن تبيانَ كل شيء حتى ـ والله ـ ما ترك شيئاً يحتاج العباد إليه إلا بيّنه للناس)[٥] .

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ : (إن الله لم يدع شيئاً تحتاج اليه الأمة الى يومِ القيامة ، إلاّ أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله ، وجعل لكل شيء حدّاً وجعل عليه دليلاً يدل عليه)[٦] .

ومعلوم أن بيان حقائق الدين في الكتاب المبين قد يكون بصورة تفصيلية ، وقد يكون ببيان الأصول العامة ومناهج الاستفادة منها !

وروي عن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ أنه قال لأصحابه : (إذا حدثتكم بشيء فسألوني أين هو من كتاب الله تعالى . ثم قال في بعض حديثه : إن رسول الله نهى عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السؤال ، فقيل له : يابن رسول الله : أين هذا من كتاب الله ؟ قال : إن الله تعالى يقول : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ وقال : ﴿ لا تأتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم

---

(١) المصدر ج ١٦ ـ ص ٢٥٨ .
(٢) النحل / ٨٩ .
(٣) يونس / ٦١ .
(٤) يوسف / ١١١ .
(٥) بحار الأنوار / ج ٩٢ ـ ص ٨١ .

قياماً ﴾ وقال: ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم ﴾[1] .

وعن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ أنه قال : (ما من أمر يختلف فيه اثنان إلاّ وله أصل في كتاب الله لكن لا يبلغه عقول الرجال)[2] .

وروى عطاء بن السائب عن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ عن النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ قال : (أُعطيت خمساً لم يُعطهن نبي . . (الى أنْ قال) وأُعطين جوامع الكلم ، قال عطاء فقلت : ما جوامع الكلم ؟ قال : القرآن)[3] .

وعن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ أنه قال : (وسلوني عن القرآن ، فإنّ في القرآن بيانَ كلِّ شيء وفيه علم الأولين والآخرين ، وإنّ القرآن لم يدع لقائلٍ مقالةً وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) .

وروي عن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ أنه قال : (إن الله تعالى لم يدع شيئاً تحتاج اليه الأمة إلاّ أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله ـ عليه السلام ـ)[4] .

وقد أشار أئمة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ أنّ علمهم كان من القرآن .

٤ ـ علم الهداة من القرآن :

جاء في حديثٍ مأثور عن الإمام علي ـ عليه السلام ـ أنه سُئل هل عندكم من رسول الله شيء من الوحي سوى القرآن ؟ قال : لا ، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلاّ أن يعطى عبداً فهماً في كتابه)[5] .

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ : (إن الله تعالى أنزل في القرآن تبيان كل شيء حتى والله ما ترك الله شيئاً يحتاج اليه العباد ، حتى لا يستطيع عبد يقول : لو كان هذا أنزل في القرآن إلاّ وقد أنزله الله فيه)[6] .

٥ ـ المصدر الوحيد للمعارف :

---

(١) تفسير الصافي / ج ١ ـ ص ٥٠ .

(٢) المصدر .

(٣) بحار الأنوار / ج ٩٢ ص ١٤ .

(٤) تفسير الصافي / ج ١ ـ ص ٥٠ .

(٥) تفسير الصافي / ج ١ ـ ص ٣١ .

(٦) تفسير الصافي / ج ١ ـ ص ٥٠ .

ونهى القرآن عن اتّباع غيره والتماس الهدى ممّا سواه فقال سبحانه : ﴿ فإمّا يأتينكم مني هدى فمن اتّبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى ﴾[1] .

﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواءِ السبيل ﴾[2] .

وجاء في الأثر المروي عن النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ « من آثر (القرآن) على ما سواه هداه الله ومن طلب الهدى في غيره أضله الله » وعن الامام الرضا عليه السلام أنه قال : (كلام الله لا تتجاوزوه ، ولا تطلبوا الهدى في غيره فتضلوا)[4] .

وهذا يهدينا الى ضرورة الاستنباط من القرآن لمعرفة حقائق الدين .

٦ ـ الاستنباط من القرآن :

قال ربّنا سبحانه :

﴿ ولو ردُّوه الى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾[5] .

وحينما سأل الإمام أحد أصحابه عن مسألة شرعية أجابه الإمام بالقول : (هذا وأمثاله يفهم من القرآن لقول الله : ﴿ ما جعل الله عليكم في الدين من حرجٍ ﴾ .

وروي عن الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ أنه قال : (من أراد علم الأولين والآخرين ، فليقرأ القرآن)[6] .

وروي عن الإمام عليّ ـ عليه السلام ـ أنه قال عن القرآن : (جعله الله رِيّاً لعطش العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء)[7] .

٧ ـ العمل بالقرآن :

ولأنّ القرآن هدىً ونورٌ ، ولأنه آيات بيّنات محكماتٌ فلا بدّ من العمل فيما اهتدى

---

(١) طه / ١٢٣ .
(٢) المائدة / ٧٧ .
(٣) الحياة / ج ٢ / ص ١٦٩ نقلاً عن بحار الأنوار ج ٩٢ ـ ص ٣١ .
(٤) المصدر / ص ١٧٠ عن تفسير العياشي ج ١ ـ ص ٣ .
(٥) النساء / ٨٣ .
(٦) عن كنز العمال .
(٧) نهج البلاغة / خ ١٩٨ ص ٣١٦ .

إليه الإنسان واستبان له من أحكامه ، قال ربّنا سبحانه : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** ﴾[1] .

وجاء في وصية الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ الأخيرة : (الله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم)[2] .

وعن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ أنه قال : (عليكم بالقرآن فما وجدتم آية نجا بها من كان قبلكم فاعملوا بـه وما وجدتموه هلك من كان قبلكم فاجتنبوه)[3] .

وروي عن الإمام الحسن ـ عليه السلام ـ أنه قال : قيل لرسول الله : إن أمتك ستفتتن ، فسئل ما المخرج من ذلك ، فقال : كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، من ابتغى العلم في غيره أضلّه الله)[4] .

٨ ـ القرآن ميزان :

ومن أبرز مصاديق العمل بالقرآن اتخاذه ميزاناً لمعرفة الحق والباطل ، وأهل الحق وأهل الباطل ، والصحيح والخطأ . .

قال الله سبحانه : ﴿ **وأنزل الفرقان** ﴾[5] ﴿ **نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً** ﴾[6] .

وجاء على لسان الإمام السجّاد ـ عليه السلام ـ : وفرقاناً فرقت به بين حلالك وحرامك)[7] .

وقال عنه ـ عليه السلام ـ : (وميزان قسط لا يحيف عن الحق لسانه ، ونور هدىً لا يطفأ عن الشاهدين برهانه)[8] .

---

(١) المائدة / ٦٨ .
(٢) نهج البلاغة / كتاب ٤٧ ص ٤٢٢ .
(٣) تفسير العياشي / ج ١ ـ ص ٥ .
(٤) بحار الأنوار / ج ٩٢ ـ ص ٢٧ .
(٥) آل عمران / ٤ .
(٦) الفرقان / ١ .
(٧) الصحيفة السجادية / ص ٢٦٤ (دعاء / ٤٢) .
(٨) الصحيفة السجادية / ص ٢٦٠ (دعاء / ٤٢) .

وعن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ في وصية لجابر بن يزيد الجعفي : (واعلم بأنك لا تكون لنا وليّاً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا : إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك . ولو قالوا : إنك رجل صالح لم يسرك ذلك ، ولكن اعرض نفسك على كتاب الله ، فان كنت سالكاً سبيله ، زاهداً في تزهيده ، راغباً في ترغيبه ، خائفاً من تخويفه ، فاثبت وأبشر ، فانه لا يضرّك ما قيل فيك)[1] .

وكذلك أمر النبي وأهل بيته ـ صلوات الله عليه وعليهم ـ بأن يعرض كلامهم على القرآن . . فقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ قال :(كل شيء مردود الى كتاب الله والسنّة ، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف) .

(ما أتاكم عنا من حديث لا يصدقه كتاب الله فهو باطل) .

عن ابن أبي عمير ، عن الهشامين جميعاً وغيرهما قال : خطب النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ بمنى فقال : (أيها الناس ما جاءكم عني فوافق كتاب الله فأنا قلته ، وما جاءكم يخالف القرآن فلم أقله)[2] .

عن ابن ابي يعفور قال : سألت ابا عبد الله الصادق ـ عليه السلام ـ عن اختلاف الحديث يرويه من يثق به ، فقال : (إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ ، وإلاّ فالذي جاءكم به أوْلى)[3] .

عن الحسن بن الجهم ، عن العبد الصالح ـ عليه السلام ـ قال : (إذا كان جاءك الحديثان المختلفان فقِسهما على كتاب الله وعلى أحاديثنا فإنْ أشبههما فهو حقّ وإنْ لم يشبههما فهو باطل)[4] .

وعن قرب الإسناد في حديث من كتاب علي ـ صلوات الله عليه ـ قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ سيُكذَب عليَّ كما كذب على من قبلي فما جاءكم من حديث وافق كتاب الله فهو حديثي ، وما خالف كتاب الله فليس من حديثي .

وعن أيوب بن الحر قال سمعت أبا عبد الله ـ صلوات الله عليه ـ يقول : (كل شيء

---

(١) تحف العقول / ٢٠٦ .

(٢) بحار / ج ٢ ـ ص ٢٤٢ .

(٣) بحار / ج٢ ـ ص ٢٤٣ .

(٤) بحار / ج ٢ ـ ص ٢٤٤ .

مردود الى الكتاب والسنّة وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف)[1] عن العياش عن أيوب بن الحر قال سمعت ابا عبد الله ـ صلوات الله عليه ـ يقول : (كل شيء مردود الى الكتاب والسنّة وكل حديث لا يوافق القرآن فهو زخرف)[2] .

عن ابي عبد الله ـ صلوات الله عليه ـ قال : قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ : (على كل حقّ حقيقة وعلى كل صواب نور ، فما وافق كتاب الله فخذوه ، وما خالف كتاب الله فدعوه)[3] .

عن الأمالي مسنداً عن أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ قال : (الوقوف عند الشبهة خيرٌ من الاقتحام في الهلكة ، إنّ على كل حقّ حقيقة ، وعلى كل صواب نور ، فما وافق كتاب الله فخذوه ، وما خالف كتاب الله فدعوه)[4] .

عن أبي عبد الله ـ صلوات الله عليه ـ قال : (الوقوف عند الشبهة خيرٌ من الاقتحام في الهلكة ، إنّ على كل حقّ حقيقة ، وعلى كل صواب نور ، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه)[5] .

عن العياش مسندا عن جعفر عن أبيه عن علي ـ صلوات الله عليه ـ أنه قال في حديث : (فما وافق كتاب الله فخذوا به ، وما خالف كتاب الله فدعوه)[6] .

عن أبي جعفر ـ صلوات الله عليه ـ قال : (إذا جاءكم عنا حديث فوجدتم عليه شاهداً أو شاهدين في كتاب الله فخذوا به ، وإلاّ فقفوا عنده ، ثم ردوه إلينا حتى يستبين لكم) .

وفيه عن أبي جعفر ـ صلوات الله عليه ـ في رواية شريفة بعد كلام له في الوصية لبعض الشيعة قال : (انظروا أمرنا وما جاءكم عنا فإنْ وجدتموه للقرآن موافقاً فخذوا به ، وإنْ لم تجدوه موافقاً فردّوه ، وإن اشتبه الأمر عليكم فقفوا وردّوه إلينا حتى نشرح لكم

(١) الوسائل .

(٢) المستدرك .

(٣) الوسائل .

(٤) البحار .

(٥) الوسائل .

(٦) المستدرك .

من ذلك ما شرح لنا)[١] .

وعن هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله ـ صلوات الله عليه ـ يقول : (لا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا تعالى وسنّة نبيّنا محمد ـ صلّى الله عليه وآله ـ فإنّا إذا حدّثنا قلنا : قال الله عزّوجل وقال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ)[٢] .

وعن ثامن الأئمة ـ صلوات الله عليه ـ في حديث : (فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن فإنّا إنْ حدّثنا حديثاً بموافقة القرآن وموافقة السنة أنّا عن الله وعن رسوله نحدّث ، ولا نقول قال فلان وفلان فيتناقض كلامنا ، إنّ كلام آخرنا مثلُ كلام أولنا ، وكلامَ أولنا مصداقُ كلامِ آخرنا ، وإذا أتاكم من يحدّثكم بخلاف ذلك فردّوه عليه وقولوا أنت أعلم وما جئت به ، فإنّ مع كل قول منّا حقيقة وعليه نور ، فما لا حقيقة معه ولا نور عليه ، فذلك قول الشيطان)[٣] .

وما أجاب به أبو الحسن علي بن محمد العسكري في رسالته الى أهل الأهواز الى أنْ قال ـ صلوات الله عليه ـ : (فإذا شهد الكتاب بتصديق خبرٍ وتحقيقه وأنكرته طائفة من الأمة وعارضته بحديث من هذه الأحاديث المزورة ، صارت بإنكارها ودفعها الكتاب كفاراً ضُلّالاً ، واصبح خبر ما عرف تحقيقه في الكتاب مثل الخبر المجمع عليه من رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ حيث قال : إني مستخلف فيكم خليفتين : كتاب الله وعترتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضّلوا بعدي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض . واللفظة الأخرى عنه في هذا المعنى بعينه قوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ إني تارك فيكم الثقلين : كتابَ الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ما أن تمسّكتم بهما لن تضلّوا فلما وجدنا شواهد هذا الحديث نصّاً في كتاب الله مثل قوله : ﴿ إنما وليُّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ . ثم اتفقت روايات العامة في ذلك لأمير المؤمنين أنّه تصدّق بخاتمهِ وهو راكع . فشكر الله ذلك له وأنزل الآية . ثم وجدنا رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ نادى بأنه من أصحابه الى أن قال ، فعلمنا أنّ الكتاب شهد بتصديق هذه الأخبار وتحقيق هذه الشواهد فلزم الأمة الإقرار بها ، إذ كانت هذه الأخبار وافقت القرآن ووافق القرآن هذه الأخبار ، فلما

(١) الوسائل .
(٢) البحار .
(٣) البحار .

وجدنا ذلك موافقاً لكتاب الله ووجدنا كتاب الله موافقاً لهذه الأخبار وعليها دليلاً . . الخ)[1] .

وعن محمد بن مسلم قال : قال أبو عبدالله ـ صلوات الله عليه ـ : (يامحمد ما جاءك في رواية من برٍّ أو فاجر فوافق القرآن فخذ به ، وما جاءك في رواية من برٍّ او فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به)[2] .

عن أبي يعفور قال . سألت .با عبدالله ـ صلوات الله عليه ـ عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومنهم من لا نثق به قال : (إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ فالذي جاءكم به هو أُولى به)[3] .

وهذه الطائفة الكبيرة من الروايات تهدينا الى أمرين :

الأول : أنّ الأصل في معارف الدين هو القرآن الذي يجب أنْ نعيد اليه كلّ شبهة ، وكل اختلاف ، وكلّ حكم فرعي . فإن في القرآن ميزاناً وفرقاناً يبين الحق والباطل .

الثاني : أنه يجوز بل يجب ردّ علم الفقه الى جوامع العلم في القرآن وتفسير الواحد بالآخر . . فجوامع العلم (الأصول العامة) تفسّرها المصاديق الفرعية تماماً كما أن الأمثلة توضح الحقائق الكلية .

---

(١) المصدر عن الاحتجاج .

(٢) المصدر .

(٣) الوسائل وهذه الأخبار نقلناها من كتاب ابواب الهدى (مخطوط) للعلامة الميرزا الاصفهاني / ص ١١٩ - ١٢٠

الفقهاء والاستنباط من القرآن

في حديثه المفصل عن العمل بظواهر الكتاب يرّد الأستاذ الأكبر الشيخ الأنصاري على البعض الذين يزعمون أنّ مجال الاستفادة من آيات القرآن في الأحكام محدود لأن آياته الكريمة التي وردت في الأحكام الشرعية مفسَّرة بالأحاديث وواضحة المعاني . . فيقول :

ولعله قصر نظره الى الآيات الواردة في العبادات فإن أغلبها من قبيل ما ذكره وإلاّ فالإطلاقات الواردة في المعاملات مما يتمسّك بها في الفروع الغير المنصوصة او المنصوصة بالنصوص المتكافئة كثيرة جدّاً مثل : أوفوا بالعقود ، وأحلّ الله البيع ، وتجارة عن تراضٍ ، فرهان مقبوضة ، ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ، ولا تقربوا مال اليتيم ، وأحلّ لكم ما وراء ذلكم ، وإنْ جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيّنوا ، ولو لا نفر من كلّ فرقة ، فاسألوا أهل الذكر ، وعبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، وما على المحسنين من سبيل . وغير ذلك مما لا يحصى . بل وفي العبادات أيضاً كثيرة مثل قوله : إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام . وآيات التيمم ، والوضوء ، والغسل ، وهذه العمومات وإن ورد فيها أخبار في الجملة إلاّ أنّه ليس كل فرع مما يتمسّك فيه بالآية ورد فيه خبر سليم عن المكافىء فلاحظ وتتبع .(١)

ويناقش الشيخ أيضاً الذين استدلّوا ببعض الأحاديث الناهية عن العمل بالكتاب لعامة الناس . . وعن التفسير بالرأي . ويعتقد أن هذه النصوص إنما وضعت شروطاً

---

(١) فوائد الاصول / ص ٤٠ .

للاستفادة من القرآن مثل الإلمام بالناسخ والمنسوخ ، والعام والخاص ، ومراجعة أهل الذكر في متشابهات القرآن، ويضيف قائلاً :

« مع معارضة الأخبار المذكورة بأكثر منها ، مما يدلّ على جواز التمسّك بظاهر القرآن مثل خبر الثقلين المشهور بين الفريقين وغيرها ، مما يدل على الأمر بالتمسّك بالقرآن والعمل بما فيه وعرض الأخبار المتعارضة ، بل ومطلق الأخبار عليه ، وردّ الشروط المخالفة للكتاب في أبواب العقود والأخبار الدالة قولاً وفعلاً وتقريراً على جواز التمسك بالكتاب مثل قوله ـ عليه السلام ـ لما قال زرارة : من أين علمت أنّ المسح ببعض الرأس ؟ فقال : لمكان الباء فعرّفه ـ عليه السلام ـ مورد استفادة الحكم بظاهر الكتاب . وقول الصادق (عليه السلام) : في مقام نهي الدوانقي عن قبول خبر النمام أنه فاسق ، وقال الله تعالى : ﴿ إنْ جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيَّنوا ﴾ الآية ، وقوله لابنه إسماعيل : إنّ الله عزوجل يقول : ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ فإذا شهد عندك المؤمنون فصدقهم . وقوله ـ عليه السلام ـ لمن أطال الجلوس في بيت الخلاء لا ستماع الغناء اعتذاراً بأنه لم يكن شيئاً أتاه برجله : أما سمعت قول الله عز وجل : ﴿ إن السَّمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ ، وقوله ـ عليه السلام ـ في تحليل العبد للمطلقة ثلاثاً أنه زوج قال الله عزوجل : ﴿ حتى تنكح زوجاً غيره ﴾ وفي عدم تحليلها بالعقد المنقطع انه تعالى قال : ﴿ فإن طلقها فلا جناح عليهما ﴾ أو تقريره ـ عليه السلام ـ التمسك بقوله تعالى : ﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ﴾ وأنه نسخ بقوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا المشركات ﴾ وقوله ـ عليه السلام ـ في رواية عبد الأعلى في حكم من عثر فوقع ظفره فجعل على أصبعه مرارة أنّ هذا وشبهه يعرف من كتاب الله: ﴿ ما جعل عليكم في الدين من حرجٍ ﴾ ثم قال : امسح عليه ، فأحال ـ عليه السلام ـ معرفة حكم المسح على أصبعه المغطى بالمرارة الى الكتاب مومئاً الى أن هذا لا يحتاج الى السؤال لوجوده في ظاهر القرآن . ولا يخفى أن استفادة الحكم المذكور من ظاهر الآية الشريفة مما لا يظهر إلّا للمتأمل المدقق نظراً الى أنّ الآية الشريفة إنّما تدلّ على نفي وجوبِ الحرج ، أعني المسح على نفس الأصبع ، فيدور الأمر في بادىء النظر بين سقوط المسح رأساً ، وبين بقائه مع سقوط قيد مباشرة الماسح للممسوح . فهو بظاهره لا يدّل على ما حكم به الإمام ـ عليه السلام ـ لكن يعلم عند التأمل إن الموجب للحرج هو اعتبار المباشرة في المسح فهو ساقط دون أصل المسح ، فيصير نفي الحرج دليلاً على سقوط اعتبار المباشرة

في المسح ، فيمسح على الأصبع المغطى . فإذا أحال الإمام ـ عليه السلام ـ استفادة مثل هذا الحكم الى الكتاب ، فكيف يحتاج نفي وجوب الغسل أو الوضوء عند الحرج الشديد المستفاد من ظاهر الآية المذكورة أو غير ذلك من الأحكام التي يعرفها كل عارف باللسان من ظاهر القرآن الى ورود التفسير بذلك من أهل البيت ـ عليهم السلام ـ .

ومن ذلك ما ورد من أنّ المصلّي أربعاً في السفر أن قرئت عليه آية القصر وجب عليه الإعادة وإلّا فلا ، وفي بعض الروايات إن قرئت عليه وفسّرت له والظاهر ولو بحكم أصالة الإطلاق في باقي الروايات أنّ المراد بقوله تعالى : ﴿ لا جناح عليكم أن تقصروا ﴾ بيان الترخيص في أصل تشريع القصر وكونه مبنيّاً على التخفيف ، فلا ينافي تعين القصر ، على المسافر وعدم صحة الإتمام منه . ومثل هذه المخالفة للظاهر يحتاج الى التفسير بلا شبهة . وقد ذكر زرارة ومحمد ابن مسلم للإمام ـ عليه السلام ـ أن الله تعالى قال : ﴿ لا جناح ﴾ ، ولم يقل : افعلوا ، فأجاب ـ عليه السلام ـ بأنه من قبيل قوله تعالى : ﴿ فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ . وهذا أيضاً يدل على تقرير الإمام لهما في التعرض لا ستفادة الأحكام من الكتاب والدخل والتصرف في ظواهره . ومن ذلك استشهاد الإمام ـ عليه السلام ـ بآيات كثيرة مثل الاستشهاد لحلّية بعض النسوان بقوله تعالى : ﴿ وأحلّ لكم ما وراء ذلكم ﴾ وفي عدم جواز طلاق العبد بقوله : ﴿ عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾ ومن ذلك الاستشهاد لحليّة بعض الحيوانات بقوله تعالى : ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً ﴾ الآية الى غيرذلك مما لا يحصى .

ويقول المفسر المعروف الفيض الكاشاني في معرض حديثه عن العمل بالقرآن :

« إنّ من زعم أنّ لا معنى للقرآن إلّا ما يترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حدّ نفسه ، وهو مصيب في الإخبار عن نفسه ، ولكنه مخطىء في الحكم برد الخلق كافة الى درجته التي هي حده ومقامه ، بل القرآن والأخبار والاثار تدلّ على أنّ في معاني القرآن لأرباب الفهم متّسعاً بالغاً ومجالاً رحباً . قال الله عز وجل : ﴿ أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ وقال سبحانه : ﴿ ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ وقال : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾، وقال : ﴿ لعلمهُ الذين يستنبطونه منهم ﴾ .

وقال النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ « إذا جاءكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله تعالى فما وافق كتاب الله فاقبلوه ، وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط » وكيف يمكن العرض ولا يفهم به شيء ؟ وقال ـ صلّى الله عليه وآله ـ : « القرآن ذلول ذو وجوه

فاحملوه على أحسن الوجوه » .

وقال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : (إلاّ أنْ يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن) . وقال ـ عليه السلام ـ : (منْ فهم القرآن فسر جمل العلم) .

أشار به الى أنّ القرآن مشير الى مجامع العلوم كلها ، الى غير ذلك من الآيات والأخبار . فالصواب أن يقال : من أخلص الانقياد لله ولرسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ ولأهل البيت ـ عليهم السلام ـ وأخذ علمه منهم ، وتتبّع آثارهم ، واطّلع على جملةٍ من أسرارهم ، بحيث حصل له الرسوخ في العلم ، والطمأنينة في المعرفة ، وانفتح عينا قلبه ، وهجم به العلم على حقائق الأمور وباشر روح اليقين ، واستلان ما استوعره المترفون ، وأنس بما استوحش منه الجاهلون ، وصحب الدنيا ببدنٍ روحه معلقة بالمحل الأعلى ، فله أن يستفيد من القرآن بعض غرائبه ، ويستنبط منه نبذاً من عجائبه ، وليس ذلك من كرم الله تعالى بغريب ، ولا من جوده بعجيب . فليست السعادة وقفاً على قومٍ دون آخرين ، وقد عدوا ـ عليهم السلام ـ جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم كما قالوا : سلمان منا اهل البيت ـ عليهم السلام ـ فمن هذه صفتُه لا يبعد دخوله في الراسخين في العلم ، العالمين بالتأويل ، بل في قولهم : نحن الراسخون في العلم ، كما دريت في المقدمة السابقة ، فلا بدّ من تنزيل التفسير المنهي عنه على أحد وجهين :

الأول : أن يكون للمفسِّر في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتجَّ على تصحيح غرضه ومدَّعاه ولو لم يكن ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن على تصحيح بدعته ، وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ، ولكن يلبس به على خصمه ، وتارة يكون مع الجهل . ولكن اذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه الى الوجه الذي يوافق غرضه ، ويترجّح ذلك الجانب برأيه وهواه ، فيكون قد فسر القرآن برأيه أي رأيه هو الذي حمله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لما كان يترجّح عنده ذلك الوجه .

وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن ويستدلّ عليه بما يعلم أنه ما اريد به ذلك . كمن يدعو الى الاستغفار بالأسحار فيستدلّ عليه بقوله ـ عليه السلام ـ : (تسحّروا فإن السحور بركة) . ويوهم أنّ المراد به التّسحر بالذكر وهو يعلم أنّ به الأكل ، وكالذي يدعو الى مجاهدة القلب القاسي فيقول : قال الله تعالى :

﴿ اذهب الى فرعون إنه طغى ﴾ ويشير الى قلبه ويومىء الى أنه المراد بفرعون . وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسيناً للكلام وترغيباً للمستمع وهو ممنوع منه .

وقد يستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم الى مذهبهم الباطل ، فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنّه غير مراد به . فهذه الفنون احد وجهي المنع من التفسير بالرأي .

الوجه الثاني : أنْ يتسارع الى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن ، وما فيها من الألفاظ المبهمة والمبدلة ، وما فيها من الاقتصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير ، وفيما يتعلّق بالناسخ والمنسوخ ، والخاص والعام ، والرخص والعزائم ، والمحكم والمتشابه ، الى غير ذلك من وجوه الآيات . فمن لم يحكم ظاهر التفسير ومعرفة وجوه الآيات المفتقرة الى السماع وبادر الى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زمرة من يفسر بالرأي . فالنقل والسماع لابد منه في ظاهر التفسير أولاً أن يتقي مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتّسع التفهّم والاستنباط ، فإنّ ظاهر التفسير يجري مجرى تعليم اللغة التي لا بد منها للفهم . وما لا بّد فيه من سماع فنون كثيرة : منها ما كان مجملاً لا ينبىء ظاهره عن المراد به مفصلاً مثل قوله سبحانه : ﴿ أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ فانه يحتاج فيه الى بيان النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ بوحي من الله سبحانه فيبيّن تفصيل أعيان الصلوات وأعداد الركعات ومقادير النُصُب في الزكاة وما تجب فيه من الأموال وما لا تجب ، وأمثال ذلك كثيرة[1] .

(١) تفسير الصافي / ج ١ ـ ص٣٢ ـ ٣٤ .



الفصل الثاني :

عن السنة



تمهيد :

منذ بزوغ فجر الرسالة وإلى الآن كانت السنّة الشريفة مصدراً أساسيًاً للتشريع وينبوعاً مباركاً للمعارف القرآنية ، وقد قال ربنا سبحانه ، عن الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ:﴿ ياأيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[1] .

أَوَليس السراج المنير يشعّ ضياءً في كل أُفق ؟ .

وقال ربّنا سبحانه : ﴿ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[2] .

وبهذا اقترنت السنّة بالكتاب سبيلاً للمعرفة ، وحجةً من الله في الأحكام الشرعية .

ثم اقترنت سنّة رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ بما روى عنه أهل بيته ـ عليهم السلام ـ من العلم حينما قال النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ : (إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي) .

وبما استخلف عليا ـ عليه السلام ـ من بعده فقال له : (أنت مني بمنزلة هارون من موسى) .

---

(١) الأحزاب / ٤٥ ـ ٤٦ .

(٢) الحشر /٧ .

وأدّبه كما أدّبه ربّه وأوكل إليه أمر تأديب أمته ، وحمّله علمه وهداه حتى قال الإمام ـ عليه السلام ـ : (علّمني رسول الله ألف باب من العلم ، ينفتح لي من كل باب ألف باب). وتوارث أئمة أهل البيت هذا النور كابراً عن كابر حتى قالوا :

(لو كنا نحدث الناس أو حدثناهم برأينا لكنّا من الهالكين ، ولكنّا نحدّثم بما لدينا من رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ نتوارثها كابر من كابر ، نكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم)[1].

وهكذا تكاملت حلقات السلسلة الذهبية للسنّة الشريفة ، التي فسّرت القرآن وأدّبت الأمة ، ونشرت معارف الدين ، وأصدرت فتاوى في الحوادث الواقعة معتمدة على نور الله المبين !

ولكن عظمة السنّة وشرفها ودورها الحاسم في حياة الأمة لم تحُل دون اختلافهم فيها . فما هي السنة ؟ ولماذا اختلفت رواياتها ؟ ولماذا تناسخت ؟ وهل كلها أحكام تستمر ، ام فيها ما تختص بزمانها ؟ وكيف اذا تراءى خلافها مع ظاهر الكتاب ؟

ولعلّ أهم دور اشتغل به فقهاء الإسلام من كل المذاهب والفرق هو البحث حول السنّة ، وانتخاب الروايات التي فيها ، وإخراجها من حيث السند ، وتفسيرها من الغموض ورد متشابهاتها الى محكماتها ، وعامها الى خاصها ومطلقها الى مقيّدها ، واختيار المفضّل منها لدى التعارض .

وبحثنا القادم يصلح مفتاحاً لحل بعض المشكلات في السنّة ، ونلخصه في نقاط :

ألف ـ الناس صنفان فقهاء في الدين ، علماء بالله ، واشياع أتباع يقلدون في أمور دينهم العلماء .

باء ـ والسنّة قسمان : فمنها ما يهدف الى تعليم الدين للفقهاء ، وتحميلهم معارفه ، التي تتمثل في جوامع العلم ، وأصول الشريعة ، ومنها ما يهدف الى تحديد حكم الفرد وواجبه العملي . . وهي الفتاوى الفرعية !

أما بالنسبة الى التعاليم فلا يجوز الخوض فيها الا للفقيه لأنه المعني بها ولأنها تعتمد على القرينة المنفصلة ولأنها لا تفهم الا بعد ان تتكامل .

---

(١) البصائر .

واما الفتاوى الفرعية فاذا كانت ظروف المكلف اليوم هي ذات ظروف السائل ذلك اليوم جاز له العمل بها لأنها احكام جزئية ومعرفة الظروف خاصة بالفقيه الذي يعتمد على جوامع العلم في تحديدها .

جيم ـ وأحكام الدين نوعان : فرض وتفويض أو قل:موقّتات وموسّعات ، فالفريضة كتاب موقوت ، بينما النافلة حكم موسع ، وما فُوِّض من أمر الدين الى النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ وأهل بيته -عليهم السلام- وربّما الى العلماء أيضاً من بعدهم ، إنما يختصّ بالموسّعات لا الموقّتات .

دال ـ من الموسّعات ما يتغيّر حكمه باختلاف الناس ، وحالاتهم وزمانهم ومكانهم . وأكثرها يتّصل بمعايش الناس ، وسياستهم ، واقتصادهم،واعراف اجتماعهم ..أو يتعلّق بتربيتهم وتزكية نفوسهم من الأوامر الولائية القيادية .

هاء ـ فإذا تعلّق الحكم بالموسّعات ، فقد يجوز للفقيه أن يتجاوز النصوص التي جاءت في الفروع ، ويعتمد على الأصول العامة.. وهذا الفرض يشمل الحقائق التالية :

١ ـ ما يتغيّر بالظروف كالأعراف والمقاييس .

٢ ـ ما يتّصل بالمعاملات من تحديد وتقييد وحكم مع احتمال أنْ تكون النصوص من قبيل الفتاوى في الموسّعات . . وتحديد الموضوع للشخص حسب أحواله .

٣ ـ ما يتّصل بالأوامر القيادية التي كانت للنبي والأئمة ـ عليهم السلام ـ الولاية الإلهية فيها .

٤ ـ ما يتعلّق بالفتاوى في غير ذلك .

بعد هذا الموجز دعنا نخوض في تفاصيل البنود الانفة والتعرف على ادلتها من الكتاب والسنة على اننا نؤخر البحث عن البند الاخير الى الجزء الثاني انشاء الله لنفصل به القول تفصيلاً كافيا .

الف ـ السنة بين العلماء والمتعلمين :

نعني بالمحكمات ـ في هذا الفصل ـ جوامع العلم وأصوله وقواعده العامة . . بينما نعني بالمفصّلات الفروع المتشعبة منها . وقد جرت سيرة العقلاء على تقسيم العلوم الى قواعدها العامة وفروعها الخاصة .

فأنت حينما تراجع الطبيب في مرضك لا يعنيه كما لا يعنيك علم الطب وقواعده ومعارفه إلا بقدر حاجتك . أما إذا كنت طالباً في كلية الطبّ فإنّ ما تسعى لتعلّمه هو تلك القواعد العامة .

وهكذا الذي يسعى الى الفقيه ليعرف حكم صلاته في السفر ، أو صومه عند المرض ، لا يبحث عن أصول الشريعة وقواعدها الفقهية ، إنما يستفتيه في أمره ، بينما طالب الفقه لا يكتفي بذلك ابداً .

وقد أشارت النصوص الى هذا التقسيم في مناسبات شتّى،ونذكر هنا بعضاً منها :

آ ـ عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر الباقر ـ عليه السلام ـ : (إن رسول الله أنال في الناس وأنال وأنال ، وإنّا ـ أهل البيت ـ معاقل العلم، وابواب الحكم، وضياء الأمر)[٤] .

ب ـ عن هشام بن سالم قال : قلت لأبي عبد الله الصادق ـ عليه السلام ـ جعلت فداك عند العامة من أحاديث الرسول شيء يصح ؟ قال : فقال : (نعم ، إنّ رسول الله أنال في الناس وأنال وأنال ، وعندنا معاقل العلم ، وفصل ما بين الناس)[٥] .

ج ـ وعن محمد بن مسلم قال ، قال أبو جعفر الباقر ـ عليه السلام ـ :(إن رسول الله أنال في الناس وأنال وأنال ، وإنّا اهل البيت عرى الأمر وأواخيه وضياؤه)[٦] .

وعلى هذه السيرة العقلائية المستمرة جرت سنّة المسلمين . فمنذ العصور الأولى كان بينهم فقهاء علماء ، وآخرون يتعلّمون منهم ويسألونهم معالم دينهم .

يقول في ذلك العلامة الميرزا محمد مهدي الأصفهاني :

« وعلى هذا تنقسم علوم الدين الى أصول الدين وما به قوامه وأصول فروعه وأحكامه ، والحجج على هذه هي العقول »[٧] .

---

(١) معاقل العلم ، حصونه وملاجئه ، ولعل مراد الامام ـ عليه السلام ـ انهم ميزان احاديث الرسول لمعرفة معانيها ، ورد متشابهاتها الى محكماتها ، ومعرفة الصادق منها والمفتري عليه منها وما اشبه بحار الأنوار / ج ٢ ـ ص ٢١٤ .

(٢) المصدر .

(٣) المصدر .

(٤) هناك رسالتان للمؤلف منقولتان عنه عبر الفقهاء الذين استفادوا منه ، احديها : رسالة في المعاريض (موجودة

وهكذا ينقسم الناس الى فقهاء في الشريعة ، علماء بالدين ، والى متعلمين منهم مستفتين إيّاهم . قال ربنا سبحانه : ﴿ وما كان الناس لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ﴾[1].

وقال سبحانه ﴿ ولو ردوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾[2].

مما يهدينا الى أنّ الفقهاء هم بعض الأمة وأنّ المستنبطين من القرآن هم طائفة من المسلمين . وليس كل المسلمين .

وقال سبحانه : ﴿ فآسألوا أهل الذكر إنْ كنتم لا تعلمون بالبيّنات والزبر ﴾[3] .

ونستوحي من ذلك أنّ أهل الذكر هم فريق خاص من ابناء الأمة .

وقال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في وصيته المعروفة لكميل : (ياكميل ، الناس ثلاث : عالم ربّاني ، ومتعلّم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع) .

باء ـ السنة بين الاصول والفروع .

وفيما يلي نذكر طائفة من النصوص تهدينا الى هذه الحقيقة .

١ ـ نقرأ في نصوص متظافرة أن النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ علّم الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ ألف باب من العلم ينفتح له من كل باب ألف باب .

وفي بعضها أنه علّم باباً من العلم ينفتح له منه ألف باب ، ومن كل باب ألف باب .

لو تدبرنا في هذه النصوص أفلا تهدينا الى أنّ منهج الدين ومنهج تعليمه من قبل الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ التدرّج من الأصول العامة الى الفروع الجزئية . فأصله التوحيد ، وحينما يعي القلب حقائق التوحيد يشعّ نورها في سائر حقول المعرفة ، وفي كل حقل يستضاء به في معرفة مفرداته . فلنتأمّل هذه النصوص معاً :

في مكتبة الحرم الرضوي بمشهد المشرفة تحت رقم (٨٤٧٣) والأخرى ملحق كتاب معارف القرآن في أصول الفقه اخذتها من بعض الفقهاء .. ونحن نعتمد في هذا الفصل كثيراً على هاتين الرسالتين .

(١) التوبة / ١٢٢ .

(٢) النساء / ٨٣ .

(٣) النحل / ٤٣ ـ ٤٤ .

عن ابن نباتة عن أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ قال : (ياأيها الناس إن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أسرّ إليّ ألف حديث في كل حديث ألف باب،لكل باب ألف مفتاح)[1] .

وجاء في حديث آخر :إن رسول الله علّم علياً باباً يفتح له ألف باب ، كل باب يفتح له ألف باب)[2]

وفي حديث ثالث : عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ قال سالم الراوي قال : قلت لأبي عبدالله : بلغنا ان رسول الله علم علياً ألف باب يفتح كل باب ألف باب . قال : فقال لي : بل علمّ باباً واحداً يفتح ذلك الباب ألف باب ، يفتح كل باب ألف باب)[3] .

وحين نتساءل عن طبيعة هذه الأبواب ، وكيف ينفتح من كل واحد الف باب للإمام ، نجد الإجابة عند أهل البيت ـ عليهم السلام ـ حيث أشاروا الى بعض الأصول العامة وقالوا إنها من الأبواب التي ينفتح من كل باب منها ألف باب .

حيث روي عن موسى بن بكير قال : قلت لأبي عبدالله (الامام الصادق) ـ عليه السلام ـ : (الرجل يغمى عليه اليوم أو اليومين أو أكثر من ذلك ، كم صلواته ؟ فقال : ألا أخبركم بما ينتظم هذا وأشباهه ؟ فقال : كلما غلب الله عليه من أمر (فإنه) اعذر لعبده) .

وزاد فيه غيره :

قال أبو عبدالله ـ عليه السلام ـ : وهذا من الأبواب التي يفتح كل باب منها ألف باب .

هكذا نعرف أنّ هناك أصولاً عامة في الفقه كان الأئمة ـ عليهم السلام ـ يعلمونها فقهاء شيعتهم ويشيرون لهم بأنه بابٌ لأحكام فرعية تترتب عليها ! وفعلاً كان الفقهاء يستنبطون من هذه الأصول العامة الفتاوى الفرعية ، كما نقرأ ذلك في الحديث التالي :

---

(١) عن الخصال ج ٢ ـ ص ١٧٦ ، ٢٢ موسوعة بحار الأنوار الجزء ٤٠ ص ١٣١ عن الامام الصادق عليه السلام .

(٢) البصائر .

(٣) المصدر ص ١٣٠ .

عن الحسين بن محمد السباري قال : سأل ابن أبي ليلى (وكان من فقهاء المسلمين) محمد بن مسلم (وكان فقيهاً عظيماً من فقهاء الشيعة) فقال :

(اي شيء تروون عن أبي جعفر (الإمام الباقر صلوات الله عليه) في المرأة لا يكون على رُكبها شعر ، أيكون ذلك عيباً ؟ .

فقال له محمد بن مسلم : أما هذا نصاً فلا أعرفه ، ولكن حدثني أبو جعفر ـ صلوات الله عليه ـ عن آبائه عليهم السلام عن النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ أنه قال : (كلما كان في أصل الخلقة فزاد أو نقص فهو عيب) .

فقال له ابن أبي ليلى : حسبك ، ثم رجع .

ألا ترى كيف علّم الإمام الباقر تلميذه محمد بن مسلم اصلاً عاماً لاستنباط الحكم الفرعي ، فلما سأله فقيه آخر القى ذلك الأصل إليه فاستفاد منه وعاد أدراجه .

وعندما كان واحد من فقهاء الشيعة ، يسأل الإمام عن حكم يأمره الإمام باستنباط ذلك من القرآن . فقد روي عن عبد الأعلى قال قلت لأبي عبدالله (الإمام الصادق عليه السلام) : عثرت فانقطع ظفري فجعلت على أصبعي مرارة فكيف اصنع بالوضوء ؟ قال :

(يعرف هذا واشباهه من كتاب الله،قال الله عزوجل : ﴿ ما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ امسح على المرارة[1] .

ومعروف أن استنباط هذا الحكم من تلك الآية لا يتسنى لكل الناس بل لأولي الفقه والذكر والاستنباط فحسب !

ويبدو أنّ الرواية التالية توضح ـ بصورة كافية ـ هذه الحقيقة : وهي أن الاسلام أصول عامة ، وفروع خاصة ، وأنّ هناك فقهاء حفظوا الدين حين احتملوا علوم أهل البيت ـ عليهم السلام ـ ووفروا لمن بعدهم فرصة الاستنباط .

فقد روي عن سليمان بن خالد الأقطع : قال سمعت أبا عبدالله (الإمام الصادق عليه السلام) يقول : (ما أحد أحيا ذكرنا وأحاديث أبي إلا زرارة وأبو بصير المرادي ومحمد بن مسلم وبرّيد بن معاوية ، ولولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هذا . هؤلاء حفاظ

---

(١) الكافي : التهذيب .

الدين ، أمناء ابي على حلاله وحرامه ، وهم السابقون إلينا في الدنيا والآخرة)[1]

فماذا يعني قوله : ما كان احد يستنبط هذا ؟ .

أوليس يعني أنّ قوام الاستنباط من تلك الأحاديث التي حمّلها الإمام الباقر كبار فقهاء شيعته ؟ .

ولقد أشار الأئمة ـ عليهم السلام ـ الى بعض تلك الأصول وأمروا الفقهاء للاستنباط منها ، مثلاً في دم الحيض جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ أنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ سنّ في الحيض ثلاث سنن بيّن كل مشكل لمن سمعها وفهمها حتى لا يدع لأحد مقالاً فيها بالرأي. أما أحد السنن[2].. الحديث .

وروي عن زرارة وأبي بصير عن الصادقين ـ عليهما السلام ـ : (إن علينا أنْ نلقي إليكم الأصول ، وعليكم أن تفرعوا)[3] .

وربما أرجعوا بعض الناس الى الفقهاء من اصحابهم . فعندما يسأل اسماعيل بن الفضل الهاشمي عن أبي عبدالله (الإمام الصادق عليه السلام) عن المتعة ؟ قال له الإمام : (ألقِ الى مالك بن جريح فأساله عنها ، فان عنده منها علماً (يقول إسماعيل) فلقيته فأملى عليّ شيئاً كثيراً في استحلالها . وكان فيما يروي فيها ابن جريح أنه ليس لها وقت ولا عدد . قال (اسماعيل) فأتيت بالكتاب أبا عبدالله ـ صلوات الله عليه ـ فقال : صدق . وأقرّ به)[4] .

ولماذا أمر الأئمة ـ عليهم السلام ـ بالاهتمام بالدراية وليس مجرد رواية الحديث ؟ أليس لأن المطلوب التفقّه في الدين واستنباط الأحكام من خلال الروايات بمعرفة النظائر والأشباه ، والعام والخاص . والمطلق والمقيد ، وأمثالها !

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ :(اعرفوا منازل شيعتنا بقدر ما يحسنون من رواياتهم عنا ، فإنّا لانعدّ الفقيه منهم فقهياً حتى يكون محدّثاً ، فقيل له : أوَيَكُون المؤمن محدَّثاً ؟ قال : يكون مفهَّماً (و) المفهّم محدّث..)[5] .

---

(١) المستدرك .

(٢) الوسائل .

(٣) عوالي اللئالي .

(٤) الوسائل .

(٥) عن رجال الكشي .

ويبدو من هذا الحديث : أن دراية الروايات ومعرفتها معرفة حسنة هي التي تجعل الفقيه فقيهاً ، وقد ترفعه الى مستوى المحدث .

وجاء في حديث شريف عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ : (حديث تدريه خير من الف حديث ترويه ، ولا يكون الرجل منكم فقيهاً حتى يعرف معاريض كلامنا ، وإن الكلمة منّا لتنصرف على سبعين وجهاً لنا من جميعها المخرج)[١] .

وقد كان حديث النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ والأئمة ـ عليهم السلام ـ بليغاً يراعي الظروف المختلفة ، لذلك كانوا يحدِّثون الناس على قدر عقولهم وبمقدار وعيهم ، وحاجتهم . ولذلك تعددت وجوه حديثهم وكانت على الزيادة والنقصان . . وإنما يقدر العالم الفقيه على استنباط الاحكام منها ، لأنه عارف بوجوه الكلام ، وما فيه من لحن القول أو التوسعة .

والنصوص التالية تشير الى هذه الحقيقة :

في الرواية المأثورة عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ : (أنتم أفقه الناس ، إذا عرفتم معاني كلامنا ، إنّ الكلمة لتنصرف على وجوه ؛ فلو شاء إنسان لصرف كلامه كيف شاء ولا يكذب)[٢] .

وعنه ـ عليه السلام ـ : (إنّا لنتكلم بالكلمة لها سبعون وجهاً لنا من كلها المخرج)[٣] .

وعنه ـ عليه السلام ـ : (خبر تدريه خير من ألف ترويه ، وإنّ لكل حقيقةٍ حقّاً ، ولكل صوابٍ نوراً ، ثم قال : إنّا والله ، لا نعدّ الرجل من شيعتنا فقيهاً حتى يلحن له فيعرف اللحن)[٤] .

والدراية هي التي تجعل الفقيه عارفاً بلحن القول ، ومعاريض الكلام ، وما فيه من تورية ـ وهل أنه خاص بظرف معين أو شخص ، إنه هو عام للجميع ، وإن الحكم من المحدّدات او الموسّعات . وما الى ذلك من وجوه يتعارف العقلاء عليها في محاوراتهم

---

(١) بحار الأنوار .

(٢) المصدر .

(٣) المصدر .

(٤) المصدر .

العامة .

ومن خلال الروايات ، نعرف أنّ حكم بيان الحديث على الوجوه المختلفة متعددة ، وأبرزها هي التاليه :

(اولاً :) تربية الناس على الالتزام بالمستحبات حتى يتعودوا عليها ، ثم التوسعة على الضعيف والمريض ومن أشبه مما نتعرّض له فيما يأتي إن شاء الله .

(ثانياً :) إخفاء الحكم عن غير أهله إمّا لعدم أهليته للحكم أو للتقيّة ، ويظهر ذلك من النصوص التالية :

(عن أبي عبيدة الحذاء قال : قال لي أبو جعفر عليه السلام : ياأبا عبيدة إياك وأصحاب الخصومات ، والكذابين علينا فإنهم تركوا ما أُمروا بعلمه وتكلفوا علم السماء . ياأبا عبيدة خالقوا الناس بأخلاقهم ، وزايلوهم بأعمالهم إنّا لا نعدّ الرجل فينا عاقلاً حتى يعرف لحن القول ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ **ولتعرفنهم في لحن القول** ﴾[1] .

من هذا الحديث يتبينّ ، أن مزايلة الناس بأعمالهم تقتضي التكتّم عنهم والتظاهر باتباع أخلاقهم وأعرافهم بينما يتمسّك المؤمن بما فرض الله عليه من مرّ الحق . . وهذا يستدعي عدم بيان كل الحقائق أمامهم ، وإنما الحديث بالكناية والتورية والمعاريض .

وفي حديث آخر : عن أبي بصير عن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ : قال : قيل له وأنا عنده ، إن سالم بن ابي حصة يروي عنك أنك تتكلّم على سبعين وجهاً لك منها المخرج ، فقال : (ما يريد سالم مني ؟ أيريد أن أجيء بالملائكة ؟ فوالله ما جاء به النبيّون . ولقد قال إبراهيم إني سقيم ، والله ما كان سقيماً ، وما كذب ، ولقد قال إبراهيم : بل فعله كبيرهم وما فعله كبيرهم وما كذب . ولقد قال يوسف أيها العير إنكم لسارقون ، والله ما كانوا سرقوا وما كذب)[2] .

وهكذا يتبينّ أن منهج الأنبياء في الحديث هو الذي اتّبعه الأئمة وهو العدول عن مقتضى السياق الى كلام آخر ، أو الحديث بما يوهم غير ظاهره عند العامة ويعرف الخواص وجه الكلام .

يقول العلامة الأصفهاني تعقيباً بعد نقل هذه الرواية : ظاهر للفقيه ، أنّ الإمام

(١) المصدر .

(٢) المصدر .

أجاب بتورية الأنبياء ، والاتكال على القرائن الخفية عن العامة الظاهرة لمن يفهم . فإنّ قوله ـ عليه السلام ـ بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، بعد قوله : أأنت فعلت هذا بآلهتنا « تورية »[1] ولو قال : مافعلته كما هو مقتضى المقام كان كذباً ، وكذلك مقتضى القاعدة أن يؤذن أنكم سرقتم صواع الملك فورّى وقال : إنكم لسارقون لسرقتهم يوسف من أبيه ـ كما في الرواية ـ وكذلك قول إبراهيم إني سقيم ففي تفسير القمي إنما عنى سقيماً في دينه مرتاداً ، فهذا التعويل على القرينة الخفية عن العامة ، ظاهرة لمن يفهم ويعرف خصوصية المقام[2] .

وهكذا ينبغي التدبر في النصوص ودرايتها لمعرفة القرائن الخفية التي اعتمدوا عليها لسببٍ أو آخر حتى لا يظهر كل مرادهم للعامة ويظهر لمن أوتي معاريض كلامهم ومعرفة لحن القول فيه .

جيم : السنة بين الفرض والتفويض

من الشريعة ما جاءت كتاباً مفروضاً ، كوقت الجمعة حين تزول الشمس،ومنها التي فوضت الى الناس ، أنبياء وأئمة أو من دونهم ، وهي الموسّعات التي تتدرّج كما يلي :

منها التي فوضت الى النبي فكانت سنته الطاهرة .

أو فوضت الى أئمة المسلمين الهداة . . بصفتهم العارفين بالقرآن والسنّة ، أو بصفتهم ولاة أمر المسلمين حقّاً .

أو فوضت الى أُولي الأمر من الناس .

أو فوضت الى المكلّف نفسه .

أما سنة النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ فهي التي أمره الله به أو أدّبه عليه ، ثم فوّض اليه أمره ، فمنها واجب وحرام ومنها ندب أو أعافة ، والامثلة كثيرة مثلاً ركعات الفرائض قسمان : منها فرض الله وهي الركعتان الاوليان من كل صلاة (وهي أمر الله للرسول وإنْ لم ينزل في الكتاب نصاً) ، بينما الركعة الثالثة في صلاة المغرب ، والركعتان الأخريان في غيرها من سنة الرسول الواجبة . وكذلك الرجم للمحصنة من السنّة الواجبة ، وحرمة الكلب والمسكرات ، من المنهيات المحرمة بسنّة الرسول ، أما

---

(١) لعل معناه : ان الالهة ان كانت تنطق هي التي فعلت فاسألوهم ان كانوا ينطقون .

(٢) رسالة المعاريض / ص ٥ (مخطوط) .

المندوبات والمكروهات فهي كثيرة مذكورة في كتب الفقه .

وهذه السنن هي التي فوض الله أمرها الى الرسول ، ثم قال ربنا سبحانه : ﴿ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[1] .

وجاء في الحديث :

(إنّ الله أدّب رسوله فأحسن تأديبه ثم فوّض إليه دينه) .

وكذلك الأئمة ـ عليهم السلام ـ قد فوّض الله إليهم دينه ـ جاء في الزيارة الجامعة : (... وأمره إليكم)[2] .

وقال الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ :

(إن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أدّبه الله وهو ـ عليه السلام ـ أدّبني ، وأنا أؤدب المؤمنين ، وأورّث الآداب المكرمين)[3] .

والسؤال : أي نوع من التفويض هذا الذي كان للأئمة . . هل هو تفويض دين الله تشريعاً كما كان للرسول ، أم أنه مجرد تفويض ولائي هدفه تفسير الدين وتطبيق بنوده على المؤمنين حسب الظروف المختلفة ؟ يبدو من الحديث الثاني أن التفويض من نوع التأديب ، بينما الحديث الأول يوحي بالشمول . إلاّ أنه لا يتناسب وإكمال الدين على عهد الرسول حيث يقول ربّنا سبحانه :

﴿ اليوم أكملت لكُم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي ، ورضيتُ لكُمُ الإسلام ديناً ﴾[4] وما نقل عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ أنّ كل علم يخرج منهم الى الناس فإنما هو من عند الرسول .

وهكذا يمكن أن نقول : إن الله سبحانه هو الذي يشرّع لعباده وحده ولا شريك له حيث يقول سبحانه :

﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾[5] .

---

(١) الحشر / ٧ .

(٢) ضياء الصالحين / الزيارة الجامعة .

(٣) تحف العقول / ص ١١٩ .

(٤) المائدة / ٣ .

(٥) الشورى / ٢١ .

﴿ فجعلتم منه حلالاً وحراماً آلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾[1] .

ولقد أذن ربّنا لنبيّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ الذي أدّبه فأحسن تأديبه أنْ يسنّ من الشريعة ما ينفع الأمة لحكمةٍ بالغة هو أعلم بها . . وربما ليرفعه عند الناس مقاماً محموداً . ويؤتيه بعض جزائه في الدنيا بالذكر الحسن ، والصلاة الدائمة .

والسنّة النبوية لن تخرج من إطار القرآن الكريم . . ولن تخالف آياته أبداً . . وإنما هي وحي من عند الله تصدق القرآن وتفسره . إلاّ أنّها تطبيقات خارجية لأحكام الله العامة أمرنا الله باتباعها ، وقال :

﴿ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[2] .

ولكنّ الأمر يختلف في أوصيائه ، إذ إن التحديد الذي حدّدوا به عمومات الشريعة قسمان :

(ألف ـ) تفسير للكتاب والسنّة ، كما لو فسر حديث شريف معنى الصعيد أو حدود المرفق والكعب في قوله سبحانه : ﴿ فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين ﴾ .

ومثل هذا التفسير ملزم لنا لأنّهم أعرف بالكتاب الذي نزل الى بيوتهم ، وكانوا هم المخاطبين به . ولعلّ الأحاديث التالية جاءت في هذا السياق : (فليذهب الحكم يميناً وشمالاً فوالله لايوجد العلم إلاّ من أهل بيتٍ نزل عليهم جبرئيل)[3] .

(شرّقا وغرّبا لن تجدا علماً صحيحاً إلاّ شيئاً يخرج من عندنا أهل البيت)[4] .

(أمّا إنّه ليس عند أحدٍ علم ولا حق ولا فتيا إلاّ شيء أُخذ من علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ وعنّا أهل البيت ، وما من قضاء يقضي به بحقٍّ وصواب إلا بدءُ ذلك ومفتاحه وسببه وعلمه من عليٍّ ـ عليه السلام ـ ومنّا)[5] .

(باء :) ما كان يتّصل بالمتغيّرات في حياة كل إمام ، وهي كثيرة أبرزها : ما يتّصل

---

(١) يونس /٥٩ .
(٢) الحشر /٧ .
(٣) بحار الأنوار / ج ٢ ص ٩١ .
(٤) المصدر / ص ٩٢ .
(٥) المصدر / ص ٩٥ .

بتأديب الناس وتزكيتهم ، أو يتعلق بإدارة شؤون الشيعة ، أو يرتبط بالفتوى في الحوادث الواقعة ، وأغلب هذا القسم يرجع أمره الى الفقهاء من شيعتهم . فهم أعرف بمعاريض كلامهم وما فيه من لحن القول ، أو تورية ، أو مجاز ، أو تقييد ، أو اختصاص بزمانهم ، باعتبارهم ولاة الأمر ، ولذلك يجوز لهم الرجوع الى جوامع العلم التي صدرت منهم دون الفتاوى أو الأوامر الخاصة ..

دال : السنة بين الثوابت والمتغيرات

دعنا نتساءل عن الحكمة في النسخ الذي يقول عنه ربنا سبحانه : **﴿ ما ننسخ من آية او ننسها نأتِ بخير منها أو مثلها ﴾**(1) .

ولماذا الأحاديث نسخت بعضها كما تناسخت الآيات ؟ .

الجواب: ان الحكمة الظاهرة للنسخ أمور :

الأول : إن الحكم كان محدوداً بزمان نزوله وهدفه التمهيد لحكم آخر .. مثل قبلة الصلاة التي كانت الى القدس فلما اقتضت الحكمة تغيّرت الى المسجد الحرام .

الثاني : إن الهدف من الحكم كان امراً طارئاً ، فلمّا انقضى عاد الحكم الأولي ، مثل الصدقة التي أُمر المسلمون باعطائها عند مناجاة رسول الله ، ثم نسخ الأمر وقال ربنا سبحانه : **﴿ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة ﴾**(2) .

الثالث : تربية الناس وتأديبهم وأخذهم بالأشدّ حتى يستعدّوا لما هو أخف .. مثل أن يكون الواحد من المسلمين يواجه عشرةً من الكفار ثم خفّف بواحدٍ يواجه اثنين وقال سبحانه :

﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾(3) .

وكذلك الرفث في ليلة الصيام حيث كان حراماً فحللّه الله وقال سبحانه :

﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم .. علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن ﴾(4) .

---

(1) البقرة / ١٠٦ .
(2) المجادلة / ١٣ .
(3) الأنفال / ٦٥ .
(4) البقرة / ١٨٧ .

ولعل حكم الصدقة بين يدي النجوى من هذا القبيل أيضاً .

وحتى شدة الشرائع السابقة بالنسبة الى الشريعة الإسلامية السمحاء قد تكون بحكمة .

تربية الناس على الأصعب لضمان استمرارهم في الأسهل .

ومن هنا قد يوجب وليّ الأمر حكماً راجحاً في الأصل ، حتى إذا تعوّد عليه الناس ، رخص فيه مثل قيام الليل حيث عرف المسلمون من خلال آية المزمل : ﴿ قم الليل إلا قليلاً ﴾ إنه واجبٌ مفروض ، ثم جاءت الرخصة .

والنصوص التي تدعو الى المستحبّات ظاهرة في الفرض ، وعادة لا نفهم الرخصة من متنها ، وإنما من دليلٍ خارج عنها ، مثل نص ، أو إجماع ، وذلك أشدّ بعثاً وأبلغ اثراً . ولعل عدم بيان المائز بين أوامر العزيمة والرخصة لعامة الناس كان يهدف إنهاضهم للعمل بها وحثّهم على القيام بكل التعاليم واجبها ومندوبها .

أجل . . إن الأئمة ـعليهم السلام- بيّنوا للفقهاء خاصة . . الفرق بين العزيمة والرخصة التي بيّنوها بقرائن خارجية ! .

والحديث التالي قد يدلّ على هذه الحقيقة بين حقائق أخرى نستوضحها منه :

عن كتاب عيون أخبار الرضا ـ عليه السلام ـ مسنداً عن أحمد بن الحسن الميثمي أنه سأل الرضا ـ عليه السلام ـ يوماً ـ وقد اجتمع عنده قوم من أصحابه.وكانوا يتنازعون في حديثين مختلفين عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ في الشيء الواحد ؟ فقال عليه السلام :

(إن الله عزوجل حرّم حراماً ، وأحلّ حلالاً ، وفرض فرائض ، فما جاء في تحليل ما حرّم الله أو تحريم ما أحل (احله) الله أو رفع فريضة في كتاب الله رسمها بين قائم بلا ناسخ نسخ ذلك ، فذلك ما لا يسعُ الأخذ به ، لأن رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يكن ليحرّم ما احل الله ، ولا ليحللّ ما حرم الله ، ولا ليغيّر فرائض الله وأحكامه ، كان في ذلك كله متبعاً مسلماً مؤدّياً عن الله ، وذلك قول الله عزوجل : ﴿ إن أتبع إلا ما يوحىٰ اليّ ﴾ فكان عليه السلام متبعاً لله مؤدّياً عن الله ما أُمِر به من تبليغ الرسالة ، قلت : فإنه يرد عنكم الحديث في الشيء عن رسول الله صلّى الله عليه وآله ، مما ليس في الكتاب وهو في السنة ، ثم يرد خلافهُ ؟ فقال : وكذلك قد نهى رسول الله عن أشياء

نهي حرام فوافق في ذلك نهيه نهي الله تعالى ، وأمر بأشياء فصار ذلك الأمر واجباً لازماً تعدل فرائض الله تعالى فوافق في ذلك أمره أمر الله تعالى . فما جاء في النهي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله نهي حرام ثم جاء خلافه لم يسع استعمال ذلك . وكذلك فيما أمر به لأنه ما نرخص فيما لم يرخص فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله ، ولا نأمر بخلاف ما أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله ، الاّ لعلّة خوف ضرورة . وأما أن نستحلّ ما حرّم رسول الله صلّى الله عليه وآله ، أو نحرّم ما استحلّه رسول الله صلّى الله عليه وآله فلا يكون ذلك أبداً لأنّا تابعون لرسول الله صلّى الله عليه وآله ، مسلمون له كما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله تابعاً لأمر ربه عزوجل ، مسلماً له ، وقال الله تعالى : ﴿ **ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ وإن رسول الله صلّى الله عليه وآله نهى عن أشياء ليس نهي حرام (بل نهي) إعافة وكراهة ، وأمر بأشياء ليس أمر فرض ولا واجب ، بل أمر فضل ورجحان في الدين ، ثم رخص في ذلك للمعلول وغير المعلول . فما كان عن رسول الله صلى الله عليه وآله نهي إعافة أو أمر فضل فذلك الذي يسع استعمال الرخص فيه اذا ورد عليكم عنا فيه الخبران باتفاق من يرويه في النهي ولا ينكره . وكان الخبران صحيحين معروفين باتفاق الناقلة فيما يجب الأخذ بأحدهما ، أو بهما جميعاً ، أو بايهما شئت وأحببت موسع ذلك لك ، لكن من باب التسليم لرسول الله صلّى الله عليه وآله ، والرد عليه والينا (وعلينا) كان تارك ذلك من باب ، وان العناد والإنكار وترك التسليم لرسول الله صلّى الله عليه وآله شركاً بالله العظيم . فما ورد عليكم من خبرين مختلفين فاعرضوهما على كتاب الله ، فما كان في الكتاب موجوداً حلالاً أو حراماً فاتبعوا ما وافق كتاب الله ، وما لم يكن في الكتاب ، فاعرضوا على سنن النبي صلّى الله عليه وآله ، فما كان في السنة موجوداً منهياً عنه نهي حرام مأموراً به عن رسول الله أمر الزام فاتبعوا ما وافق نهي رسول الله صلّى الله عليه وآله وأمره ، وما كان في السنة نهي إعافة أو كراهية ثم كان الخبر الآخر خلافه ، فذلك رخصة فيما عافه رسول الله وصلّى الله عليه وآله وكرهه ولم يحرمه ، فذلك الذي يسع الأخذ بهما جميعاً ، أو بأيهما شئت وسعك الاختيار من باب التسليم والاتباع والرد الى رسول الله صلّى الله عليه وآله . وما لم تجدوه في شيء من هذه الوجوه

فردوا الينا علمه فنحن أولى بذلك ولا تقولوا فيه بآرائكم ، وعليكم بالكف والتثبيت والوقوف وانتم مطالبون باحثون حتى يأتيكم البيان من عندنا)[1] .

وهذا الحديث يعتبر أصلاً في هذا الباب بما يحتويه من مضامين عالية موافقة لسائر النصوص الشرعية ومقبولة عند العقل ومرتكزات المتشرعين ! ونستوحي منه عدة بصائر فيها وراء تلك البصائر التي سبقت في سائر النصوص :

(**أولاً** :) إن من الموسّعات ما جاء فيه للمعلول وغير المعلول ، الترخيص فيه وهذا الترخيص يأتي عادة بأمر قانوني ! .

(ثانياً :) إن من الموسّعات ما كان فيه تخيير بين أمرين يجوز الأخذ بهما أو بأحدهما من باب التسليم ! .

(ثالثاً :) إن أوامر الأئمة -عليهم السلام- لن تخالف أوامر الكتاب والسنة ، وإنما توافقهما كما أن تعاليم النبي - صلّى الله عليه وآله - لن تخالف الكتاب ، إنما هي تفسير له وتبيان وشرح ، ولعل المخالفة وعدم المخالفة أعم من وجداننا ان نجده في الكتاب أو لا نجده لأننا لسنا في مستوى النبي - صلّى الله عليه وآله - والأئمة من أهل بيته - صلوات الله عليهم - في فهم الكتاب واستنباط الأحكام منه . وبالتأكيد لم يترك كتاب ربّنا سبحانه شيئاً نحتاجه إلا وقد بيّنه فما لم نجده فيه خصوصاً أو عموماً يجده النبي وأهل بيته والراسخون في العلم من شيعتهم ، فلا يجوز لنا ردّ شيء من كلامهم بمجرد عدم معرفتنا بموضعه وشاهده من كتاب الله . بلى ، لو عرفنا بمخالفته لنص من الكتاب تركناه جانباً .

ولنضرب مثلاً : لقد حدد الكتاب ما حرم ربّنا علينا وقال سبحانه : ﴿ **قل لا اجد في ما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلاّ أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير** . . ﴾[2] وقد علمنا أنّ السنّة حرّمت الحشرات وهي غير موجودة في هذه الآية نصاً ، فهل يجوز أن نرد هذا التحريم رأساً ؟ كلا لأنّ هناك آية قرآنية تقول : ﴿ **ويحرّم عليهم الخبائث** ﴾[3] ونحن نحتمل أن تكون الحشرات من مصاديق الخبائث . . فتشملها الآية بعمومها.

---

(١) عيون اخبار الرضا

(٢) الأنعام ١٤٥ .

(٣) الأعراف

خلاصة الحديث :

إن على الفقيه الذي هذّب نفسه وزكاها أن يستثير عقله حتى يستخرج دفائنه (وبالسبل التي ذكر بها أئمة الهدى ـ عليهم السلام ـ) وأن يستنطق كتاب الله ويتلوه حق تلاوته ويتدبّر في آياته ..

وأنْ يجتهد في دراية الأحاديث ، وفهم أبعادها ومعاريضها ومعرفة بعضها ببعض .

كل ذلك من أجل أنْ يبلغ أصول العلم ، وضياء الأمر ، ونور الحِكَم ألإلهية ، وروح التعاليم وقيمها . . فاذا ورد عليه فرع سهل عليه إرجاعه الى أصله ، وإذا اختلفت عليه النصوص أرجع متشابهها الى محكمها ، لأنه يصبح ـ بفضل الله وبما وفقه من استثارة العقل والتدبّر في الكتاب والسنّة ـ من الراسخين في العلم الذين يعرفون أحكام الله الثابتة ، كما يستنبطون حكم الحوادث الواقعة ويعلمون أيضاً تأويل آيات الله المتشابهة .

وإذا بلغ الفقيه هذا المستوى ، ثم اشتبه عليه حكم ، يرجع الى الأصول العملية التي تحدّد حكم الشاكّ . . من البراءة أو الاشتغال أو التخيير أو القرعة في بعض الأمور .

ولا ينبغي للفقيه أن يبادر نحو الأصول التي وضعت لحالة الشك .

إلّا بعد استفراغ الجهد في التعرّف على أحكام الله الأولية بالعقل والكتاب والسنّة .

ويبدو ان البعض يستعجل في ذلك ، ولا يبحث عن الأحكام اليقينية التي تطمئن إليها النفس بالقدر الكافي ويتسرّع في القول بأنه لا يحصل عنده يقين . حتى أنّ بعضهم يصرف الوقت في تحديد حكم الشاك ، والتنقيب عن الأدلة القياسية في التعرّف على الأصول أكثر ممّا يصرفه في التدبر في القرآن ودراية السنّة .

ولعل السبب في سرعة اليأس عن حصول اليقين عندهم واحدٌ من العوامل التالية :

(أولاً :) أنهم لا يعرفون معنى اليقين . . ويزعمون أنه انعدام الاحتمال حسب التعريف الفلسفي للقطع وقد سبق أنّ اليقين غير ذلك انما هو سكينة النفس والتحسس ببرد اليقين فيها .

(ثانياً :) أنهم يفتشون عن الأحكام الفرعية أكثر مما يفتّشون عن الأصول العامة .

الباب الثالث :

مناهج الاجتهاد



الفصل الاول :

المناهج العامة



تمهيد

كيف نعمل لكي لا نخطىء في الاستنباط ؟ .

من خلال البصائر التي مرّت بنا فيما مضى، عرفنا بعضاً من شروط الاستنباط ومناهجه . وما هذا الفصل الا تكميلا أو بلورةً لها ونسميه بالمناهج .

والمناهـج هذه نوعان ، الأول : ما يتّصل بكل بحثٍ بالمناهج العامة ، .

والثاني : ما يختص بالفقه ، ونسمّيه بالمناهج الخاصة .

وقد جمعت كثيرا من الأفكار حول مناهج البحث في كتابي « المنطق الاسلامي » ولا أظن أنّ لي افكاراً كثيرة لأضيفها عليه . لذلك عمدت اليه فاختصرت بعض ما يتناسب وبحوثنا هذه . . ومَنْ أحبَّ التفصيل يمكنه الرجوع الى ذلك الكتاب .

أما في المناهـج الخاصة باستنباط الفقه فقد أشرت الى ما تبادر الى ذهني من أفكار جديدة وبالذات فيما يرتبط بضرورة معرفة متغيّرات الزمان في استنباط أحكامها . وكذلك فيما يتّصل بصفات الفقيه الذي يجوز له استنباط الحكم .

العوامل للخطأ النفسية

إذا استيقظ العقل ، اكتشف مناهجه وعرف بنوره الإلهي كيف يسلكها الى المعرفة ، وكذلك فهو ـ ايضا ـ يكشف الأخطاء التي قد يقع فيها ،ويعرف كيف يتجنّبها وإنما نذّكر بها هنا لسببين :

(أولاً :) لكي نذكر العقل بذاته وننميّه بتحذيره عن عوامل الخطأ ، أليس الشيء يعرف بضدّه ؟ كذلك العقل يعرف عندما نعرف ضده الجهل ونتحذّر منه .

(ثانياً :) لأن العقل يزداد ويتكامل بالتجارب ، وكلما وعى الانسان تجارب غيره في منهجية استنباط الحقائق وكشفها اكتمل نضجه ، ولذلك كان أعقل الناس مَنْ جَمَعَ عقول الناس الى عقله . وهذه العوامل التي نذكرها إنما اجتمعت نتيجة تجارب الآخرين أو تذكرة الشرع .

وقد قسمنا هذه المناهج الى ثلاثة مباحث تدور جميعها حول عوامل الخطأ التي لا بدّ أن نتحذر منها : الاول عن العوامل النفسية ، والثاني عن العوامل المادية ، والثالث عن العوامل المنهجية .

وهناك عوامل أخرى للخطأ أعرضنا عنها ، مثل عامل الوراثة والتربية والبيئة والاقتصاد وما أشبه . لأنها جميعاً تعود الى عامل الهوى الذي أشرنا اليه في أحاديثنا السابقة . . وقد فصّلنا الحديث في كل ذلك في كتاب « المنطق الاسلامي » .

وكذلك بحثنا ـ في ذلك الكتاب ـ مناهج البحث في كل حقل من حقول العلم . ولا

أظن ان تكرارها في هذا الكتاب ذو فائدة تذكر . . إذ يمكن الرجوع فيها الى كتابنا ، أو أي كتاب منطقي آخر .

مشكلة الانسان في المعرفة

يتصور الرأي السائد في المنطق أن مشكلة الانسان في العلم ، هي مشكلة عقلية محضة ، يمكن حلها بوضْع قواعد لتنظيم عملية التفكير . إلاّ أنّ الحقيقة : أنّ المشكلة هي مشكلة نفسيّة ، قبل ان تكون عقليّة ، ولذلك فنحن بحاجة الى معالجة النفس البشرية ، قبل أن نضع قواعد لعقله ، وتنظيم فكره .

ومن هنا فإنّ علم النفس : لا بدّ أن يدخل كطرفٍ مباشر في المنطق كما يقول جون ديوي :

« إن علم النفس ذاته فرعٌ خاص ، من فروع منهج البحث فهو ـ بصفة عامة ـ يتّصل بنظرية البحث المنطقي ، بنفس العلاقة التي يتّصل بها علم الطبيعة ، أو الكيمياء، ولكن ـ لمّا كان علم النفس أوثق اهتماما من سائر العلوم الأخرى ، بالمركز الرئيسي الذي يصدر عنه اجراء البحث إنشاءً وتنفيذاً ـ كان من الجائز ان يضيف الى النظرية المنطقية ، إضافات ليست في مقدور العلوم الاخرى ، شريطة ان يُستخدم أداةً لخدمة المنطق ، لا أن يكون سيفاً له »[1] .

وكما يقول هانز : « إنّ البحث عن نفسية الفلاسفة مشكلة ، تستحق من الانتباه اكثر ممّا يبديه الكتاب من الذين يعرضون تاريخ الفلسفة »[2] .

السؤال الذي يرتسم أمام العلماء : البحث عن جذر كل غريزة في نفس الانسان وهل أنّ لكل واحدة منها جذراً مختلفاً عن الأخرى ، أم أن الغرائز تلتقي عند جذر واحد .

إنّ النظر العميق يهدي الى وحدة الغرائز من الناحية السيكولوجية ، بمعنى أنّها نابعة من جذرٍ واحد ، هو حبُّ الذات ، ورجاء الخير له والخشية عليه من الشر ، بيد أنّ هذه الوحدة السيكولوجية لا تتنافى مع الاختلاف الفسيولوجي والبيولوجي لها ، بل نستطيع ان نقول : إنّ كافة الشهوات تعود الى غريزة واحدة ، فهناك مثلا حبّ السيطرة ،

(١) المنطق نظرية البحث / ص ١٠٧ .
(٢) نشأة الفلسفة العلمية .

وطلب الشهوة والحياء من الناس ، واتباع العظماء ، واتباع الوالدين ، والاقربيين . . إنها تعود الى ذات الغريزة الواحدة ، إذ ما من عملٍ غريزيّ يقوم به البشر ، الاّ بسبب اعتقاده ، بأنّه يقوم بصورة مباشرة أو غير مباشرة بإشباع احدىً غرائزه الأولية .

فمثلاً اتّباع السلطان ، قد يكون طمعاً في ماله ممّا يوفّر بالتالي للفرد الطعام والجنس و . . و . . وقد يكون خوفاً من عقابه ، بمعنى أنّ عدم هذا الاتّباع يقضي عليه ، بالحرمان من الغرائز ، فاتّباعه يوفّر له ما كان يخشى أن يُحرم منه. فرجاء البلوغ للشهوات ، لا يختلف كثيراً عن خوف حرمانها ، إنّهما نابعان من مصدر واحد ، هو حب الشهوات . وما من دافعٍ نفسي ، يكمن وراء عمل بشري ، إلا ويعود - بعد حذف التفاصيل واستخلاص الجوهر من المظاهر - يعود الى الخوف والرجاء ، الخوف من حرمانه ممّا يملك ، والرجاء في حصوله على ما لا يملك ، فمثلاً : الطفل يتبع والديه خوفاً من حرمانه إنْ عصاهم - من رزقهما وحمايتهما - ورجاء في المزيد من الرزق والحماية .

والمرء يتبع جماعته خوفَ تفرّده - لدى انفصاله عنهم - وبالتالي حرمانه من منافع الجماعة ، ورجاء المزيد من ذلك ! .

والرجل يتبع نهج الصراع الطبقي ضد طبقة أخرى ، خوفاً من حرمانه من أكله وأمنه ، ورجاءً في الحصول على المزيد من إشباع الجوع وتوفير الأمن ! والإنسان يسعى للرئاسة ، لأنّه يجدها أنسب الطرق لحماية ما عنده ، وحصول ما ليس عنده من الغرائز !!

وحتى بعض الأعمال التي لا نجد فيها الخوف والرجاء في الظاهر ، نجدهما ، لدى البحث والتنقيب ، فمثلاً عبادة الأصنام، اذ البشر يتبع الأصنام لخوفه من عوامل الطبيعة ، ورجاءً في المزيد من الشهوات[1].

والانسان المسلم يطيع الله خوفاً من سطواته التي تحرمه النعم ورجاء المزيد من بركاته وإذا جمعنا الخوف والرجاء في تعبير دقيق قلنا « حب الذات » ولا نعني بحب الذات إلاّ حبّ الأشياء لها ، والخشية عليها من الأشياء .

وإذا فتشنا اللغة لنجد تعبيراً أدقّ ، لما وجدناه إلاّ في كلمة « هوى النفس » . لذلك كان الهوى « هوى النفس » هو الذي حمّله القرآن الحكيم مسؤوليات الضلالة

(١) واتخذوا من دون الله الهة لعلهم ينصرون يس / ٧٤ .

البشرية فقال الله سبحانه :

﴿ إن يتّبعون إلاّ الظنّ وما تهوى الأنفس ﴾[1].

﴿ فلا تتّبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾[2].

﴿ فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله ﴾[3].

﴿ ومن أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من الله ﴾[4].

وفي الحديث عن الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ :

« أمّا اتباع الهوى فيصدّ عن الحق ، وطول الأمل ينسي الآخرة »[5].

وقد سبق ان تحدثنا طويلاً عن هذه الحقيقة .

وفيما يلي نتحدث بإذن الله عن مدى علاقة حبّ الذات « هوى النفس » بجذور الخطأ النفسيّة .

---

(١) ص / ٢٣ .

(٢) النساء / ١٣٥ .

(٣) ص / ٢٦ .

(٤) القصص / ٥٠ .

(٥) منية المريد / ص ٣٦ .

الجذور النفسيّة للخطأ

لا بدّ أن نشير مكرراً الى أن النفس البشرية تتنازعها طاقتا العقل والجهل . وأن الجهل،طاقة ذاتية نابعة من طبيعة وجودنا الناقص . أمّا العقل ،فهو هبة من الله القدير .

وأن كل ما في النفس من حنينٍ الى المادّة ، وحبّ لها ، ناشئةٌ من طبيعتها الذاتيّة .

والجذور النفسية التالية إنْ هي إلاّ مظاهر ، وانعكاسات لهذه الطبيعة ، وإنّ فصلَ هذه المظاهر عن بعضها يتمّ بهدف التوضيح ، ووضعِ النقاط على الحروف .

وسوف نستعرض في البداية جذر كل خطأ وبعده نبينّ نتائجه . والجذور التي سوف نستعرضها ثلاثة : الحبّ ، وفقد الثقة ، والتسرع .

الف : الحب

ما هو الحبّ ؟ إنّه انجذاب النفس الى شيء .

ويتدخّل الحبّ في المعرفة سلبياً ، وله جذر ونتائج ، أما الجذر فإنّه يستقطب كلّ اهتمام النفس في بؤرة واحدة هي الحبيب ويحاول حمل صاحبه على صرف كل طاقاته فيه .

والتفكير طاقة لا تشذّ عن سائر الطاقات النفسية المنجذبة بعنفٍ نحو الحبيب .

والمعرفة بحاجة الى التفكير ، كي تصبح متكاملة وواضحة ، إذ ستصبح كل مصادر المعرفة ـ حتى الإحساس ـ غير مفيدة « علماً » دون وعي وتفكير .

وإذ يصرف الحبّ فكر صاحبه نحو بؤرة الحب،بعيداً عن الواقع الموضوعي ، لا

تستطيع النفس أن تعي أو تفكر في الحقيقة . حتى يفقهها فتقع في الخطأ .

وحينما نقول « يصرف الحب » لا نقصد ـ بوجه ـ حتميّة الصرف هذا ، بل ليس إلّاضغط الجانب النفسي الذي يحدثه الحب على الإرادة ، وتبقى النهاية الحاسمة،بِيَدِ الإنسان يختارها بحرية تامّة ، وهناك إمّا يرضخ للحب أو يرفض الإستسلام .

النتائج :

١/ حب الذات

يتعصّب البشر لأفكاره بدافع حب الذات ، ويجادل عنها ، ويستكبر دون معرفة ما يقابلها ودون الإنفتاح على ما سواها .

ويتعصّب أيضاً لكلّ فكرة تكسبه نفعاً ، أو تدفع عنه ضرّاً ، ويتلوّن بها حسب الظروف ، وينغلق دون غيرها حتى ليعمي بصره .

ويغترّ بجهله ، ولا يذل نفسه ـ حسب ظنّه ـ بالسؤال ،أو البحث عن الحقيقة ، أو التسليم لمن ينادي بها ، لمجرد الظن بأنّ في ذلك منقصة لذاته ، ذلك التي يحبها ،والى هذه الغريزة ترجع عوامل الحسد والحقد والعناد النفسية .

٢/ اسلوب العرض

قد يستهوي الفرد أسلوب عرض الفكرة ، فيحبّها ويدافع عنها ، وينغلق دون ما سواها .

وتأتي ظاهرة التداعي في الحب لربط الأسلوب بالفكرة ، ذلك أن أسلوب العرض لا علاقة له في الواقع بحقيقة الفكرة ، والفكرة لا جمال فيها أو قبح إلّا بقدر ما فيها من نسبة الحقيقة ، إلّا أن التفكير المنهجي فقط هو الذي يحسّ بهذه المفارقة .

أمّا النفس فإنها ، إذا أحبّت شيئاً أحبّت كل ما يلابسها لظاهرة التداعي في الحب ، تلك الظاهرة التي لا تكشفها لنا تجارب العلم وحدها ، بل ووجدان كلّ منّا أيضاً ! ، فإنّا نشعر بحبّ كل شيء يرتبط بما نحبّه .

ومن هذه الزاوية تدخل الدعاية في حقل الثقافة البشرية ،فتضيف عليها طابعها الواضح الكبير .

٣/ حب الفكرة

قد تحبّ فكرة لأنّها لبست حلّة قشيبة من الأسلوب الجذّاب ..

ولكنّ الظاهرة الأعجب منها ـ والأقلّ في ذات الوقت ـ هي :

أنْ تحبّ فكرةً لأنها تنسجم مع نفسيّة الفرد أو نفسيّة الأمّة التي ينتمي إليها الفرد .

أ ـ أمّا عن الإنسجام بين نفسية الفرد واستهوائه لفكرة معيّنة ، فقد بيّن التحليل النفسي لبعض الفلاسفة أنّ هناك علاقة وثيقة بين « نفسيّة » الفيلسوف و « نوعيّة » فلسفته .

فمثلاً : في موضوع « وحدة الوجود » قالت طائفة من الفلاسفة : إنّ كل شيء في الكون هو شيء واحد . بينما قالت طائفة أخرى إنّ الأشياء هي متعددة .. وليست وحدة واحدة .

وعند التحليل النفسي : كان ذلك الفيلسوف الذي يعتدّ بذاته ويفرط في الإيمان به ، أنه كان يرى العالم كأنه مظهر من مظاهر ذاته الواحدة ، وبالتالي كان يتصوّر أنّ الأشياء جميعاً شيءٌ واحدٌ لا أكثر « وحدة الوجود » ، مثلا نيتشه الذي قال : كلّ شيء هو أنا ، بينما كان الفيلسوف الذي لا يغالي في الشعور بذاته يعتقد بوجود الأشياء منفصلة عن ذاته وبالتالي يؤمن بأنّ لكلّ شيء وجوداً خاصّاً به وينفي ـ بذلك ـ وحدة الوجود .

ب ـ وقد تكون نفسيّة الفيلسوف أو المفكّر أو الشاعر مرآة تعكس نفسيّة أمّة بكاملها ، ويكون إنتاجه الفكري صدىً لتلك النفسيّة المنتشرة بين أبناء الأمّة كلّها .

« من هنا ما يقوله العلماء الغربيون : إنّ الفيلسوفين « كانت » و « هيجل » يمثلان العقليّة الألمانية ، وإن « ديكارت » و « فولتير » يمثلان العقليّة الفرنسيّة ، وأن « لوك » و « بيرك » يمثّلان العقليّة البريطانية ، وإنّ « وليم جيمس » و « جون ديوي » يمثلان العقليّة الأميركية» .

« هذه الفروق الفلسفيّة بين الأمم الأربع ليست في الواقع إلاّ صدىً ، وإنْ كان صدى رفيع المستوى ـ لخصائص عقليّة وخلقيّة ـ تتغلغل بنسب متفاوتة في جميع الطبقات من هذه الأمم وتميّز احديها عن الأخرى »[1] .

---

(١) يستخدم صاحب النص كلمة العقل مكان الفكر حسب مفاهيمنا الدارجة في هذا الكتاب .

« فالمنطق الآلي والكمالي النظري الذي يتجلّى في فلسفة « ديكارت » يتجاوب في تراجيديات « كورني » و « راسين » وفي الحماسة الملتهبة عند مفكري الثورة الفرنسية ، كما يظهر ـ مرة أخرى ـ في مشروعات السلم غير العمليّة ـ وإن كانت كاملة من الوجهة المنطقية ـ التي امتاز بها الساسة الفرنسيون في الفترة (ما) بين الحربين العالميتين .

أمّا فلسفة « لوك » الإنجليزي فهي مظهر الشخصية الإنجليزية ، كما تظهر « ذات الشخصية » في وثيقة « ماجناكارتا » ، وكما تظهر في التشريعات الإنجليزية المتميّزة بصياغتها العمليّة الإجرائيّة » .

« ونرى فلسفة « بيرك » تسعى الى التوفيق بين ما تدعو إليه الأخلاق وبين ما تقتضيه الظروف وتوجيه الملائمة السياسية ، وهذا الطابع طابع العبقرية السياسية الإنجليزية يتكرّر بروزه في سياسة توازن القوى التي تمسّكوا بها طويلاً وما زالوا عاكفين عليها »[1] .

٤/ حب الآباء

إنّ حبّ الآباء يبعث الأبناء نحو تقليدهم ، وهو واحد من العوامل الأخرى التي تدفعهم نحوه ، مثل احترامهم والخشية منهم على المصالح ، وترسّب أفكارهم منذ الطفولة .

٥/ حب البيئة

والبيئة الإجتماعية والثقافية ، تعتمد في تأثيرها على الحبّ أيضاً ، ذلك أنّ الإنسان يحبّ نظيره الإنسان بصورة فطريّة ، ويحب لذلك أفكار أقرب الناس إليه فالأقرب « الأصدقاء الأساتذة » .

وليس الحبّ هنا إلاّ أضعف العوامل الباعثة على تقليد البيئة ، فالأقوى تأثيراً : إنما هو . . الخوف على المصالح ، ثم الإنفتاح على أفكارها الجاهزة واحترامها احتراماً يبعث على التقليد .

٦/ حب السلف

إن حب السابقين من العلماء والعظماء يبعث على اتباعهم والإتكال عليهم

(١) ديمقراطية القومية العربية الدكتور محمد عبدالله العربي / ص ٦٤ وبتفصيل اكثر راجع كتاب الاسس النفسية لتطوير الامم / ص ١٧٢ .

دون بحث جديد في أفكارهم لتقييمها ونَبْذ الأفكار الخاطئة منها .

باء/ فقد الثقة بالذات

فقد الثقة جذر آخر من جذور الخطأ ، ذلك أنّ الوعي شرط أساس في المعرفة ، ونعني بالوعي « وجدان الذات » ، والذي يتسبب من المعرفة بكامل القوى النفسية ثم الثقة بها ، وأخيراً ضبطها في اتّجاه محدّد ، ذلك أنّ الإنسان الفاقد للثقة بنفسه لا يتمكّن من التفكير ، أو ربما لا يفكّر ، وإن كان قادراً عليه ، ثم لا يجزم بنتيجة تفكيره ، إذ سيقول أبداً : أنا أقلّ قدراً من معرفة الحقيقة ، وهكذا يخطيء فكره وإنْ كان صواباً ، لأنّه لا يعترف بإمكانيّة توصّل هذا الفكر الى الحقيقة .

وبتعبير آخر : إن الإنسان يسلك الى المعرفة إما طريق الحسّ أو التعقّل أو الإلهام . والذي يفقد الثقة بنفسه يفقد الثقة بالحسّ ، وبالتعقّل وبالإلهام وأخيراً لا يعترف بتلك المعرفة التي تأتيه من هذه الطرق ، ولذلك فهو لايصل الى الحقيقة ، وليس فقدُ الثقة بالذات « أو بوجدان الذات » يعني بالضرورة إنكار كلّ مصادر المعرفة ، فربما يكفر الإنسان بذاته عن طريق إنكاره لواحدة من قواه وطاقاته ، كالذي ينكر قدرة الإنسان على التعقّل ، وربما يكفر بنفسه في جهة معرفةٍ خاصة ، أو في مقابل شخصٍ واحد ، قد عرف خلاف ما يعرفه ، وهكذا يبدو « وعي الذات » والثقة بما به من مقدرة ، على تحصيل المعرفة ، شرطاً أساسياً للعلم ، وبفقدها تقع أخطاء فكرية كبيرة .

كما أنّ مَنْ يفقد القدرة على ضبط مصادر المعرفة ، وتوجيهها حسب إرادته ، يفقد تلك المعرفة الآتية منها أيضاً . من هنا كان وعي الذات الذي يستتبع الثقة بمقاييسها ، والقدرة على استخدام تلك المقاييس ، أول وأهم مقدّمات المعرفة .

هذا هو الجذر ، أما النتائج :

١ـ الإنغلاق

الإنغلاق دون مصادر المعرفة الذي يشكّل أضخم كارثة فكريّة تصيب البشريّة ، وهي من نتائج فقد البشرية الثقة بذاتها .

فالسوفسطائيون والشكاكون الذين قالوا إنّ المعرفة « أو قدرة البشر عليها » محال ، تخبّطوا في ظلمات الجهل ، فإذا بهم لا يبصرون شيئاً ولا يعقلون .

والمثاليّون الذين أنكروا الحس ، والماديون الذين أنكروا العقل وسابقياته ، وأولئك الذين أنكروا الإلهام كمصدر موثوق للمعرفة الجازمة .

كل أولئك حُجبوا عن الحقيقة ، بنسبة معيّنة ، ورفضوا الإعتراف بأنفسهم ، أو بقدرتهم على المعرفة بذات النسبة ، بينما كانوا في الحقيقة قادرين عليها .

٢ ـ الذوبان في شخصيّة

يقول بعض الفلاسفة : إنّ تحطيم الماضي نوع من إثبات الذات ، والحقيقة أنّه لا يتمكّن البشر من تحطيم ماضيه ، دون إثبات ذاته أولاً . . ليتمكّن من استخدام ذاته وما لديه من مقاييس في عمليّة التحطيم هذه .

فبسبب قوّة شخصيّة علميّة أو سياسيّة أو دينيّة ، قد يفقد الأفراد ـ بل حتى الأمم ـ إيمانهم بأنفسهم ، إذ أنّهم كانوا يتردّدون في الإعتراف بالحقيقة،التي يصلون اليها إذا كانت مخالفة لما وصل اليها تلك الشخصية .

إن السلبيّة والإنهزاميّة أمام تيّار أو أمّة متقدمة ، كالإنهزاميّة الفكرية التي يعاني منها المسلمون أمام تيار الشيوعية أو أمام الأمم المتقدّمة في الغرب . . إنّها نتيجة واحدة من نتائج الإنبهار بالآخرين ، وفقد الثقة بالنفس ، وهذه الحالة أشبه ما تكون بحالة الطفل حينما يطرح أفكاره البدائية لإستقبال أفكار والديه أو مَنْ هم أكبر منه ، وهي ذات الحالة ، التي تصيب التلامذة والبسطاء والسذّج والأمم الجاهلية التي لا تفكّر ذاتياً في الحقائق ، لعدم ثقتها بأنفسها ، وحتى لو فكرت فيها فإنها تطرح أفكارها لحساب أفكار مَنْ تُعظّمها .

وكما سبق ، فإن للتقليد أسباباً أخرى ، إلا أن هذا سبب رئيسي للتقليد بأيّة صورة كانت من صوره .

جيم/ التسرع في الحكم

لظاهرة التسرّع، والعجلة في إصدار الحكم جذر نفسي واحد، ونتائج شتّى. فالجذر: هو «غريزة حبّ الراحة» إذ:

الحقيقة التي لا يرتاب فيها أحد هي: أنّ التفكير عمليّة صعبة ومجهدة، وتركيزه أصعب وأشدّ جهداً، وقلّة المفكرين في العالم ناشئة عن الصعوبة البالغة التي يقتضيها التفكير المركز، كما أن التعلم بما يقتضي من صرف الوقت والمال والجهد ليس بالعمل السهل.

وحبّ الراحة هو الآخر حقيقة لا يرتاب فيها أحد، فمَنْ منّا لا يحسّ بها؟

ومن هنا يتهرّب البشر من التفكير المركّز، ويهوى التسرّع في الحكم لينقذ ذاته من هذه الصعوبة، وهذا هو جذر التسرّع، أما النتائج فهي:

الأحكام الكاسحة: الإنطلاق من قضايا خاصة، بظروفها وأسبابها الى الحكم بالقضايا الكليّة.

فمثلاً يرى الإنسان جانباً من المدينة خراباً فيحكم عليها بالخراب، ويرى رجلاً يموت بحقن البنسلين فيحكم بأنّ كلّ مَن احتقن به يموت.

حقّاً، يستطيع الحدس الواضح أن يقفز من القضية الخاصة الى ما هي أعمّ منها، وذلك حينما يعلم بوضوح أن ليس هناك اختلاف في الظروف المحيطة بهذه القضيّة عن أشباهها، فمثلاً: حين يجرّب مادةً على حيوان فيرى أنّها تميته بعد احتقانه بها مباشرةً

ويكرر التجربة في ظروف مختلفة عدّة مرات ، حتى يتيقن أنّ « سبب » الموت ليس إلاّ هذه المادّة .

إلاّ أنّ الفرق واضح بين الحدس العلمي ، وبين التسرّع الجاهلي ، ذلك أن التسرّع إنّما هو إدخال غرض نفسي في الحكم ، والحدس العلمي لا يكون إلاّ بعد اليقين بعدم وجود أي سبب لهذه الظاهرة ، سوى هذا السبب . ولأنه يعلم بوضوح : «أن السبب متى وجد ، جاءت الظاهرة » . يعلم أنّه كلّما وجد ما وجد هنا كانت ذات النتيجة موجودة .

خلاصة القول : إن التسرّع لا يبلغ درجة العلم بوحدة الظروف ، في كل من المجرّب وغيره ، والحدس يبلغها .

دال/ إتباع الافكار الجاهزة

ظاهرة الإيمان بالأفكار الجاهزة المستنبطة سابقاً ، دون تمحيص ، وحتى لمعرفة ما إذا كانت صحيحة أم باطلة وذلك خشية أن تصيب الفرد مشقّة كبيرة في عمليّة التفكير من جديد حول تلك المواضيع[1]. ولا فرق في هذه النتيجة بين : الخوف من التشكيك في أفكار تبناها الإنسان نفسه ، وبين ما تبنّاه العلماء قديماً أو حديثاً ، أو أملتها الظروف الإجتماعية،أو البيئة الثقافية ، ذلك لاشتراكها جميعاً في جذر الخطأ النفسي الذي يتلخّص في حبّ الراحة ، والذي يدعو الى تبنّي أفكار جاهزة .

وربما يكون حبّ الذات ، واحترام العلماء يكون وراء هذه الظاهرة « الإيمان بالأفكار الجاهزة » .

إن التقليد قد يوجد دون وجود علاقة عاطفية بين المقلِّد والمقلَّد ، بل بمجرد أن المقلِّد ضعيف النفسيّة وغير مستعدّ للبحث بنفسه حول القضيّة فيتّبع غيره فيها .

العوامل الماديّة للخطأ

لكي نحصي عوامل الخطأ لا بّد أنْ نذكر بأثر « العوامل المادية » في الفكر البشري لأنها قد تكون من أشدها وأكثرها ضغطاً عليه باتّجاه الخطأ .

بيد أنّ العامل المادي للخطأ لا يكون سوى « دافعٍ » و « داعٍ » اليه اذ لا تنتج عند

(١) لقد توصل ديكارت الفيلسوف الفرنسي الى ذات الملاحظة حينما قال عن نفسه أنا انسان من تلقاء نفسي ودون وعي مني الى تيار آرائي القديمة . واحاذر ان اصحو من غفوتي هذه خشية ان اجد اليقظة الشاقة التي تعقب هذه الراحة الهادئة (رينه ديكارت) / ص ٤١ .

صاحبه إلّا ما يمكن أنْ نسمّيه بـ « حب الفكرة » . وحب الفكرة إنّما يعني « الميل » النفسي اليها مما يعطي صاحبها دفعاً باتجاهها لأنها تتلاءم مع نفسيته . فهناك ـ مثلاً ـ نفوسٌ جبلت على الثورة والتحدي ، ولذلك تندفع هذه النفوس الى الرفض والتمرّد بأدنى مبّرر لأنها « تميل » اليها و « تنسجم » معها بينما نجد نفوساً أخرى « تميل » الى الخنوع والاستسلام ، وتتمتع ببرودة الأعصاب وثقل الدم فهؤلاء ـ بعكس أولئك تماما ـ يرفضون كل ثورة دون أن يسألوا أنفسهم لماذا .

ومن الناس من « تميل » نفسه الى التشاؤم فلا يرون إلّا الجوانب السلبية من الحياة . ولذلك تراهم ينسجمون مع الأفكار الأكثر تشاؤماً ، بينما الآخرون « يميلون » الى التفاؤل وينسجمون مع الأفكار التي تؤيّده . وهكذا نرى بعض الناس « يميلون » الى الانطواء لإنسجام أنفسهم معه بينما يحبّ غيرهم الانفتاح وهكذا .

يقول إرنست همنغواي في كتابه « وداعاً أيّها السلاح » : « إلّا أنّ طبعي الخاص يضطرني الى الشكّ في انه لن تكون هنالك أقليّة ستشهد الحياة وهي تسير الى نهايتها التي لا يمكن تجنّبها . فهل هو لا منتمٍ لأنه خائب وسوداويّ » ؟[1] .

« فهناك عدد من الرجال والنساء يخلقون ثواراً بطبعهم وسليقتهم »[2] وهنا يطرح سؤال : لماذا يحب الإنسان فكرة ويرفض أخرى ؟؟

الجواب : لأنّ تركيبة الإنسان النفسية « السيكولوجية » أو العصبية « الفسيولوجية » أو الحياتية « البيولوجية » هي التي تنسجم مع هذه الفكرة أو تلك ، والعامل المادي الذي نتحدث عنه إنما هو جزء من تركيبة نفسية الانسان .

وبتعبير أخر :

إن منهج الإنسان آتٍ من نوعية تفكيره ، والتفكير ـ بدوره ـ خاضع للارادة ، والأرادة ليست سوى مقاومة النفس لجاذبية الطبيعة « إذا كانت الإرادة ايجابية » أو هي استسلام الذات لضغوط الطبيعة « إذا كانت الإرادة سلبية » .

ولكن متى تقاوم الارادة ومتى تستسلم ؟؟ عندما تكون الإرادة أقوى من جاذبية الطبيعة تقاوم ، ومتى كانت أضعف تنهار . من هنا نستطيع أنْ نحدّد اتّجاه السلوك

(١) ولسن اللامنتمي /ص ١٥ .

(٢) يريان كروزير الثائرون / ص ٢٠ .

البشري بمقارنة الإرادة بالطبيعة أيُّها أقوى . ولا يكفي أنْ نعرف مدى قوة الإرادة بل لا بد أنْ نعرف ـ أيضاً ـ مدى قوة الجاذبية في الطبيعة .

والعوامل المادية التي سوف نذكرها انشاء الله ، هي بعض مظاهر الضغط التي تتعرض لها النفس البشرية وتتحدى إرادتها في مقاومتها أو الاستسلام لها .

والهدف من ذكرها هو الاستعداد لها والتحصن ضدها إذ ليس سواءً عند الإنسان الذي راح يتعرّض لهجوم أنْ يعرف أو لا يعرف قواعد ومنطلقات الهجوم . وكذلك الذي يعرف ـ سلفاً ـ أسباب الا: راف المادية وطبيعة « الميول » التي قد تضغط عليه باتّجاه معيّن . خصوصاً والعوامل المادية من اشد العوامل النفسية تأثيراً وفي نفس الوقت من أقلها ظهوراً . أقول : هذا الانسان يختلف عمَّنْ لا يعرف ذلك في أنّه قادر على التحصّن ضدّ الوقوع في الخطأ .

ماهي العوامل المادية ؟

كلمة العوامل المادية تعني « البيئة الطبيعية » سواء كان محور تأثيرها داخلياً كالمخدرات وأنواع المنبهات والأطعمة ، أو كان خارجياً كالحر والبرد والرطوبة واليبوسة . وسواء كان عرضياً وطارئاً كالضعف المرضي أو أصيلاً كمستوى الذكاء .

ونستطيع إلحاق الفوارق العرقية بـ « العوامل المادية » بالرغم من اختلاف الناس حولها من منكر لها أو متطرّف فيها .

كيف تؤثر العوامل المادية ؟

كيف يؤثر العامل المادي في توجيه البشر ودفعه الى سبيل الخطأ ؟ معروف أنّ المنبهات الخارجية تتوجّه ـ في البدء ـ نحو الأعصاب وعن طريقها تخلف آثارها على الفكر . ولا بد أنّ نوع استجابة الأعصاب لهذه المنبهات يؤثر في نوع تلقي الدماغ لها . فمثلاً طبيعة تركيب شبكة العين تؤثر في طريقة استقبالها للأضواء،التي هي المنبهات الخارجية بحيث أنّها لا تستقبل الأشعّة ما فوق الحمراء ولا الظلال الباهتة ، وكذلك طبيعة تركيبة صماخ الأذن تؤثر في طريقة استقبالها للأمواج الصوتية بحيث أنها لا تستقبل الموجة التي تقل درجة التذبذب فيها من عشرين في الثانية الواحدة ، ومثل ذلك سائر الأعصاب والأجهزة المستقبلة للمنبهات الخارجية . فهناك ـ اذاً ـ تأثير كبير على الفكر من طبيعة

تركيبة الأعصاب تلك التي هي موضوع علم الفسلجة .

وبما ان العوامل المادية تؤثر في تركيبة الأعصاب وفي طريقة أدائها لوظيفتها فهي تؤثر في الفكر بطريقة غير مباشرة ذلك :

أن اقتصاديات الجسم البشري لتنتظم حول جهازين يكمّل أحدهما الآخر :

١ ـ الجهاز الهضمي الدوري .

٢ ـ الجهاز العصبي العضلي .

وتتحول الطاقات « الطعام » بواسطة الجهاز الهضمي الى نوع من الوقود يسهل إيصاله الى أنسجة الجهاز العصبي العضلي عن طريق الجهاز الدوري ، ثم يطلق مصدر التنبيه الخارجي « ذبذبات الصوت ـ مثلاً ـ » الوقود المختزن في الجهاز العصبي فتحدث الاستجابة ، لذلك فرؤية الماء لا تدفع رجلاً الى الشرب إلّا حين يكون عطشاناً ، كما لا بّد من وجود حالة فسيولوجية خاصة قبل أنْ يدفع مجّرد وجود رفيقِ الحيوان به الى محاولة التقرب الجنسي(١) .

فالمنبّه الخارجي إنّما يطلق الطاقات المختزنة ، أمّا ذات الطاقات فهي آتية من الجهاز الهضمي التي بالرغم من تعرّضها لعملية التصفية والتكرير عدة مرات فإنّها لم تزل تحمل بعض آثار الطعام التي راحت تؤثر في الأعصاب الخازنة للطاقات وبالتالي في طريقة عملها والتي تؤثر هي بدورها في الفكر .

ولهذا السبب يتأثر الجهاز العصبي بضعف الجهاز الهضمي ، وبالتالي بسائر مناحي الجسم إذْ أنَّ الوظيفة السيكولوجية تنطوي دائماً على عددٍ من أجزاء الجسم حتى عملية بسيطة نسبياً ـ كرؤية ضوء أخضر ـ تتوقف في حدوثها على سلسلة كبيرة من الحوادث التي تقع في الشبكة والدماغ وعضلات العين(٢) .

ولعل التجارب التي أجريت على التعب تحمل الدلالة الكافية على ذلك ، إذْ أنَّ التعب يمتص الطاقات المختزنة في الأعصاب حتى لا تكاد تبقي فيها طاقة تصرف في التنبه ، ويقاس ذلك بطريقة القياس النفسي المشتملة على مثير واحد ذي تقديرات مختلفة في فترات العمل ويتدرّج في القياس الذي يتكون ـ بقدر الإمكان ـ من عشر خطوات

(١) ميادين علم النفس / ج ١ ـ ص ٤٣٨ .

(٢) المصدر / ج١ ـ ص ٤٣٦ .

تصل من السرور والارتياح في العمل الى عدم السرور أو عدم الارتياح « بسبب ذلك المثير » . وقد وُجد أن المنحنى العادي الذي يمثل هذه الأحاسيس في حالة العمل العقلي المتكرر يهبط بسرعة وبعجلة تناقصية « كلما كثر العمل قلت الاستجابة » من بداية العمل الى نهايته[1] .

ولذات السبب يؤثر نوع الطعام في مدى استجابة الأعصاب للمنبهات ، فلقد قرر بعض الباحثين أنّه « ليس هناك من شكّ في أنّ الشعور يتأثر بكمية الطعام وصفته[2] وأنه لكي تضيع وتتلاشى ارقى التجليات الروحية يكفي حرمان بلازما الدم من بعض المواد [3] .

اثر الغدة الدرقية على الفكر

كما يؤثر بعض أعضاء الجسم في الفكر لذات السبب ، إذ أنه لا يقوم بأداء دوره بالكامل مما يؤثر في طريقة أداء الأعصاب لمسؤوليتها ، وبالتالي يخلف أثره في التفكّر . فمثلا ، المفروض في هرمون الغدة الدرقية أنْ يتوافر في الدم بكمية معينة ، فإذا انخفضت نسبته عن ذلك قليلاً تغيّرت الصورة العامة للشخص في كثير من جوانبها ، ففيما يتعلق بالنشاط الذهني وبالشخصية نجده « اي الشخص » يصبح كثير النسيان وتقل قدرته على تركيز الانتباه كما أنّه يفقد القدرة على المبادرة والإقدام وحسم المشكلات والى ذلك من تغيّرات تعود بالتالي على السلوك بآثارها السيئة[4] .

وكما ان نقص افرازات الغدة الدرقية يسبب هذه الاضطرابات الخطيرة ، كذلك تؤدي زيادة الإفرازات الى اضطرابات لا تقل خطورة عن ذلك ، ففيما يتعلق بالنشاط الذهني وبالشخصية يصل الأمر في بعض الحالات الحادة الى درجة تفكّك تيار التفكير والخلط والهذيان ، وحدوث بعض الهلوسات ، وفي الحالات الاخف من ذلك قليلاً يعاني الشخص من الأرق والقلق والتوتّر النفسيّ الشديد[5] .

من هنا نستطيع الجزم بوجود ضغط سيكولوجي على الفرد من جانب غدته الدرقية،

---

(١) ميادين علم النفس / ج ٢ - ص ٦٩١ .

(٢) الكسيس كارل / الانسان ذلك المجهول / ص ٢٣٢ .

(٣) راه ورسم زندكي / ص ٢٦ .

(٤) مقدمة لعلم النفس الاجتماعي / ص ٢٩ .

(٥) المصدر .

وسائر الغدد الصماء ، بل إنّ آثار هذا الضغط الخطير دفع بعض العلماء الى اعتبار الغدد الصماء « مؤثرات حتمية » على فكر الانسان وسلوكه فسمّاها تبعاً لذلك بـ « غدد المصير » .

واضطرابات الغدة الدرقية قد تنشأ من الوراثة . وقد تنشأ من الحالات الانفعالية الحادة »[1] .

أثر المناخ الطبيعي على الفكر

واذا كان الطعام مؤثراً على الجهاز العصبي ، لأنه مصدر وقودٍ له فان كل ما يمتصّ هذا الوقود يؤثر ـ بطريقة غير مباشرة ـ على الأعصاب لأنه يمتصّ وقودها الضروري . ولعلّ تأثير المناخ الطبيعي ، في تكوين الشخصية نابعٌ من هذا السبب . فلذلك « كلما كان الماء أقلّ يصبح الدم أشدّ غلظةً ، وبطبيعة تأثير الدم على الأعصاب تصبح هي أسرع تحركاً »[2] لذلك يكون سكان المنطقة الجرداء متميزين ـ عادة ـ بالتسرع وشدة الإثارة .

ومن جانب آخر ، طبيعة التدهين في الجلد وترشح « وافرازات » الغدد التي تحدث في ظروف خاصة تشكل سمة بارزة للإنسان الأسود ، « بسبب مناخه الحار اليابس » بينما زيادة « عملية » التبخّر التي تهدف تكييف الجسم مع المحيط الخارجي « بما فيه من حرارة ويبوسة » وحفظ التوازن بين حرارة الجسم والخارج ، هذه الزيادة تخص الانسان الأسود فقط »[3] لذلك قد يحدث المناخ مرضاً خاصاً على ساكنيهِ ، بسبب تأثيره على أعصابهم « فلقد تبينّ لعالم نفساني اسكندنافي يدعى « بوك » أنّ بعض المناطق الشمالية من السويد تضمّ نسبةً عالية جداً من شخصيات فصامية « شيزوفرينية »[4] .

أثر الوراثة على الفكر

وإذا كان هناك تأثير مباشر على الجهازالعصبي من الجهاز الهضمي بسبب أنّ الأول مصدرُ وقودٍ للثاني فإنّ أهمّ آثار الجهاز الهضمي يمكن أنْ يبرز من خلال طبيعة استجابة الأعصاب للمنبّهات الخارجيّة ـ بسرعةٍ أو ببطء ، بعمق أو بسطحيّة ـ ممّا يخلّف أكبر الأثر في الفكر والسلوك ، بيد أنّ تركيبة الجهاز الهضمي قد تكون ناشئةً من الوراثة ، وكذلك

(١) برتراند رسل واخرون / المادية الجدلية والمثالية البرجوازية / ص ١١ .

(٢) د. كاظم وديعي / جغرافياي انساني عمومي / فارسي / ص ٥٣ .

(٣) المصدر .

(٤) د. الدباغ / غسل الدماغ / ص ٩٢ .

تركيبة الجهاز العصبي مما تؤثر ـ بالطبع ـ في التفكير . وقد يكون هذا السبب وراء وراثة الأخلاق والتي ازدادت الثقة بها بعد أن اكتشف العلم الجينة المورثة إذ « ازدادت معرفتنا بعوامل الوراثة بفضل العلم بـ « الجينة المورثة » (gene) . فالفرد يبدأ حياته في الحمل باتحاد خليةٍ من كل الابوين ـ بويضة الانثى ـ والحيوان المنوي للرجل ـ وتحتوي كل خلية على مئات الآلاف من الجزيئات الدقيقة جداً والتي تسمّى بالمورثات ، وهي حاملة إحدى استعدادات الطبع »[1] .

لقد أكدّت التجارب التي أُجريت على أُسرٍ متحدّرةٍ من إخوةٍ مختلفين في الأب أو الأم مدى تعرّض الأبناء لآثار الوراثة من الأب أو الأم ، رغم وحدة المؤثرات الأخرى كما « أكد بعض الباحثين أهمية الوراثة عند تفسير الظواهر المعروفة عن الأطفال المتبنّين ، بالرغم من أنهم يعترفون بأنّ البيئة المنزلية المناسبة قد ترفع نسبة الذكاء بمقدار حوالي ٢٠ درجة وتخفضها البيئة غير المناسبة بمقدار حوالي ٢٠ درجة . وهذا التأثير الكبير الذي يصل ـ اذاً ـ الى ما يقرب من ٤٠ درجة لا يمكن إهماله »[2] .

إنّ تأثير الوراثة لا يكون من قناة واحدة ، بل من عدة قنوات ابتداءً من التأثير البيولوجي « بسبب انتقال بنية الأب أو الأم ، الى الوليد » ومروراً بالتأثير الفسيولوجي « وطبيعة تركيبة الأعصاب » وانتهاءً بالتأثير السيكولوجي « بسبب الجينة المورثة ».ولذلك قال بعض العلماء إنه « يحتمل أن يكون ٢٥٪ من حالات البلاهة نتيجة الاختلالات الحادثة على نمو المخ طوال الحياة الجنسية ، أو عند الولادة ، أو في المرحلة الأولى من حياة الطفل . إنّ اتزان الجهاز العصبي ، وسلامة التفكير يرتبطان الى حد بعيد بتركيب المواد الغذائية في مراحل تكوّن المخ والنتوءات العصبية »[3] .

« إننّا مصنوعون من مواد آبائنا وأمهاتنا الخلوية ، وتتوقف ـ في الماضي ـ على حالة عضوية لا تحلّل ، ونحمل ـ في داخل أنفسنا ـ قطعاً ضئيلة لا عداد لها من أجسام أسلافنا ، وما صفاتنا ونقائصنا إلا امتداداً لنقائصهم وصفاتهم »[4]. وليس هذا الكلام بعيداً عن التجربة إذ لا حظ « كوار » في إحصائياته الدقيقة التي أجراها على الأسر التي

---

(١) ميادين علم النفس / : ج ٢ ـ ص ٥٢٦ .

(٢) المصدر .

(٣) د. الكسيس كارل / راه ورسم زندكي / ص ١٥٨ (فارسي) .

(٤) د. كاريل / الانسان ذلك المجهول / ص ٢٠٣ .

كان آباؤها أو أمهاتها مصابين بضعف العقل ـ وجود « ٤٧٠ » ضعيفي العقل منهم ، و « ٦ » فقط سالمين »[١] .

« إنّ ولد السارق أو مصاص الدماء ، تكون قابليته على الإرادة الصحيحة أقل من ولد المجنون »[٢] .

الفوارق العرقية

واذا تأكدت خطورة الوارثة فلا بدّ أنْ يكون هناك دورٌ هام وخطير ـ أيضا ـ للفوارق العرقية في توجيه الإنسان .

بيد أنّ دور الإرادة البشرية ، ودور التربية والبيئة الطبيعية الذي يختلف غالباً مع دور الوراثة ودور السلالة ، لا يجعلنا قادرين على إثبات خطورة الفوارق العرقية،إذ ما من عينة نأخذها للتجربة إلا ونجد فيها المؤثّرات الأخرى التي تزاحم تأثير السلالة ، ولذلك تبقى الحجة الوحيدة التي يمكننا الاعتماد عليها في « تأثير السلالة والفوارق العرقية » تبقى أدلة تأثير الوراثة والاستنتاج الفكري منها .

وقد ذكرت النصوص الدينية بدور العوامل المادية في انحراف الفكر الإنساني ، وفيما يلي نختار طائفة قليلة منها بالرغم من أنها تبلغ المئات .

١ ـ بيّن الإسلام تأثير الطعام فجاء في الحديث عن الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ وهو يعدّد مضار شرب الدم : « ويسيء الخلق ، ويورث القسوة للقلب ، وقلة الرأفة والرحمة ، ولا يؤمن أن يقتل ولده ووالده »[٣] .

وجاء في الحديث عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ وهو يوصي المتعلمين تجنّب الأكل على الشبع : « إيّاك أن تأكل ما لا تشتهيه فإنه يورث الحماقة والبله،ولا تأكل إلاّ عند الجوع »[٥] .

٢ ـ وأكد أهميّة الوراثة وتأثيرها على نفسيّة الانسان ، فجاء في الحديث عن الإمام علي ـ عليه السلام ـ : « إذا كرم أصل الرجل كرم مغيبه ومحضره »[٣]. وقال : « حسنُ

---

(١) الكسيس كاريل / راه ورسم زندكي / ص ٧٤ (فارسي) .

(٢) المصدر / ص ١٥٦ .

(٣) بحار الأنوار / ج ١٤ ـ ص ٧٧٢ (الطبعة الأولى) .

(٤) بحار الأنوار / ج ١ ـ ص ٢٢٦ .

(٥) غرر الحكم / ص ١٦٧ .

الأخلاق برهان كرم الأعراق »[1]. وقال وهو يوصي الإنسان باختيار الزوجة الصالحة لكي يحصل منها على الأولاد الصالحين: « انظر في أيّ شيء تضع ولدك فإن العرق دسّاس »[2].

وقال النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ: « إياكم وتزوّج الحمقاء فإنّ صحبتها بلاء وولدها ضياع »[3] وتعبير النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ بـ « الضياع » يبيّن الحقيقة التي بيّنتها التجارب من أنّ أغلب اولاد الحمقاوات يصبحون حمقاء وضعفاء العقول.

٣ ـ وبينّ تأثير السلالة في سلوك الشخص حين قال الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ: «ياهشام النبط ليس من العرب ولا من العجم، فلا تتّخذ منهم وليّاً ولا نصيراً فإنّ لهم أصولاً تدعو الى غير الوفاء»[4].

٤ ـ كما بيّن أثر الخلقة المشوهة في خلق الانسان وسلوكه حيث قال النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ: « عليكم بالوجوه الملاح والحدق السود فإن الله يستحي ان يعذّب الوجه المليح بالنار »[5].

٥ ـ وبيّن مدى تأثير الفكر في بعض الحالات الجسمية، حيث جاء في الحديث: « لا رأي لحاقن ولا حازق » وهما من الذين تلحّ عليهم حاجةٌ من حوائج الطبيعة »[6].

وضع الجسم اثناء البحث

من العوامل المادية ذات التأثير السيّىء على التفكير، وبالتالي على عدم اختيار الموقف السليم، هو عدم راحة الوضع الجسدي للباحث.

فوجود أيّة حاجةٍ بيولوجية للانسان، تسبب في اختلال أجهزته العصبية، وهذه بدورها تؤثر في طريقة تفكيره. الملابس الضيقة، ولا سيما الحذاء الضيق، الآلام الجسدية الخفيفة، عسر الهضم، الجوع والعطش، البرد والحر، تلوّث الهواء، الضوضاء، انتظار أمر هام، الإجابة على التليفون الذي يرنّ بغير موعدٍ، الأضواء

---

(١) المصدر.

(٢) العرق ـ كما يبدو ـ يعطي ذات المعنى الذي يقصده العلم بـ (الجينة) المصدر / المستطرف ج ١ ص ٢١٨.

(٣) الجعفريات / ص٩٢.

(٤) بحار الأنوار / ج٥ ص ٢٧٧ (الطبعة الثانية).

(٥) المصدر السابق / ص ٢٨١.

(٦) بحار الأنوار / ج ٢ ـ ص ٦٠.

المتحرّكة والأضواء الخافتة ، تحرك ظلال اليد على ورقة الكتابة أو على ورقة المطالعة ، الأرق والكرى « حاجة النوم » و. . و. . .

كل هذه قد تسبب في أخطاء فكرية : لأنها تعكس آثاراً سلبية على الأعصاب ومن ثمَّ على التفكير . وعلى الباحث أنْ ينتبه لحالته الجسدية ألّا تكونَ مزعجةً خصوصاً حين يعالج موضوعاً صعباً .

والتفكير يستخدم المخّ ،والمخّ بدوره يستخدم أنقى وأفضل زخّات الدم ، ولذلك يحتاج الإنسان الى القوة الجسدية الكافية لعملية التفكير . وحالات الضعف الناشيء من أي شيء . هي من أسوأ حالات التفكير . كذلك حالة الشبع والامتلاء حيث لم يستطع الجسد استيعاب الغذاء بشكل تام .

ولذلك يحبذ ترك العمل الفكري حين تناول الغذاء أو بعده مباشرةً ، كما يحبّذ من جانب آخر التزوّد ببعض الأكلات الخفيفة اثناء التفكير وعملية البحث .

وبقدر ما يحتاج المخّ الى القوة يحتاج الى الأوكسجين إذ « يتطلب العمل الذهني توفير كمية أكبر من الدم للمخ مما يزيد توتّر الأوعية الى حدّ بعيد ، وهذا طبيعي تماماً . ولا يسّبب عادةً أية مضاعفات . .

« ويتضمن وضع الجلوس المتخذ عادة في العمل الذهني خاصة ، والجسم مُنْحَنٍ نصف انحناءة يولّد ضغطاً معيّناً على الصدر ، وبالتالي تكون تهوية الرئتين غير كافية ، وهذا الوضع يعوق تموين الجسم بالأوكسجين .

« ولهذا السبب يجب مراعاة تغيير هذا الوضع من وقت لآخر ، ويكون من المفيد القيام « كل ٩٠ دقيقة او كل ساعتين » والتمشية في الغرفة أو الاستلقاء على الكرسي ، ومدّ القدمين ، والزفير ببطء ثم أخذ نَفَسٍ عميق[١] .

والعين ، هي بعد الرئة ، العضو الحساس الذي ينعكس وضعه على المخّ بشكل مباشر ، والعين هي أول عضوٍ يحسّ بالتعب ، ولذلك يجب التلطّف في الاستفادة من العين ، وذلك باعطائها قدراً من الراحة ، كلما شعرت بإرهاق . وقد يكون نافعاً التعوّد على « غرغرة » النوم في سبات خفيفة،لإعطاء العين ومن ورائها أعصاب المخ قدراً من الراحة ، الذي راح يؤثر في فعالية العين والمخ .

---

(١) العمل والمخ / ص ١٣٥ .

وبالطبع وضع الضوء على يسار الكاتب ، وعدم تسليط الضوء على أوراق الدفتر ، أو الكتاب لكي لا تنعكس الأمواج الضوئية على العين ، أقول بالطبع هذه من ضرورات القراءة والكتابة .

« وأبسط قانون فسيولوجي مناسب ، هو أن يستعمل « في حجرات القراءة » مناضد للقراءة مثل القوائم التي يستخدمها الموسيقيون بوضع الكتاب في وضعٍ سليم ، بالنسبة للمحور البصري للعين »[1] .

هذه بعض العوامل المادية التي أكد المنطق الحديث على الاهتمام بها أثناء البحث والتي لم تَفُتْ علماء المسلمين الإشارة إليها أيضاً :

يقول الشهيد الثاني : « ينبغي ألا يشتغل بالدرس ، وبه ما يزعجه ، ويشوش فكره ، من مرض ، أو جوع ، أو عطش ، أو مدافعة حدث ، أو شدّة فرح ، أو غمّ أو غضب ، أو نعاس ، أو قلق ، أو برد ، أو حرّ ، « مؤلين » حذراً من أنْ يقصرّ عن استيفاء المطلوب من البحث أو يفتي بغير الصواب » .

ثم يضيف قائلاً :

« ألّا يكون في مجلسه ما يؤذي الحاضر ، من دخان ، أو غبار ، أو صوت مزعج ، أو شمس موجبة للحر الشديد ، أو نحو ذلك ، مما يمنع من تأدية المطلوب ، بل « لا بد أنْ » يكون « المكان » واسعاً مصوناً عن كل ما يشغل الفكر ويشوش النفس ليحصل فيه الغرض المطلوب »[2] .

(١) المصدر / ص ٢٤٧ .
(٢) منية المريد في اداب المفيد والمستفيد / ص ٧٩ .

العوامل المنهجية للخطأ

١ ـ لكي لا نحور المناهج

لا بدّ أنْ نضع المناهج السليمة ثم نبحث من خلالها على الحقائق ، ولكنّ البعض يضع نصب عينه الحقائق ، أو النظريات ثم يضع المناهج المناسبة لها . كلا . . إنّ على الباحث أنْ يجعل نفسه تلميذاً في مدرسة المعرفة ، فإذا نطقت الحقائق سكت ، واستمع اليها . من هنا حذّر بعض العلماء من تحوير المنهج حسب النظرية التي اختارها الإنسان سلفاً . يقول « كلود برنارد » : « يجب عليه ألاّ يحرص على أفكاره السابقة إلاّ على اعتبار أنها وسيلةٌ يتطلب بها جواباً من الطبيعة ، ويجب عليه أنْ يُخضع فكرته للطبيعة وأنْ يكون على استعداد لتركها أو تعديلها أو تغييرها تبعاً لما ترشده إليه ملاحظة الظاهرة في آثارها »[١] .

وإنما يبلغ الباحث هذا المستوى الرفيع من المنهجية بالإخلاص لله في تعلُّم العلم ومعرفة مدى ثواب العالم المخلص . . حيث جاء في الحديث المأثور عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ :

« أفضل العبادة الفقه »[٢] .

« فضلُ العلم أحبُّ الى الله من فضل العبادة »[٣] .

---

(١) كلود برنارد / مقدمة لدراسة الطب التجريبي (عن المنطق الاسلامي للمؤلف / ص ٣٠٣)

(٢) بحار الأنوار ج١ ص ١٦٧

(٣) المصدر .

« من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً الى الجنة »[1] .

وقال الإمام عليّ ـ عليه السلام ـ :

« تعلّموا العلم فإنّ تعلُّمه حسنةٌ ، ومدارستَه تسبيحٌ والبحثَ عنه جهادٌ وتعليمَه ـ لمن لا يعلمه ـ صدقةٌ »[2].

وحذّر الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ من الصفات التي تحول دون إخلاص العالم لعلمه والتي تؤثر سلبياً على نفسية العالم . فقال ـ عليه السلام ـ :

« الخشية ميراث العلم ، والعلم شعاع المعرفة ، وقلب الإيمان ، ومن حرم الخشية لا يكون عالماً ، وإنْ شقّ الشعر في متشابهات العلم ، قال الله عزوجل : ﴿ إنما يخشى الله من عبادِهِ العلماءُ ﴾[3] .

وحدّ العلماء ثمانية أشياء : الطمع والبخل والرياء والعصبية وحب المدح والخوض فيما لم يصلوا الى حقيقته ، والتكلف في تزيين الكلام بزوائد الألفاظ ، وقلة الحياء من الله ، والافتخار وترك العمل بما علموا»[4] .

٢ ـ تحديد المشكلة

لنعرف أولاً أيّ موضوعٍ مجهول نبحث عنه وأيّة مشكلةٍ علمية نسعى لحلها ، هذا أمر أساسي في البحث العلمي ، ويقول عنه بعضهم :

« لا تجلس أبداً الى العمل دون خطة محدودة و « دون » تحديد كمية معينة من العمل « العلمي » لانجازها »[5] .

ولعّل هذه الحكمة المنهجية هي التي يسمّيها الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ « حسن المسألة » فيقول عنه :

« التودد الى الناس نصف العقل ، وحسن المسألة نصف العلم ، والتقدير في النفقة

---

(١) المصدر / ص ١٦٦ .
(٢) المصدر / ص ١٦٦ .
(٣) فاطر / ٢٨ .
(٤) بحار الأنوار / ج ٢ ـ ص ٥٢ .
(٥) العمل والمخ / ص ١٤٠ .

نصف العيش »[1] .

٣ ـ البحث عن الممكن

في الحديث الذي نقلناه آنفاً عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ قرأنا أنَّ واحداً من مشاكل العلماء : الخوض فيما لم يصلوا الى حقيقته . ويتحقّق ذلك في الصور التالية :

(ألف ـ) أنْ يكونَ مستوى الباحث الشخصي دون العلم الذي يتكلّفه . فطالب في الأبتدائية لا يجوز له البحث عن نظريات الفيزياء الذرية ، وإنْ فعل لم يبلغ العلم بل وربّما يشوش ذهنه ايضاً .

ولعلّ الآية التالية تشير الى ذلك .

﴿ ياأيُّها الذين آمنُوا لا تسألوا عن أشياء إنْ تبدَ لكم تسؤكم ، وإنْ تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور رحيم ، قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾[2] .

إن أولئك سألوا عن علمٍ لم يبلغوا مستوى احتماله ، فكفروا به .

وهكذا جاء في الأحاديث النهي عن تحميل الجهال الحكمة الأُلهِية وتقول :

« لا تمنحوا الجهّال الحكمة فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم »[3] .

وجاء في حديث آخر : « إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّمَ الناس على قدر عقولهم »[4] .

(باء ـ) قد يكون مستوى العلم البشري لما يبلغ موضوعةً مجهولة ، مثلا : علم البشر اليوم لم يتمكّن من تحديد وسيلة لمعرفة أعماق الفضاء الرحيب فلا يجوز التسّرع في إعطاء أحكام معينة .

ولعل الحديث التالي يشير الى ذلك :

« لا تبحث عما لم يكُن ففي الذي كان لك شغل »[5] .

(١) تحف العقول / ص ٤٥ .
(٢) المائدة / ١٠١ ـ ١٠٢ .
(٣) بحار الأنوار / ج ٧٨ ص ٣٠٣ .
(٤) بحار الأنوار / ج ١ ص ٨٥ .
(٥) بحار الأنوار / ج١ ص٢٢٣ .

(جيم ـ) وقد يكون البحث عن أشياء حجبت أساساً عن إحاطة البشر فيقع الإنسان في سلسلةٍ لا تنتهي من الأخطاء . بل قد يؤدّي به ذلك الى تعطيل الذهن كلياً .

مثلاً : التفكير في ذات العقل يسبّب الخطأ في معرفته ، وقد سبق الحديث عن ذلك .

كذلك التفكّر في ذات الله يسبب الحيرة والزندقة ، لأنّ عقل الإنسان لا يستطيع استيعاب كل مخلوقات الله فكيف بذات العزة ؟ وقد جاء في الحديث الشريف .

« من نظر في ذات الله كيف هو هلك »[1] .

وجاء في حديث آخر :

« إيّاكم وأصحاب الخصومات ، والكذابين ، فإنهم تركوا ما أُمِروا بعلمه حتى تكلّفوا علم السماء »[2] .

(دال ـ) وقد يكون القدرة البشرية كافية ، وحتى قدرة الفرد العلمية ولكنّ وسائل البحث غير مكتملة ، فيتسرّع في الحكم كما يستعجل الفرد في اقتطاف الثمرة قبل نضجها . ويقول ربنا سبحانه :

﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه ﴾[3] .

٤ ـ تجنب الريب

ترى البعض يفقد الثقة بذاته فيستمر في الشك ، ويبالغ في الحذر من الخطأ حتى يفرط فيه فلا يؤمن بشيء ابداً مثل السوفسطائيين وهذا بدوره خطأ منهجيّ جسيم .

إنما علينا إذا توفرّت الشروط الموضوعية لليقين أنْ ندع الافتراضات البعيدة التي لا يعتني بها العقل ولا يعترف بها العقلاء أنْ ندعها جانباً ونتمسّك باليقين .

بلى ، إنّ الشكّ قد يتّفق وهوى النفس البشرية مثل الشك في القيادة عندما تختلف معها ، أو عندما تأمرنا بعمل صعب ، أو الشك في الواجب الشرعي حينما يكون ذات صعوبة بالغة ، من هنا جاء في الحديث الشريف عن الإمام أمير المؤمنين ـ عليه

---

(١) أصول الكافي / ج١ ص١٢٦ .

(٢) بحار الأنوار / ج ٢ ـ ص ١٢٩ .

(٣) طه / ١١٤ .

السلام ـ :

« لا تجعلوا علمكم جهلاً ، ويقينكم شكاً ، إذا علمتم فاعملوا ، وإذا أيقنتم فأقدموا »(١) .

وروي عنه ـ عليه السلام ـ :

« لا ترتابوا فتشكوا ، ولا تشكوا فتكفروا »(٢) .

٥ ـ الاعتراف بكل المناهج

المناهج العقلية هي السبل التي يسلكها فكر الإنسان لبلوغ حقائق الخليقة ، ولا يجوز أن نكفر بمنهجٍ فنسد عن انفسنا باباً يؤدي الى علم حقيقةٍ ، كما لا يجوز لنا أن نجمد على مجموعة مناهج ونكفر بذلك العقل الذي عرفنا هذه المناهج .

أرأيت الذي لا يبصر بعينه ، أو لا يسمع بأذنه كيف يغلق باباً الى عقله فتحه الله له ، كذلك الذي يكفر ـ مثلاً ـ بالمنهج التجريبي أو المنهج التعقلي ، فإنّه يغلق مثل ذلك الباب .

ولأنّ حقائق الكون مختلفة،فإن المناهج المؤدية اليها متنوّعة أيضاً فبعضها تعرف عبر منهج دون آخر ـ كالرياضيات ـ لا تنفعها التجربة ، وبعضها بالعكس مثل الكيمياء فإنّ منهج التجارب أقرب إليها . وأغلب الحقائق بحاجةٍ الى تلفيق المناهج ببعضها .

وهكذا جاء في الحديث المأثور عن ألإمام الصادق ـ عليه السلام ـ :

« أبى الله أن يجري الأشياء إلاّ بالأسباب ، فجعل لكل شيء سبباً ، وجعل لكلّ سبب شرحاً ، وجعل لكل شرحٍ مفتاحاً ، وجعل لكل مفتاحٍ علماً ، وجعل لكلّ علمٍ باباً ناطقاً »(٣) .

---

(١) نهج البلاغة / حكمة ٢٧٤ ص ٥٢٤ .
(٢) بحار الأنوار / ج٢ ص ٥٤ .
(٣) بحار الأنوار / ج٢ ـ ص ١٦٨ .

الفصل الثاني:

المناهج الخاصة



تمهيد

بعد بيان أهميّة معرفة العلوم القرآنية ، ودورها في استنباط الحكم الشرعي نبيّن - بحول الله - ضرورة معرفة متغيّرات الزمان التي تتّصل بالحكم الشرعي وبالذات في الحوادث الواقعة ، ثم نعرج الى الحديث عن صفات الفقيه الذي يجوز له استنباط الحكم الشرعي، وهكذا سوف نستعرض حقائق هذا الباب ضمن ثلاثة بحوث :

١ - معرفة العلوم القرآنية .

٢ - معرفة الحوادث الواقعة .

٣ - صفات الفقيه .

١/ معرفة العلوم القرآنية

من خصائص الحكم العقلي ، وضوحه وتعاليه عن الريب وما يبعثه في النفس من سكينة ويقين ، وإنه لا يختلف مع سائر الأحكام العقلية ، ولا تتناقض مع ذاته في الظروف المختلفة ، ولا يختلف العقلاء فيه أنّى تعدّدت مشاربهم وانتماءاتهم .

ولا يبلغ العقل مثل هذه الأحكام ـ عادة ـ إلا بعد الإحاطة علماً بكل المواد الضرورية للحكم ..

فمن اراد استنباط حكم شرعي من القرآن الكريم يحكم عقله بأنّ عليه أن يؤتىٰ أولاً علم القرآن ، وعلم القران بدوره يعتمد على معرفة اللغة العربية التي نزل بها القرآن ، قال ربّنا سبحانه .

﴿ قرآناً عربياً غير ذي عَوج ﴾[1] .

وعليه أنْ يعايش آيات الذكر حتى يعرف ظلال الكلمات ومعاريض الحروف ، وآفاق البلاغة ، وطيف الاشارات واللطائف التي فيه .

أليس القرآن قمة البلاغة التي لا تُدانى .. فهو لا يؤدي الموضوع فقط ، وإنما يحيط به بياناً ، ويلفه بحزمة ضياء ، لا يدع جانباً منه في ظلام . وقد قال ربنا سبحانه :

﴿ ولقد يسَّرنا القرآن للذّكر فهل من مدكّر ﴾[2] .

---

(١) الزمر / ٢٨ .

(٢) القمر /١٧ .

وإنّ لغة القرآن تعرف بذاتها . . « بعد الاحاطة علماً باللغة العربية » فبعضها يفسّر بعضا . وسياق آياتها يفسّر محتوياتها . وجرس كلماتها يقرع القلب بإشاراتها وأمثلتها وقصصها وبصائرها .

وعند تدبره للقرآن يستثير كوامن عقله ، ويحفز دفائن وجدانه ، حتى تجلو بصيرته بآياته ويستخرج به معادن قلبه . وقد قال ربّنا سبحانه :

﴿ أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالُها ﴾[1].

وعلمُ القرآن يستدعي علمَ ناسخهِ ومنسوخهِ ، عامّه وخاصّه ، محكمِهِ ومتشابهه ، وذلك يتمّ بدراسته والتدبّر فيه ، كما يتمّ بمراجعة السنّة المباركة التي هي تفسيره . . من كلمات الرسول وأهل بيته ..

وإن القرآن لا يختلف عن السنّة ، فهو الينبوع الصافي لها وهي الرافد المنبعث منه . والذين يضربون السّنة بالقرآن يحجبون عنهما جميعاً .

فلا بدّ أنْ نقرأ السنّة كما لو أنها تفسيرٌ للقرآن ، ونقرأ القرآن بما لها من إشعاع يتجلى في تفسيرات السنّة الشريفة بعضها من بعض ،[2] لا يختلفان حتى يردا على الرسول الحوض كما قال ـ صلى الله عليه وآله ـ « اني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض » .

وقد سبق في فصل القرآن بعض الحديث في هذا الأمر .

والسّنة كلها تفسيرٌ للقرآن . . حتى ولو لم يذكر في الخبر من أين اقتبس محتواه من الكتاب ، ولكن النبّي وأهل بيته ـ عليهم صوات الله ـ بيّنوا أنّ علمهم من القرآن كما سيأتي . وعليه فانّ علينا مراجعة الروايات التي تحدثنا عن الفروع بصفتها تفسيراً لآ]ات الذكر . ونسعى جهدنا لوصلها بتلك الآيات التي استلهمت منها . ولعلّ هذا هو مراد الأئمة عليهم السلام حينما أمرونا بعرض كلماتهم على كتاب الله : فما وافقه أخذ به وما

---

(١) محمد / ٢٤ .

(٢) في هذا المعنى يقول الشاطبي: «محال ان تكون الجزئيات مستغنية عن كلياتها. فمن اخذ بنص مثلاً في جزئي معرضاً عن كلية فقد اخطأ وكما ان من اخذ بالجزئي معرضا عن كلية فهو مخطيء (الموافقات/ج٣ ص٨) وتجد في هذا الجزء حديثاً مفصلاً حول ضرورة الجمع بين القواعد العامة وادلة الفروع الجزئية. فليراجع.

خالفه ردّ الى أهله ..

ومن هنا فلا يمكن الاستغناء عن القرآن بالروايات التي تبيّن حكم الفروع ، كما لا يمكن الاستغناء عن الأخيرة بالقرآن . ولعل فقهاءنا ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يرجعون الى هذا الأصل حينما يعرضون عن روايةٍ صحيحة لأنها كانت مخالفة لما وعوه وعرفوه من روح الشريعة ، وقيم الوحي .. ولعلّ تعبيراتهم بأنّها مخالفة لمرتكز المتشرعة ، أو أنها تخالف شم الفقاهة ، أو أنّها من أخبار الآحاد فلا يؤخذ بها لعلّها كانت تعني مخالفة الرواية لجوامع العلم وأصول الفقه التي عرفوها من الكتاب والسنّة .

٢ ـ معرفة الحوادث الواقعة

ومعرفة الزمان ، والعرف والضرورات والحاجات هي محتوى الفتاوى التي تتصل بالحوادث الواقعة . ولذلك يحكم العقل بلزوم الإحاطة علماً بها قبل إصدار أي فتوى ..

لأن الفتوى هي الحكم الجزئي الذي يتركّب من أمرين الأول : مصادر التشريع . الثاني : تحديد الموضوع . ولا يمكن تحديد الموضوع من دون معرفة المتغيرات ، ببديهة الوجدان وشهادة العقل ، وحكم الوحي الذي أمرنا بأنْ نحكم بالعرف في قوله سبحانه .

﴿ خُذِ العفو وَأْمُرْ بالعُرفِ وأعرض عن الجَاهِلِين ﴾[١].

كما امرنا باستخراج الحكم من القرآن فقال سبحانه :

﴿ واذا جاءهم امرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾[٢].

وواضح أنَّ مثَل هذه الأمور من شؤون السياسة والحرب ذات علاقة بالمتغّيرات التي يحتاج علمها الى العلم بالزمان والمكان والخصوصيات التي فيهما .

ثم إنّ حقائق الشريعة ، ثابتة ومتطورة ، وقد ذكر الوحي بالقسم الأول منها فعرفه الناس بنور عقولهم ، واهتدوا اليه بحقائق إيمانهم ، بينما أمر في القسم المتطور بالرجوع

---

(١) الأعراف / ١٩٩ .

(٢) النساء / ٨٣ .

الى أهل الذكر يستنبطونه من القسم الأول . ووضع لذلك شرعة ومنهاجاً .

وقد اختلط عند كثير من الباحثين أمر القسمين فتراهم يستصحبون أدلّة القسم الثاني ، للقسم الاول . حيث قال بعضهم بالقياس ، وأضاف اليه البعض العرف والشرائع السابقة ، والمصالح المرسلة ، والاستحسان ، وسدّ الذرائع . بينما هذه الأدلة لا تكشف حكم الشرع ، إنما تحدّد مجال تطبيقها . ولعلّ حجية الإجماع أيضاً مخصوصة بهذا القسم إلاّ ما كان كاشفاً عن حكم المعصومين بالضرورة .

ويبدو أنّ السبب في ذلك هو الاعتقاد بأن أكثر أحكام الشرع ثابتة لا تطوُّر فيها . فلمّا أعوزهم الدليل على مفرداتها استعانوا بأدلة القسم الثاني فاختلط الأمر عليهم . . ولو أنّهم ميّزوا بين القسمين وعرفوا أنّ الثابت من الشريعة شيء قليل بالقياس الى المتطور منها ، لاستراحوا ولم يتكلفوا بإضافة أدلة لمعرفة ثوابت الشرع .

بلى ، أصول الأدلة واحدة في القسمين ، لأنّ محور الأدلة العقل ، وهو الذي يهدينا الى الشرع بعد أنْ يستثيره الوحي ، ولكنّ العقل لا يحكم بشيء لا عِلْمَ له به . فلذلك يقسم الأشياء الى قسمين : فمنها التي لا يحتاج العقل فيها الى أكثر من مجرد التذكرة والاستثارة ، مثل الايمان بالله ، وبرسله ، وباليوم الآخر ومعرفة حسن العدل

بينما أكثر الحقائق بحاجة الى معرفة الظروف الخارجية للأفتاء بحكمها . فهل الله يرضى بالتصدّي للرئاسة ؟ بلى إنْ كنت من أهلها ، وكلّا إنْ لم تكن .

هل يرضى بأنْ يحكم بحسن التعاون بلى إنْ كان على البرّ والتقوى ، وكلاّ إنْ كان على الاثم والعدوان .

هل الدين يأمر بالحرب ؟ بلى إن كانت في سبيل الله ، وكلّا إن كانت بالعدوان .

والسؤال : كيف نحدد الموضوعات الخارجية ، وأنّ هذا الشخص يصلح للرئاسة وذاك لا يصلح ، أو أنّ هذا الأمر برٌّ وتقوى ، وذاك إثم وعدوان ، وأنّ هذه الحرب في سبيل الله ، وتلك في سبيل الطاغوت .

هنا ينبغي ان يستعين العقل بالعلم ، فإذا كشف العلم أمر الموضوع جاء العقل المستنير بالشرع ، ونطق بحكمه .

دعنا ـ إذاً ـ نقسم الأحكام الى ما هي مجال الشرع والعقل فقط ، وما هي مجالها بالإضافة الى العلم ، ونسمّيها ـ اصطلاحاً ـ بالأحكام العلمية .

في الأحكام العلمية قد نجد العلم الذي يكشف لنا الأمر بوضوح كامل . . تستريح اليه النفس وتمتلىء باليقين والسكينة ، هنالك نعود الى العلم راضين مرتاحين . وهذا يسمّى بالرجوع الى أهل الخبرة،لأنهم أهل العلم .

ولكنَّ تحديد الموضوع بطريقةٍ علمية ثابتة أمرٌ نادر بينما أغلب الموضوعات الفقهية غامضة ، فماذا نصنع فيها .

هنا ينبغي اتّباع منهج العقلاء في معرفة الحقائق لشهادة العقل بأنها تقوم مقام العلم عند فقدانه أو تعسُّر الوصول اليه .

فإذا لم يجد العقلاء دليلاً علمياً يهديهم الى طريقهم ، سيهتدون ـ عادة ـ الى أقوال المارّة ويسألونهم أين الطريق حتى لو احتملوا جهلهم أو تضليلهم .

ومن الطرق العقلائية في معرفة الحقائق :

اليد والبينة وأخبار الثقة واليقين السابق ممّا بينّه الفقهاء في طرق الإثبات ، ولا نريد الحديث فيها هنا .

ومنها : العرف وتجارب الآخرين .

والعرف حسبما عرفه البعض : ما تعارفه الناس وساروا عليه من قول أو فعل أو ترك ، ويسمّى العادة .[1] .

وقال البعض : العرف ما استقرت النفوس عليه بشهادة العقول ، وتلقته الطبائع بالقبول .[2] .

وسمّاه البعض بالعوائد ، فقال الشاطبي عنها[3]: « والعوائد » المتبدلة « اقسام » منها ما يكون متبدلاً في العادة من حسن الى قبح ، وبالعكس مثل كشف الرأس « للرجال » فإنه يختلف ، بحسب البقاع في الواقع ، فهو لذوي المروءات قبيح في البلاد المشرقية« البلاد العربية الشرقية » غير قبيح في البلاد المغربية« المغرب العربي » فالحكم الشرعي يختلف باختلاف ذلك « فيما يتصل بشرط المروءة في العدالة.» فيكون عند أهل المشرق قادحاً في العدالة ، وعند أهل المغرب غير قادح .

---

(١) الاصول العامة للفقه المقارن / ص ٤١٩ عن علم اصول الفقه لخلاف .

(٢) المصدر عن سلم الوصول .

(٣) يراجع / ص ٢٨٥ موافقات .

ومنها ما يختلف في التعبير في المقاصد فتنصرف العبارة عن معنى الى « معنى في » عبارة أخرى : الى أن قال : والحكم أيضاً يتنّزل على ما هو معتادٌ فيه ، بالنسبة إلـى مَن اعتاده دون من لم يعتده ، وهذا المعنى يجري كثيراً في الإيمان والعقود والطلاق كناية وتصريحاً .[1] .

ومنها ما يختلف في الأفعال في المعاملات ونحوها كما إذا كانت العادة في النكاح قبض الصداق قبل الدخول ، أو في البيع الفلاني أنْ يكون بالنقد لا بالنسيئة ، أو بالعكس أو الى أجل كذا دون غيره . فالحكم أيضاً جارٍ على ذلك حسبما هو مسطور في كتب الفقه[2] .

ثم قال : واعلم أنَّ ما جرى ذكره هنا من اختلاف الأحكام عند اختلاف العوائد فليس في الحقيقة باختلاف في أصل الخطاب ، لأن الشرع موضوع على أنّه دائم أبدي ، ثم قال : وإنما معنى الاختلاف أنّ العوائد إذا اختلفت رجعت كل عادة الى أصل شرعي يحكم به عليها[3] .

وهكذا يعتبر العرف حجة في امرين :

(الأول :) عندما يتحول الى سيرة عقلائية تورث اليقين بالحكم الشرعي والحجة هنا العقل ، وليس العرف .

(الثاني :) عندما يقوم بتحديد الموضوع « مناط الحكم » وذلك في المجالات التالية .

ألف : عندما ترك الشرع الحكم فيه للقيم دون أن يحدد حكماً خاصاً ، مثل قوله سبحانه : ﴿ وأحسنوا إن الله يحبّ المحسنين ﴾[4] ما هو الإحسان ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ إنها قضايا عقلية يحددها العرف العام .

وقوله سبحانه : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ [5] .

---

(١) الموافقات / ج ٢ - ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .
(٢) الموافقات / ج ٢ - ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .
(٣) المصدر / ص ٢٨٦ .
(٤) البقرة / ١٩٥ .
(٥) الحديد / ٢٥ .

وقوله سبحانه : ﴿ اعدلوا هو أقرب للتّقوى ﴾(1) .

وقوله سبحانه :﴿ وبالوالديْن إحساناً ﴾(2) .

ما هو القسط ؟ وما هو العدل ؟ءوما هو الاحسان ؟ إنما العرف يحدّد كل ذلك فيما يتصل بالقضية المحددة . . وليس هذا من باب تحديد معنى الكلمات اللغوي ، لأن مثل هذه الكلمات واضحة ، وإنما لتحديد المصاديق الخارجية لها .

باء : فيما هو راجع الى العرف ذاتاً مثل المعاملات التي الاصل فيها تبادلُ المصالح ، وتحديد مصالح الناس ، وطريقة ضمانها ، راجع الى العرف إلّا إذا جاء نصٌ صريح بخلافه .

وقد دلت آيات كريمة على ذلك كقوله سبحانه :

﴿ يا أيّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾(3) .

إذا فسرّنا العقود ـ كما هو الظاهر ـ بكل عقد يجري بين الناس .

وقال سبحانه : ﴿ إلّا أنْ تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ﴾(4) .

﴿ يٰا أيّها الذين آمنوا لاتأكلوا اموالكم بينكم بالباطل إلّا أنْ تكون تجارة عن تراضٍ ﴾(5) .

فالتجارة التي يتراضى الطرفان بها مقبولة شرعاً ويعود أمرها الى العرف لتحديد التراضي . والى ذلك يرجع : الشورى في السياسة .

جيم : فيما يرتبط بمعاني الكلمات ، المفردة مثل كلمة الصعيد والإناء أو الهيئات المركبة والسياق ولطائف البلاغة والأمثلة وما أشبه ، ممّا يعود الى التفاهم حيث جاء القرآن بلسان عربيّ مبين ، وتكلم الرسل مع الناس على قدر عقولهم .

فلا بدّ أنْ نرجع الى الناس والى فهمهم العرفي في تحديد معنى الكلمات والتبادر الذي جعله علماء الأصول من أعظم شواهد المعنى واستخدام اللفظ فيه حقيقة.هو التبادر

(1) المائدة / 8 .
(2) الإسراء / 23 .
(3) المائدة / 1 .
(4) البقرة / 282 .
(5) النساء / 29 .

العرفي وليس الشخص لأن اللغة ظاهرة اجتماعية وليست حالة فردية ، خاصة بإنسان دون آخر[1] .

ومن أبعاد الرجوع الى العرف الشورى ، فإنّ حقيقة الشورى ليست استفتاء الناس في ثوابت الشريعة أوَ يجوز استفتاء الشعب في حرمة الخمر أو وجوب الفرائض ؟ انما هي في المتغيّرات كالحرب والسلم ، ومناهج الاقتصاد مما يختلف عبر الظروف والعصور والأمصار ، ولعل قوله سبحانه في صفة المؤمنين ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾[2] يهدينا الى أنّ الشورى تهمّ أمور المؤمنين وليس أمر الله .

وحتى في أمور الناس الشورى تنقل الى القيادة الرشيدة ، « الخبرة » التي تحدد « مجال الحكم » و« موضوع القرار » ، والقيادة الفقهية تستلهم « الحكم » الإلهي في ثوابت الشريعة أي من القيم العامة ومن النصوص الخاصة ، ويصدر الحكم ويقضي بالفتوى . ويبدو أنّ هذه الثنائية بين رؤية الناس ورأي الدين ، هي التي تحل أعقد لغز في القضية الدينية والتي جعلت النصارى يفصلون بينهما بقولهم مالله لله وما لقيصر لقيصر .

أما القرآن فيقول : ﴿ إن الحكم إلاّ لله أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه ﴾[3] ، ﴿ لله الدين الخالص ﴾[4] ،ويقول : ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضُوا من حولك ، فاعفُ عنهم واسْتَغفِر لهم وشاورهُم في الأمر ، فاذاعزمت فتوكّل على الله ، إنّ الله يحبُّ المتوكّلين ﴾[5] ، وبالتدبر في هذه الآية يتبين أنّ العزم والقرار النهائي بيد القيادة ، أما الشورى فهي تمهّد للقرار ، أو تسهل تنفيذه .

والرجوع الى العرف ينسجم مع بصائر القرآن عن العقل ، وأنّه نورٌ الهي يؤتيه من يشاء ، وعن الفطرة وأنّها تتوافق ودين الله القويم .

وقد تواترت آيات الكتاب التي تأمر بالرجوع الى العرف واتخاذه ميزاناً ، كما استفاضت الآيات التي تستشهد بعقول أولي الألباب وتحاكم الخصوم بهذا الميزان القويم .

---

(١) راجع في هذا الموضوع الاصول العامة للفقه المقارن / ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣ والموافقات ج ٢ / ص ٨٥ .

(٢) الشورى / ٣٨ .

(٣) يوسف /٤٠ .

(٤) الزمر / ٣ .

(٥) آل عمران / ١٥٩ .

دعنا نتدبر في كلام ربّنا لعلّه يهدينا الى سواء السبيل .

لقد أمرنا الله بأن نأمر بالعرف ، وهو ما يراه عقلاء الناس معروفاً . فقال سبحانه :

﴿ خذِ العفو وأمُرْ بالعرف وأعرِضْ عن الجاهلين ﴾[١] .

وعندالحديث عن الوصية المستحبة للأقربين ترك القرآن الأمر الى المعروف او الى العرف، فقال سبحانه : ﴿ كُتب عليكم إذا حضر احدكم الموتُ إنْ ترك خيراً الوصيةُ للوالدين والأقربين بالمعروف حقّاً على المتّقين ﴾[٢] .

كذلك عند بيان مهر بعض النساء ترك الأمر الى العرف ، وكيف يحدد مقدار المهر فقال سبحانه :

﴿ ومتّعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقّاً على المحسنين ﴾[٣] .

كذلك عند بيان متاع المطلقات ومقداره أوكله الى العرف ، فقال سبحانه ﴿ وللمطلقات متاعٌ بالمعروف حقّاً على المتّقين ﴾[٤] .

وكذلك عند حكم المطلقة مرتين حيث اوجب التعامل معها بالمعروف ، فقال تعالى :

﴿ الطلاق مرّتان فإمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ بإحسان ﴾[٥] .

وكذلك أمر معاشرة النساء بالمعروف فقال سبحانه :

﴿ يا ايُّها الذين آمنوا لا يحلّ لكم أنْ ترِثُوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلاّ أن يأتين بفاحشة مبيّنة وعاشروهن بالمعروف ﴾[٦] .

وكذلك في التعامل مع الناس في مختلف شئون الحياة ، أمر أنْ يكون بالمعروف فقال سبحانه :

---

(١) الأعراف / ١٩٩ .
(٢) البقرة / ١٨٠ .
(٣) البقرة / ٢٣٦ .
(٤) البقرة / ٢٤١ .
(٥) البقرة / ٢٢٩ .
(٦) النساء /١٩ .

﴿ يا ايُّها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص في القتلى ، الحُرُّ بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالانثى ، فمنْ عفي له من أخيه شيءٌ فاتِّباع بالمعروف وأداء اليه بإحسان ﴾[1] .

(١) البقرة / ١٧٨ .

٣ ــ صفات الفقيه

هل يستطيع كل مدّع أنْ يبلغ مستوى تلقّي أحكام الشريعة ؟ كلا ، لأن نور الوحي ـ تماماً ـ كنور العقل ، موهبة إلهية لا يتلقّاها الّا القلب الشهيد والأُذن الواعية ، والنفس الزكيّة والروح النقيّة .

يقول ربّنا سبحانه :

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافّةً فلولا نفر من كل فرقة طائفةٌ ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلّهم يحذرون ﴾[1] .

وهكذا كان الحذر من الله ، المنبعث من إنذار الفقهاء هو الهدف الأسمى للتفقّه في الدين ممّا يهدينا الى أنّ الفقيه ليس كلّ من عرف دقائق الفروع . بل الذي يسمو الى مستوى المنذرين ، في خشية الله والإخلاص له .

وقال ربّنا سبحانه :

﴿ انما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[2] .

وهكذا نعرف ان القلب القاسي لا يتلقّى علم الرب .

وقال سبحانه :

---

(١) التوبة / ١٢٢ .

(٢) فاطر / ٢٨ .

﴿ وليعلم الذين أُتوا العلم أنّه الحقُّ من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبُهم ﴾(١) .

وهكذا الإخبات يكون نتيجة العلم والايمان ، ومن دونه كيف يتفقه المرء في دين الله ؟ ..

وإذا كان الهوى يضل الانسان عن سبيل الله ، فان اتباع الحق يهديه بإذن الله الى نور المعرفة ، ولذلك نهى الله نبيه داود عن اتّباع الهوى بعد أن جعله خليفةً في الأرض وقال سبحانه :

﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فأحكم بين الناس بالحقّ ولا تتّبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾(٢) .

وقد بيّن الله سبحانه شروط العلماء الذين يحق لهم حكم المسلمين بكتاب الله التوراة) فقال سبحانه :

﴿ إنّا انزلنا التوراة فيها هدىً ونورٌ يحكم بها النبيُّون الذين اسلموا للذين هادُوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هُمُ الكافرون ﴾(٣) .

فهناك اربعة شروط نستوحيها من هذه الآية الكريمة :

كتاب الله والشهادة عليه ، وخشية الله دون الناس ، ومقاومة إغراءات المادة او الزهد في ثروات المترفين وتحدي ضغوط الطغاة) .

ويبدو من آية كريمة أن الفقيه ليس سوى العالم بالله ، المتبتل اليه، قال ربنا سبحانه :

﴿ أمّن هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه ، قُل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنّما يتذكّر أولو الألباب ﴾(٤) .

ويبقى العالم في حصن الله ما لم يتبع هواه ، فإذا اتبع هواه انسلخ عنه ، وكان (مثله

---

(١) الحج / ٥٤ .
(٢) ص / ٢٦ .
(٣) المائدة / ٤٤ .
(٤) الزمر / ٩ .

كمثل الكلب) أو ﴿ كمثل الحمار يحمل اسفاراً ﴾ .

قال الله سبحانه :

﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها . . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث ﴾[1] .

وقال عز من قائل :

﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾[2] .

إنّ شريعة الاسلام مستوحاة من معارف القرآن ، وهي - بدورها - تجليات لنور معرفة الله ، ومعرفة الله انما تعمر قلوب الخاشعين . كذلك قال الامام الصادق - عليه السلام - فيما روي عنه :

(فإن اردت العلم فاطلب أولا في نفسك حقيقة العبودية ، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك)[3] .

ولعل التعبير الشائع في روايات أهل البيت (العلم بالله) يدل على ذلك وأن العلم الحق هو الذي يكون بالاستعانة بالله .

فقد روي عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال :(وأما علامة العلم فأربعة : العلم بالله ، والعلم بمحبيه ، والعلم بفرائضه ، والحفظ لها حتى تؤدى)[4] .

ويفسر حديث مأثور عن الامام الصادق - عليه السلام - ذلك بالقول : (إنّ أعلم الناس بالله أخوفهم لله ، وأخوفهم له أعلمهم به ، وأعلمهم به أزهدهم فيها)[5] .

وروي عنه - عليه السلام - :

(الخشية ميراث العلم ، والعلم شعاع المعرفة ، وقلب الايمان ، ومن حُرم الخشية لا

---

(١) الأعراف / ١٧٥ - ١٧٦ .

(٢) الجمعة / ٥ .

(٣) الحياة / ج ٢ ص ٢٧٥ .

(٤) الحياة / ج ٢ - ص ٣١٣ .

(٥) المصدر ولعل المراد في الدنيا .

يكون عالماً)[1] .

ومن أبرز حقائق العلم بالله الزهد في الدنيا ، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة وهو حجاب كثيف بين القلب وحقائق المعرفة . وهكذا روي عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ .

(من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه ، وأنطق بها لسانه وبصّره عيوب الدنيا ، داءها ودواءها ، وأخرجه الله من الدنيا الى دار السلام)[2] .

وروي عن المسيح عليه السلام قوله :

(وكذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات ، ويدنّسها الطمع ، ويقسّيها النعيم ، فسوف تكون أوعية للحكمة)[3] .

وروي عن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ :

(لا يكون الرجل فقيهاً حتى لا يبالي أيّ ثَوْبيه ابتذل ، وبما سدّ فورة الجوع)[4] .

الفقيه الذي تشع الحكمة من مشكاة قلبه هو الذي أيقن بأن القرآن كتاب ربه ، فاطمئنت نفسه به ، ورغبت عما سواه ، وأستوقفت بينه وبين كتاب ربه عرى الحب والأحترام .

روي عن الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ .

ألا أخبركم بالفقيه حقاً ؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يترك القرآن رغبةً عنه الى غيره)[5]

وإذا بلغ الفقيه هذه الدرجة جرت ينابيع الحكمة في قلبه وألهمه الله سبحانه الحق في الأمور ..

روي عن الامام الصادق عليه السلام انه قال :

---

(١) المصدر / ص ٣١٦ .
(٢) المصدر / ص ٣١٧ .
(٣) المصدر / ص ٣١٨ .
(٤) المصدر / ص ٣٢٠ .
(٥) المصدر ص ٣٢٣

(اعرفوا منازل شيعتنا بقدر ما يحسنون من رواياتهم عنا ، فإنا لا نعدّ الفقيه منهم فقيهاً حتى يكون محدَّثاً ، فقيل له : أَوَ يكون المؤمن محدَّثاً ؟ قال : يكون مفهماً(و) المفهم المحدَّث)[1] .

(١) المصدر ص ٣٥٩ نقلاً عن موسوعة بحار الأنوار ج ٢ - ص ٥١ .



الفصل الثالث :

الامارات او المناهج العرفية



ماهي الامارات؟

عندما يبين الفقهاء حجية الظواهر ـ ظواهر الكتاب بالذات ـ تراهم يستشهدون على ذلك بأنها من الطرق العقلائية في التفاهم . مثلاً يقول العلامة محمد تقي الحكيم :

« حجية الظواهر : وهي أوضح من أن يطال فيها الحديث ما دام البشر في جميع لغاته قد جرى على الأخذ بظواهر الكلام ، وترتيب آثارها ، ولوازمها عليها ، بل لو أمكن أنْ يتخلّى عنها لما استفهام له التفاهم بحال . . لأنّ ما كان نصاً في مدلوله مما ينتظم في كلام لا يشكل إلا أقل القليل .

وبالضرورة إن عصر النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ ما كان بدعاً من العصور لينفرد به الناس في أساليب تفاهمهم بنوعٍ خاص من التفاهم لا يعتمد الظهور ركيزة من ركائزه ، وما كان للنبيّ طريقة خاصة في التفاهم انفرد به من معاصريه ، وإلّا لكانت أحدوثة التاريخ ، فالقطع بإقرار النبي لطريقتهم في التفاهم كافٍ في إثبات حجية الظواهر »[1] .

وحينما يستدل الفقهاء على حجية الاستصحاب تراهم يعتمدون مرة أخرى على بناء العقلاء ، فيقول العلامة المظفر (قدّس سره) في ذلك

« لا شك في أنّ العقلاء من الناس على اختلاف مشاربهم وأذواقهم جرت سيرتهم في عملهم وتبانوا في سلوكهم العملي على الأخذ بالمتيقّن السابق عند الشكّ اللاحق في

(١) محمد تقي الحكيم / الأصول العامة / ص ١٠٢ .

بقائه . وعلى ذلك قامت معايش العباد ، ولولا ذلك لاختلّ النظام الاجتماعي ولما قامت لهم سوق وتجارة »(1).

وفي معرض حديثه عن حجية الخبر الواحد يقول : « إنه من المعلوم قطعاً الذي لا يعتريه الريب استقرار بناء العقلاء طرًّا واتّفاق سيرتهم العملية على اختلاف مشاربهم وأذواقهم على الأخذ بخبر من يثقون بقوله ويطمئنون الى صدقه ويأمنون كذبه . وعلى اعتمادهم في تبليغ مقاصدهم على الثقات . وهذه السيرة العملية جارية حتى في الأوامر الصادرة من ملوكهم وحكامهم وذوي الأمر منهم »(2).

ويقول العلامة الأصفهاني عند بيان حجية اليقين (وهو عنده غير العلم) : « لما كان احتمال الخلاف غير موجود عند واجده ، ولا يرى نفسه إلاّ مصيباً كان حجة بالفطرة العقلائية ، إذا كان حاصلاً عن الأسباب العقلائية طابق الواقع او خالف فإن العقلاء يجرون عليه ويحرزون به الواقع ، وهو ـ بعد العقل والعلم المعروف بالفطرة ـ لكل أحد ، أحكم الطرق العقلائية وأتقنها إذا كان عن منشأ عقلائي ، بخلاف ما إذا كان ناشئا عن منشأ غير عقلائي ، فإنه لاحجية له عندهم،ويذمّون من جرى على طبقه ، ولهذا يلومون الوسواسين والقطاعين في الجري على طبق يقينهم »(3).

وحكي عن العلامة النائيني أنه قال في مقام الحديث عن حجية الامارات ورد بعض بعض المناقشات فيها قال :

« هذا الإشكال على تقدير تسليمه ، إنما يختصّ بخصوص ما إذا جعل الشارع حجية إمارة ابتداءً ، وهذا فرض غير واقع في الشريعة . وأما إذا كان جعله عبارة عن إمضائه لما جعله العقلاء حجية معتبرة عندهم في عرض الطرق العلمية لما يرون أن إصابته للواقع ليست بأقل من إصابتها »(4).

وقال بمناسبة أخرى :

« وإذا كانت الطرق المجعولة طرقاً عقلائية ولم يكن للشارع بالإضافة اليها تصرف

---

(1) محمد رضا المظفر / اصول الفقه / ج ٢ ـ ص ٢٥٢ .

(2) المصدر / ص ٨١ .

(3) ميرزا مهدي الاصفهاني (قدس سره) / معارف القرآن / ص ١١٤ .

(4) اجود التقريرات للمرجع الخوئي / ج ٢ ـ ص ٦٥ .

إلا إمضاؤها ، فلا بدّ وأن يكون المجعول محض صفة الطريقية والمحرزية ، ضرورة أنّ جعل الأحكام التكليفية في موارد تلك الطرق غير محتمل من العقلاء بالكلية ، بل شأنهم إنما هو إلغاء احتمال الخلاف الموجود في موارد تلك الطرق وجعله كالمعدم ، والمعاملة معها معامله الطرق العلمية »[1].

وهكذا نجدهم ـ رضوان الله عليهم ـ يجعلون الطرق العقلائية أصلاً في حجية الامارة ، فما هي الطرق العقلائية وكيف أصبحت حجة ، وإذا عرفنا حجيتها أفلا ينبغي لنا أنْ نعتمدها في كل المجالات وكيف ؟ .

نعود ـ للإجابة عن هذه المسألة ـ الى االبصائر التي سبقت الإشارة اليها ، وابرزها أن حكمة ابتعاث الرسل تتمثل في إثارة عقل الانسان وتنوير ركائز وجدانه ، وتذكرته بما نسي من فطرته فلم يكن الشرع بديلاً عن العقل ، بل مكملاً له .

وكذلك بالنسبة الى العقلاء وأعرافهم الحميدة ، ومناهجهم الرشيدة ، فلم يأت الشرع لإنكارها ، بل لتزكيتها وتنمية الجوانب الإيجابية فيها . لذلك فإنّه أمر بالعرف ، واستشهد بوجدان ذوي الألباب .

ولم نفهم من عقولنا أنّ مراد الشرع منا أكثر من تحري أوامره ونواهيه بالسبل العرفية التي يجري عليها العقلاء وهكذا نعرف ـ من وجدان عقولنا ـ أنّ من تحرّى عن أحكام دينه بهذه السبل فهو قد أبرأ ذمته ، وأدّى واجبه .

فمن سمع من ثقة خبراً ، ولم يكن هناك ما يدعو الى الريب في كلامه عرفاً فلم يعمل به كان عند العقلاء ملوماً وغير معذور ، وعكسه صحيح أيضاً : فلو عمل بكلامه برئت ذمته ، وقبلت حجته ، وهكذا فإنّ أدلة الاشتغال أو البراءة ، هي الأخرى محمولة حسب الفهم العرفي أيضاً ، وإذاً لا دليل على اشتغال ذمة المكلف بأكثر من القدر العرفي فيكفي فيه البراءة بذات الطريقة .

ولما استقرأنا سبل الشرع في إبلاغ أحكامه ، لم نجده يشذ عن تلك السبل العقلائية ، بل أمضاها وأكد عليها في مناسبات شتّى فعلمنا من استقرائها جميعاً ، علم اليقين بأنه مضى على نهجهم ، وأمضى سننهم ، ولم يبتدع نهجاً جديداً ولا ارتدع عن نهج إرتضاه العقلاء في تعاملهم مع بعضهم .

---

(١) المصدر /ص ٧٥ .

بل نجد الشريعة تنهى عن القياس في الدين ، وعن الأخذ بقول الفاسق ، وعن اتّباع الهوى ، وعن اتّباع أصحابه ، مما نعرف - بعد النظر وبعد تذكرة الشارع المقدس - نعرف أنها ليست من السبل الرشيدة عند العقلاء ، فقد يقيس البعض في أمور تافهة ولكنهم لا يستعملون القياس مثلاً في الأمراض الخطيرة ، وفي الحروب ، او في مصالحهم العامة ، وكذلك لا يأبهون بخبر الفاسق الكاذب أو صاحب الهوى في قضاياهم الرئيسية .

وبما أن الدين هو من أهم قضايا البشر لم يجز القياس فيه ، أو قبول خبر الفاسق أو ما اشبه .

على أن القياس يجوز فيما يبلغه عقل الإنسان أما فيما سواه فلا تجد عاقلاً يرتضيه .

وصفوة القول : إن العقل يحكم بأن الشرع المقدس يعتمد في إبلاغ أحكامه على السبل العقلائية ، لأنّ تلك السبل ممّا يعتبر سبيلاً-عند العقل-الى المرادات . . ونصوص العمل بالعرف والمعروف ، وأوامر التعقّل والتذكّر ، والتيقّن في الأمور ، وما أشبه ، شواهد على هذه الحقيقة ، قال الله سبحانه : ﴿ **خذ العفو وأمُر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾[1] .

﴿ **يا ايها الذين آمنوا إنْ جاءكم فاسق بنبأٍ فتبينوا أنْ تصيبوا قوماً بجهالةٍ فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾[2].

حيث إن التبيين ليس اكثر من التحري عن الحقيقة بالسبل العقلائية ..

وقال سبحانه :

﴿ **شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموتُ حينَ الوصية اثنان ذوا عدلٍ منكم**) [3]

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدينٍ الى أجل مسّمىً فاكتبوه** ﴾ .[4]

حيث ان شهادة العدلين ، أو عدل خبير ، أو شهادة الكتابة ، كل ذلك من السبل العقلائية التي تورث الطمأنينة في النفس . .

---

(١) الأعراف / ١٩٩ .

(٢) الحجرات / ٦ .

(٣) المائدة / ١٠٦ .

(٤) البقرة / ٢٨٢ .

وقال سبحانه :

﴿ ويقولون هو أُذُنٌ قل أُذُن خيرٍ لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾[1] .

حيث تدل الآية على تصديق قول المؤمنين .

وهناك آيات كثيرة تنعت المكذبين بأسوأ النعوت ، ممّا يشمل أيضاً الذين يكذبون بالحقائق التي تبلغهم حسب السبل العقلائية .

قال سبحانه :

﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾[3] .

والآية التي تأمرنا باتباع أحسن القول بعد الاستماع اليه ، تشهد بأن على الانسان أن يعمل عقله ويتحرى بالسبل المعروفة حتى يصل الى الحقيقة قال الله تعالى :

﴿ فبشّر عبادِ الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه أولئك الذين هداهُمُ الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾[4] .

---

(١) التوبة / ٦١ .

(٢) المؤمنون / ٦٩ .

(٣) يونس / ٣٩ .

(٤) الزمر / ١٧ - ١٨ .

بصائر في المناهج العرفية

ومما سبق يستبين لنا الحقائق التالية :

(أولاً :) إذا امكن للإنسان أنْ يبلغ العلم اليقين بالمناهج التي تحدّثنا عنها في بحوثنا السابقة ، بلا حرج او مشقة ، فعليه ألا يكتفي بالسبل العقلائية غير العلمية . إلاّ إذا جاء تصريح من لدن الشارع بجواز ذلك تسهيلا للناس ، وأكثر الامارات تدل على صحة الاعتماد عليها حتى عند امكانية الحصول على العلم مع حث وتحريض على تعلّم العلم .

(ثانيا :) إن كل سبيل اعتبره العقلاء وسيلة للتعرف على الحقيقة ،وأورث الطمأنينة لكل انسان معتدل الرؤية . . كفاه والفرق بينه وبين العمل بالظن عموماً في أمرين :

(الأول :) في أن مرادنا من الطمأنينة ما يلغي العقلاء الاحتمال المضاد بينما مرادهم من الظن مطلق الرجحان في جانب ولو كان بنسبة ٥١٪ والواقع ان هذا المقدار من الظن لا يكفي عند العقلاء .

(الثاني :) أن المعيار عندنا ليس الطمأنينة عند الشخص ، بل لا بدّ أنْ تكون بحيث يبعث الطمأنينة في نفس كل انسان لو كان في ظروف هذا الشخص .

والفرق واضح بين الأمرين : فاذا قلنا بحجية كل ظن شخصي كان علينا الالتزام بحجية الظنون الآتية من مصادر غير عقلائية ، مثل الجفر والرمل والرؤيا ، وخبر غير الثقة والقياس وما أشبه ، ولا دليل على صحة مثل هذه الظنون أبداً .

بينما إذا قلنا بحجية الطرق التي تورث الطمأنينة عند العقلاء فإن أمثال تلك الظنون تستثنى بالطبع ! ويكون الدليل على صحة الاعتماد عليها حكم العقل باعتماد الشرع على سيرة العقلاء في محاوراتهم وطرق الأثبات عندهم .

(ثالثا :) لأن الامارات العقلائية تعتمد على أساس سيرة العقلاء وسنتهم ، فإنّ هناك استثناءات معينة عليها مثلا : ليس كل خبر حكاه الثقة حجة ، فاذا كانت القضية من النوع الذي تحتاج الى اكثر من ثقة واحد كالاخبار بوقوع حرب عظيمة ونحن لم تَرِدْنا اخبار أخرى بها ، فان العقلاء لا يعتمدون كلام الثقة في مثل هذا المورد ، لأن هذه القضية مما لو كانت لبانت لكثير من الناس فبعدم أخبار غيره نشك في أخباره . . ولعل أمر الهلال من هذا النوع أنْ لو رآه واحد لرآه خمسون ، فلو أخبرنا الثقة به ثم لم يصدقه الآخرون لا يحصل للعقلاء طمأنينة كافية بإخبار الثقة به .

وكذلك في الإجماع حجة اذا كشف عرفاً عن حكم المعصوم ، كما إذا كان الإجماع في موضوع مبتلى به ، وكان الاجماع من لدن قدماء الأصحاب ، ولم يكن هناك احتمال عقلائي قوي بأن يكون منشأ الإجماع حالة نفسية ـ مثل الغلو في الدين ، أو التقصير في امره ـ مثل هذا الإجماع حجة ، لماذا ؟ لأنه يررث طمأنينة عند العقلاء وهي تعتبر حجة عقلية ..

أما الاجماع الذي لا يرقى الى هذا المستوى ، فإنه ليس بحجة .

وكذلك امارات الإثبات مثل اليد فهي حجة عرفاً فيما لو أورثت الطمأنينة عند العقلاء ، أما لو لم تفعل ذلك مثلما لو كانت الأيادي الظالمة كثيرة فان الثقة بها مفقودة وتسقط ـ بالتالي ـ عن حالة الحجية عند العقلاء .

وهكذا الأصول فالاستصحاب حجة عند العقلاء عندما يكون احتمال استمرار الشيء قوياً . أما عند قوة الاحتمال المعاكس فإن حجيته مشكوكة مثلاً . . لو دخل أحدٌ بلداً فرآه على هيئة ثم ـ بعد غيبة خمسين سنة عنها ـ عاد اليها ثانية فان بقاء ذات الهيئة في مثل الحياة الحاضرة بعيدٌ ، وعليه فاستصحابه لا يكون حجة ..

(رابعاً :) وفيما يتصل الحكم باستنباط الحكم الشرعي من الأدلة التفصيلية ، التي تعتمد على الاستلهام من الأدلة التي تهدينا الى الحكم الشرعي . فأنّ تراكم الأدلة والشواهد والمؤيدات إذا بلغ حدًّا كافياً لطمأنينة النفس عند أغلب الناس يكفي حجة

شرعية .. ولا يجوز الانتظار حتى يحصل المستنبط على دليل قاطع واحد مما ذكر في الأصول . فقد يكون اجتماع الشواهد والمؤيّدات عنده يعطيه طمأنينة كافية بينما مفردات هذه الشواهد لا تعطيه مثل ذلك .

(خامساً :) ينبغي الاّ يلاحظ المستنبط في استفادته الحكم وضعه عند الاحتجاج على غيره فإنّ الانسان قد يقتنع بفكره بشواهد معينة ولا يستطيع إقناع الآخر بها أما بسبب ضعف مستوى ذاك أو عدم القدرة على البيان عند هذا ..

ولا ريب أنّ من أسباب الخطأ تحديد الفكر في قالب أفكار الآخرين ، ولعل هذا هو الحكمة من تحريم المراء في الدين وانه يسبب الشك .



الفهرس

المصادر

المصادر العربية

١/ القرآن الكريم .
٢/ نهج البلاغة .
٣/ بحار الانوار.
٤/ تحف العقول .
٥/ الكافي .
٦/ رسالة المعاريض ـ تقريرات الميرزا الاصفهاني (مخطوط) .
٧/ الحياة .
٨/ المنطق الاسلامي اصوله ومناهجه .
٩/ كلمة الله .
١٠/ غرر الحكم ودرر الكلم .
١١/ فرائد الاصول .
١٢/ كفاية الاصول .
١٣/ حقائق الاصول .
١٤/ أجود التقريرات .
١٥/ تاريخ الفلسفة الاسلامية .
١٦/ تاريخ الفلسفة العربية .
١٧/ ابواب الهدى للعلامة الميرزا مهدي الاصفهاني (مخطوط) .

١٨/ الاصول العامة للفقه المقارن.
١٩/ المنطق نظرية البحث.
٢٠/ نشأة الفلسفة العلمية.
٢١/ منية المريد.
٢٢/ ديمقراطية القومية العربية.
٢٣/ ولسن اللامنتمي.
٢٤/ الثائرون.
٢٥/ ميادين علم النفس.
٢٦/ الانسان ذلك المجهول.
٢٧/ مقدمة لعلم النفس الاجتماعي.
٢٨/ المادية الجدلية والمثالية البرجوازية.
٢٩/ غسل الدماغ.
٣٠/ الجعفريات.
٣١/ العمل والمخ.
٣٢/ الموافقات.
٣٣/ تفسير الصافي.
٣٤/ تفسير العياشي.
٣٥/ علل الشرائع.
٣٦/ الصحيفة السجادية.
٣٧/ كنز العمال.
٣٨/ وسائل الشيعة.
٣٩/ مستدرك الوسائل.
٤٠/ البصائر.
٤١/ الخصال.
٤٢/ عوالي اللئالي.
٤٣/ رجال الكشي.

٤٤/ ضياء الصالحين.
٤٥/ عيون أخبار الرضا.
٤٦/ معارف القرآن.
٤٧/ اصول الفقه.

المصادر الفارسية

١/ علم ما به عالم خارج.
٢/ راه ورسم زندكي
٣/ جغرافياى انسانى عمومى.





من هذا الكتاب

مبادىء الدستور هي القيم والاصول العامة التي يستلهم منها المشرع افكار الدستور، وهي روح القوانين التي تتفرع من الدستور.

وعندما يقوم المشرع بوضع قوانين جديدة، فلا بد أن يعتمد على تلك الاصول لأنها تنفع القضاة عند اختلافهم في تفسير نص قانوني.

وكذلك التشريع الاسلامي ينبعث من روح عامة وقيم سامية تسري في أحكامه وأنظمته.

والكتاب الذي بين يديك هو عبارة عن بيان مناهج التشريع الاسلامي، ليكون مفيداً لمن يسعى لتفقه الدين. وهو بمثابة علم الاصول حسب الاطروحة الجديدة التي يحاول المؤلف بحثها في هذه الدراسة.

انتشارات المدرسي

طهران- ص ـ ب ١١١٧٥/٤٨٥